رواية

2020
31.12.2019

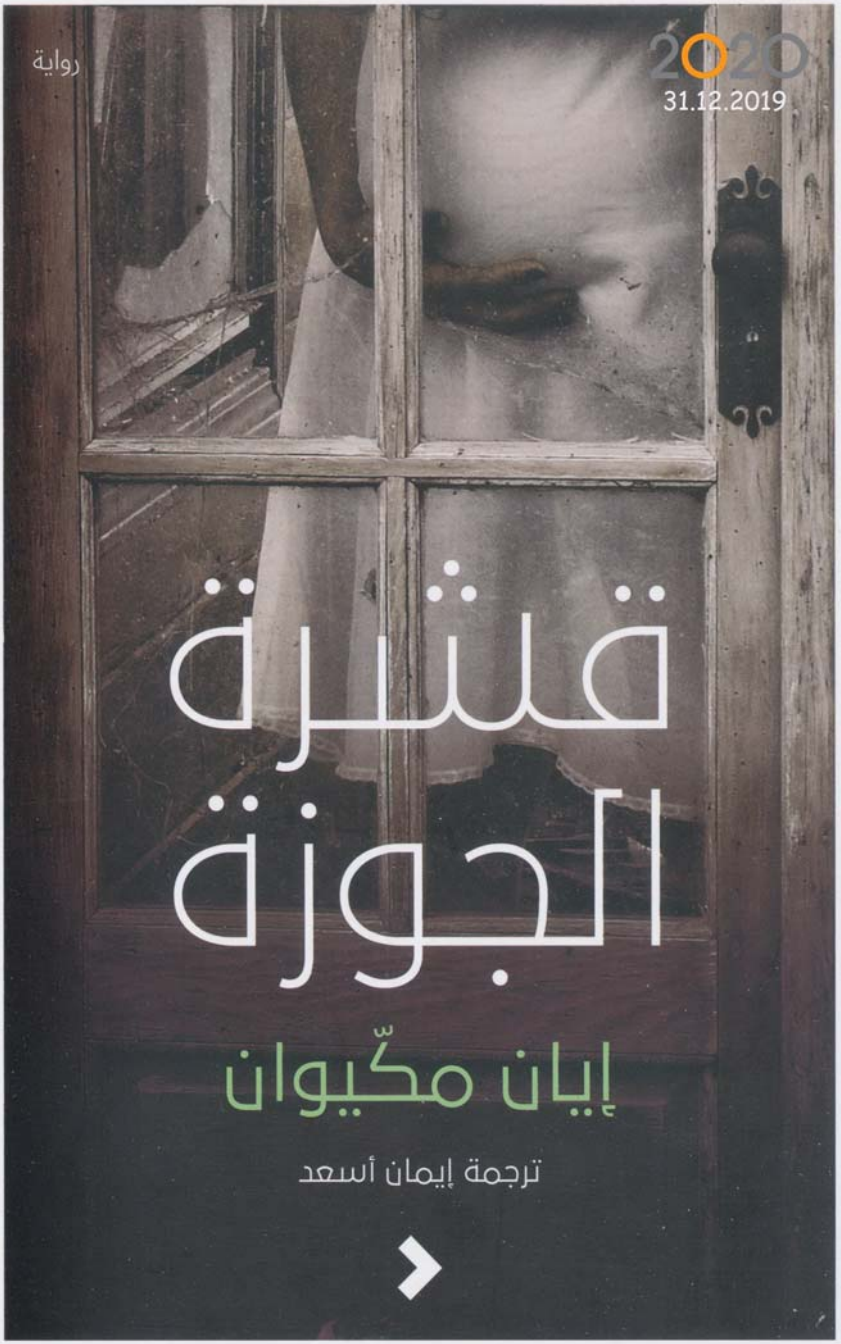

قشرة الجوزة

إيان مكّيوان

ترجمة إيمان أسعد

إيان مكيوان

قشرة الجوزة

ترجمة إيمان أسعد

قشرة الجوزة

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

قشرة الجوزة

تأليف: إيان مكيوان
ترجمة: إيمان أسعد
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-37-975-1

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-6891896

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Nutshell
Copyright © Ian McEwan 2016

إلى روزي وصوفي

"رباه! بوسعي أن أُحصَر في قشرة جوزة، وأعدّ نفسي ملك الرحاب التي لا تُحدّ – لولا أنني أرى أحلامًا مزعجة."

شكسبير، هاملت

تعريب جبرا إبراهيم جبرا

الفصل الأوّل

وهأنذا، في جسد امرأة، مقلوب رأسًا على عقب. أشبك ذراعيّ صابرًا وأنتظر، أنتظر متسائلًا من أنا، ولأي غاية أنا هنا. أغلق عينيَّ توْقًا كلّما اعتراني الحنين إلى الماضي يوم كنت أعوم في كيسي الجسدي الشفّاني، أطفو حالمًا في فقاعة أفكاري على مدّ محيطي المائي في شقلبات متأنية، أصطدم برقة بجدران حبسي الشفانيّة، هذا الغشاء المؤتمن عليّ الذي ما انفك يهتز، حتى وإن كان يكتمها عني، بأصوات المتآمرين في مشروع خسيس. تلك كانت أيام صباي العابث. أما الآن، مقلوب رأسًا على عقب، لا فُسحة بوصة أتحرّك فيها، ركبتاي محشورتان على بطني، فقد باتت أفكاري، حالها حال رأسي، محصورة. لا خيار لدي، أذني ملتصقة ليلًا نهارًا بتلك الجدران اللعينة. أصغي، أدون ملاحظات عقلية، والقلق يعتريني. أسمع تهامسًا على الوسادة عن نية قاتلة فيجتاحني الذعر ممّا ينتظرني، ممّا سأُجَرّ إليه.

أنا مغمور من رأسي حتى أخمص قدميّ في مفاهيم تجريدية، وحدها الارتباطات المتكاثرة بينها تخلق لديّ وهم عالم معلوم. إن سمعت "أزرق"، وهو شيء لم أره قط، سأرى في عين خيالي حدثًا عقليًّا يشابه "الأخضر" – والذي لم أره قط. أعدُّ نفسي بريئًا، حرًّا من حمل

نير الولاءات والالتزامات على عنقي، روحًا حرة طليقة رغم ضآلة حجرة معيشتي. لا أحد يعارضني ولا أحد يوبخني، لا اسم لي ولا عنوان سابق، لا ديانة لي ولا ديون عليّ، ولا أعداء. أجندة مواعيدي، إن كان لها من وجود، فمدوّن عليها يوم ميلادي المرتقب وحسب. أنا، أو بالأحرى كنت، رغم كل ما يدعيه علماء الوراثة في وقتنا الحاضر، لوحةً بيضاء. بيد أنها لوحة زلقة، لوحة مسامية، لا نفع منها في أي مدرسة ولا على أي سقف، لوحة تدون على ذاتها مع كل يوم تكبر فيه فتغدو أقل بياضًا. أعدُّ نفسي بريئًا، لكني على ما يبدو شريك في مؤامرة. أمي، بارك الرب قلبها النابض دون هوادة، وبارك ضجيج خفقه الخوّاض، يبدو أنها متورطة أيضًا.

يبدو، أمي؟ كلا، بل ولا ريب هي متورطة. أنت متورطة. وقد عرفتُ بذلك منذ بدئي. دعيني أستدعي تلك اللحظة، لحظة الخلق التي أوجدتني من عدم مع أول مفهوم أعيه. في الماضي السحيق، قبل عدة أسابيع، أخدودي العصبي انغلق على نفسه وبات نخاعي الشوكي، الملايين من الخلايا العصبية اليافعة، المنكبة على عملها مثل دود الحرير، غزلت وحاكت من محاورها العصبية المتدلية النسيجَ الذهبيّ المذهل لفكرتي الأولى، مفهوم بسيط جدًّا حدَّ أنه يتملص مني الآن. أتراها كانت أنا؟ نرجسية مُفرطة. أتراها كانت الآن؟ درامية مُفرطة. إذن لا بد أنها كانت فكرة سابقة على المفهومين، تحتويهما، كلمة زفرتها إما تنهيدة عقلية أو نشوة قبول، تجَسُّدًا لجوهر الوجود، شيئًا مثل – هذا؟ نفيسًا بإفراط. ها قد بتُّ أقرب، فكرتي كانت أكون. فإن لم تكن كذلك، فتصريفها المضارع الغائب، يكون. تلك كانت فكرتي البدائية والآن معضلتي – يكون. بتلك البساطة.

بروحية "Es muss sein"[1]. وهكذا، إذ بلحظة نشوء حياتي الواعية تضع حدًّا للوهم، وهم انعدام الوجود، ومعها ينبثق الواقع متفجرًا. الواقعية تنتصر على السحر، يكون تنتصر على يبدو. أمي تكون بالفعل متورطة في مؤامرة، وبالتبعية أكون أنا أيضًا متورّطًا، حتى وإن يكن دوري فيها، ربما، هو إحباطها. أو، لكوني أحمق متردّدًا سأعقد عزمي متأخرًا، فدوري وقتئذ سيكون الأخذ بثأري.

لكني لا أنوح متذمرًا في وجه الأقدار السعيدة. فقد أدركت منذ البدء، مذ مزقتُ الغلاف الذهبي عن هديتي الأولى منها، هدية الوعي، أن الاحتمال كان قائمًا بأن ينتهي بي المآل في مكان أسوأ وفي عصر أسوأ بكثير. فالنعم الكثيرة التي لا تُعدّ ولا تُحصى جليّة في عيني، ومشاكلي الأسرية هي، أو يجدر بها أن تكون، من الصغائر مقارنةً بها. فهناك الكثير مما يستحق الاحتفاء. سأرث وضعًا مقبولًا من الحداثة (القواعد العامة للصحة، الإجازات، العقاقير المخدرة، مصابيح القراءة، وثمار البرتقال في الشتاء) وسأقطن في زاوية موسرة من كوكب الأرض – أوروبا الغربية المتخمة بالطعام الخالية من الأوبئة والغنية بالامتيازات. أوروبا العجوز، أوروبا المصابة بتصلب الأنسجة، الطيّبة إلى حدٍّ ما، المعذّبة بأشباح الماضي، العُرضة لضربات المتنمرين، مزعزعة الثّقة بنفسها، الوجهة المنشودة لملايين الأرواح التعسة. الجوار الذي سأقيم فيه لن يكون دولة النرويج المزدهرة – والتي لكانت خياري الأول بناءً على صندوقها السيادي الضخم وسخائها في خدماتها الاجتماعية؛ ولن يكون أيضًا خياري الثاني، إيطاليا، على أرضية تنوع موائدها الموسمية بما لذّ

(1) Es muss sein: العبارة ألمانية وتترجم إلى (ما من مفرّ) وتجسد فكرة اعتناق المرء مصيره أيًا يكن. والعبارة ارتبطت ببتهوفن ومقطوعته الرباعية الوترية رقم 16 التي تغنى حركتها الأخيرة تحت عنوان "القرار الصعب" على هذا النحو: "هل من مفرّ؟ هل من مفرّ؟ لا ما من مفرّ، ما من مفرّ."

وطاب ومناظر خرائبها تحت شمس الأصيل المشرقة؛ ولا حتى بخياري الثالث، فرنسا، التي لاخترتها كُرمى نبيذها الأحمر وخيلائها الطروب. بل انتهى مآلي وريثًا لمملكة بالكاد مُتّحدة تحكمها ملكة مبجلة مسنة، حيث الأمير - رجل الأعمال، المعروف بأعماله الخيرية، بإكسيره (خلاصة القرنبيط لأجل تنقية الدم) وبتدخلاته غير الدستورية، يجلس متململًا ينتظر دوره في وضع التاج. هذا هو موطني، وسيؤدي الغرض. فعلى الأقل لم أولد في كوريا الشمالية، أجل هي الأخرى خط ولاية العرش فيها غير قابل للنقاش، بيد أنّها تفتقر إلى الحرية والطعام.

كيف تسنى لي إذن، أنا من لست غرًّا ولا حتى ابن البارحة، معرفة أمور كثيرة، أو معرفة ما يكفي لأخطئ في أمور كثيرة؟ لي مصادري. فأنا أصغي. أمي، ترودي، ما لم تكن برفقة صديقها كلود، فإنها تهوى دومًا الاستماع إلى الإذاعة وتفضل البرامج الحوارية على الموسيقى. ومن كان ليتوقع، مع بزوغ فجر عصر الإنترنت، هذه النهضة العظيمة للإذاعة، البعث الجديد للكلمة العتيقة "لاسلكي"؟ أصغي، جاثمًا أعلى ضجيج مصبغة المعدة والأمعاء، إلى نشرات الأخبار، مَعين أحلامي المزعجة الذي لا ينضب. مدفوعًا بنزعتي القهرية إلى إيذاء الذات، أرهف السمع إلى كل تحليل ونقاش محتد. إعادات على مدار الساعة، الموجز الدوري كل نصف ساعة لا يُسئمني. وحتى أني أطيق الاستماع إلى بي بي سي العالمية وفواصلها الموسيقية الصبيانية المدوية من التجميع المصطنع لعزف الأبواق والإكسيليفون. في منتصف ليلة طويلة هادئة، قد أركل أمي بقوة. ستفيق من منامها وتقضي بقية الليل مؤرَّقة، فتتناول المذياع. تسلية قاسية، أدري، لكننا في المقابل سنُحيط معًا بقدر أكبر من المعرفة مع طلوع الصباح.

وأمي تهوى الاستماع إلى محاضرات البودكاست، والكتب الصوتية حول تنمية الذات – إعرف نبيذك، من خمسة عشر جزءًا، السير الذاتية لكتّاب المسرح في القرن السابع عشر، ومجموعة متنوعة من كلاسيكيات الأدب العالمي. عوليس لجيمس جويس تُنعسها، بينما تثير فيّ أنا الحماس. في البدايات، كلّما أولجَت السماعات في أذنيها، سمعتُ الصوت نقيًّا واضحًا، بكل كفاءة كانت الموجات الصوتية ترتحل عابرةً عظام الفك والترقوة، نزولًا عبر هيكلها العظمي، وبرشاقة تخترق الكيس السلويّ المغذي. حتى التلفاز، كان لي أن أدرك معظم محتواه الهزيل بالصوت وحسب. كذلك، كلما التقت أمي كلود، تناقشا أحوال الدنيا، وعادةً ما يتأتى نقاشهما من باب رثاء وضعها المزري، حتى في خضم تآمرهما على جعل الدنيا مكانًا أسوأ. في محل إقامتي المؤقت، حيث لا شيء أفعله سوى النمو جسدًا وعقلًا، أستقبل كل ما يصلني، حتى التفاهات – وما أكثرها.

فكلود رجل يؤثر تكرار نفسه. رجل اللازمة الواحدة. لدى مصافحته غريبًا ما - وقد سمعت ذلك مرتين – سيعرّف عن نفسه قائلًا "كلود، كما كلود ديبوسي[2]." وكم هو مُخطئ في هذا الشأن. فهو كما كلود المطوّر العقاري الذي لم يؤلّف نوتة واحدة ولا ابتدع شيئا. الفكرة تراوده، يستمتع بها، ثم ينطقها عاليًا، ثم تراوده مرة أخرى - ولم لا؟ - يعود ويكرّرها. هزُّ موجات الأثير مرة ثانية بالفكرة ذاتها مُتعةٌ خالصة من مُتع حياته. هو واع لإدراكك تكراره نفسه. لكن ما يعصى عليه فهمه أنك لا تستمتع بفعلته هذه قدر استمتاعه هو. وهذه الخصلة، كما

(2) كلود ديبوسي - "Claude Debussy": مؤلف موسيقي فرنسي ومن بين أكثر المؤلفين تأثيرًا في الموسيقى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

تعلمت من سلسلة محاضرات **ريث، تُعرف بمشكلة المرجعية**[3].

وها هو مثال يوضح في الآن ذاته طبيعة أحاديث كلود وأسلوبي أنا في جمع المعلومات. هو وأمي قد رتبا على الهاتف (ولي أن أسمع حديث الطرفين) لقاءهما مساءً. وكما هي طبيعتهما في تجاهلهما وجودي – فقد رتّبا اللقاء على طاولة عشاء مضاءة بالشموع لشخصين. وكيف لي أن أعرف بأمر الشموع؟ لأن حين تزف الساعة ويصطحبهما النادل إلى طاولتهما أسمع أمي تتذمر. كل الطاولات مضاءة بالشموع عدا طاولتنا.

ويتناهى إلى مسامعي على التوالي زفير كلود الحانق، طرطقة متعجرفة لأصابع جافة، تمتمة خنوعة تنبعث، حسب تخميني، من نادل منحني الظهر، ثم صرير قدّاحة. وها هي ذا، طاولتهما المضاءة بالشموع جاهزة. كل ما ينقصها هو الطعام. لكن كل منهما يحمل قائمة العشاء الثقيلة في حجره - لي أن أشعر بالحافة السفلية لقائمة ترودي مقابل أسفل ظهري. والآن عليّ أن أستمع مرة أخرى إلى أسطوانة كلود المشروخة حول بنود القائمة، وكأنه أول رجل في العالم يلاحظ كل ما يرد فيها من توافه منافية للعقل. يتلكأ عند مصطلح "محمر بالمقلاة". وما "محمر بالمقلاة" سوى صك الغفران المخادع لسوقية ومضار "المقلي"؟ فأين عساه المرء يقلي الأسقلوب مع الفلفل وعصير الليمون؟ في مؤقت البيض؟ وقبل المضي قدمًا إلى بنود أخرى، يكرّر ملاحظته نفسها هذه مع تنويع في التشبيهات. ثم ينتقل إلى البند الثاني المفضل لديه، البند الأميركي المستورد، "الشوفان الإيرلندي". بصمت أحاكي بشفتيّ شرحه المستفيض قبل أن يستهلّه هو نفسه، وإذ أشعر بميلان طفيف

(3) محاضرات ريث - "Reith lectures": هي سلسلة محاضرات سنوية تعقدها محطة بي بي سي البريطانية بدعوتها لإحدى شخصيات المجتمع الفاعلة والمؤثرة لإعطاء محاضرات تتناول موضوعًا من مواضيع الساعة بهدف زيادة الوعي وطرح النقاش.

في محوري العمودي، ما يُنبئني أن أمي تميل للأمام كي تجس رسغه بإصبعها الحازم، وتقول له، بنبرة رقيقة تلهيه، "عزيزي اختر لنا النبيذ، انتق صنفًا فاخرًا."

كم أهوى مشاركة أمي احتساء الشراب. ربما لم يسبق لك أن جربت، أو لعلك نسيت، إحساس البورغندي (نبيذها المفضل) أو كأسًا طيبة من السونسير (أيضًا نبيذها المفضل) يصفق عبر مشيمة معافاة. حتى قبل صب النبيذ - اختيار الليلة، نبيذ جان ماكس روجرز سونسير - وعلى وقع فرقعة نزع سدادة القنينة، أشعر بملمسه على وجهي يعانقني كما نسيم الصيف العليل. أعلم أن الكحول من شأنه أن يخفض نسبة ذكائي. يفعل الشيء ذاته مع الجميع. لكن آه ثم آه، رشفة مبهجة من البينونوار القرنفلي، أو السوفينيون الكشمشي، تدفع بي في لجة بحري السري، أدور وأتشقلب، أنكص على عقبيّ عن جدران قلعتي، قلعتي النطاطة التي هي موطني. أو كذا كان الحال حين كان لدي متسع. الآن عليّ قبول التلذذ بمتعتي ساكنًا، ومع الكأس الثانية تجود قريحتي بتلك الرخصة التي يحق لصاحبها ما لا يحق لغيره، الشِّعر. خيوط أفكاري تنسل عن مغزلها وتنسج أبياتًا غنية خماسية التفاعيل، متقطعة وموصولة، في تنويع يسرّ الخاطر والنفس. لكنها لم تشرب كأسًا ثالثة قط، وقرارها هذا يجرح مشاعري.

"عليّ أن أفكر بالطفل،" أسمعها تقول بينما تغطي كأسها براحة يدها المتزمتة. هنا يخطر لي بلوغ حبلي الزيتي، كما يفعل المرء بحبله المخملي في بيت ريفي يقوم عليه خدم وحشم، فأسحب الحبل بشدة. هيه رفاقي! جولة أخرى من الشراب!

لكن لا، هي تؤثر كبح رغبتها حُبًّا فيّ. وأنا بدوري أحبها. كيف لا؟

هي الأم التي سألتقي، من أعرفها باطنًا وحسب. ليس بكاف! فنفسي تتوق إلى معرفة ظاهرها. فالظاهر مُهمّ. أعرف أن شعرها "أصفر قَشّي اللون"، يتهادى ملتفًا في "عقص برية" على كتفيها البيضاوين "بياض التفاح المقشور"، لأن أبي قد تلا عليها - وبصوت جهوري - قصيدته الغزلية عنها في حضوري. عشيقها كلود هو الآخر قد أشار إلى شعرها في مصطلحات أقل إبداعًا. ومتى كان مزاجها رائقًا، جدّلَت شعرها في ضفائر محكمة ولفّتها كما الطوق حول رأسها، في تصفيفة يسميها والدي، تصفيفة يوليا تيموشينكو. وأعرف كذلك أنَّ عينيّ أمي خضراوان، وأنفها " زرّ لؤلؤي" تتمنى لو كان أكثر من زرٍّ واحد، وكلا الرّجُلين قد عبّر، في مناسبات منفصلة، عن ولعه به كما هو في محاولة لطمأنتها. قد قيل لها مرات ومرات إنها جميلة، لكن مع ذلك تظل متشككة، ما يضفي عليها هالة من البراءة تجيّرها هي مصدر سلطة على الرجال، كذا قال لها أبي ذات ظهيرة في المكتبة. فردَّت عليه إن كان ما يقوله صحيحًا، فهي سلطة لم تسع إليها يومًا ولا تبتغيها. تلك كانت محادثة غير مألوفة بينهما أعزُّها أذنًا مصغية. أبي، من يُدعى جون، قال إنه لو امتلك سلطةً كتلك عليها أو على النساء عمومًا، فلا يتصور نفسه يتخلى عنها. وخمنتُ، من الموجة السمبثاوية التي دفعت بأذني عن الجدار لهنيهة، أن أمي قد هزت كتفيها مستهزئةً بوضوح، وكأنما تقول، إذن فالرجال مختلفون. ومن يكترث؟ عدا، قالت له بصوت مرتفع، أنَّ أيًّا كانت السلطة التي يفترض بها التمتع بها فهي نتاج خيالات الرجال عنها. من ثم رن الهاتف، وانصرف أبي مبتعدًا كي يتلقى المكالمة، وهذا النقاش النادر المثير حول من يتمتع بالسلطة لم يُستأنف من جديد.

لكن عَوْدًا إلى أمي، حبيبتي ترودي الخؤونة، مَن أصبو توقًا إلى لحم ذراعيها البيضاوين كما التفاح المقشور وإلى نهديها ونظرة من عينيها الخضراوين، مَن احتياجها إلى كلود - والذي لا أجد له أي تفسير - سابقٌ لوعيي الأول، وجودي البدائي أكون، مَن تحادثه ويحادثها همسًا على الوسادة، همسًا على مائدة العشاء، في المطعم، في المطبخ، وكأن كليهما يشك أنَّ للأرحام آذان.

تصوّرتُ تحفّظهما وتهامُسهما أمرًا مُعتادًا، حميمية عاشقين. لكني الآن واثق وثوق اليقين. النَّفَس في كليهما يتحاشى الحبال الصوتية لأنهما يخطّطان الإقدامَ على أمر مروّع. وقد سمعتهما يقولان: في حال سارت الأمور على غير ما يرام فحياة كليهما ستنهار. الاثنان متفقان أنهما في حال أرادا المضي قدمًا في التنفيذ، فعليهما أن يتصرفا بسرعة، وعاجلًا. ما انفكّ أحدهما يحدّث الآخر عن ضرورة التزامه الصّبر والسكينة، ويذكّره بالعواقب الفادحة لإجهاض خطتهما، وأنّ هناك مراحل عليهما قطعها، وأنّ كلّ مرحلة معشّقة بترس الأخرى فإذا تعطّلت إحداها هَوى كلّ شيء "مثل أضواء شجرة ميلاد عتيقة" – هذا التشبيه العصيّ على الفهم سمعته على لسان كلود، الذي نادرًا ما نطَق بأيّ شيء مُبهم. ما ينويان عليه يسقمهما ويذعرهما، ولا يسعهما أبدًا الحديث عنه صراحةً. عوضًا عن ذلك، حديثهما عنه يكتنفه الهمس، يتلبس صورة علامة الحذف في نقاطها الثلاث، استعارة تلطيفية، معضلة منطقية، يعقبها نحنحة وتغيير سريع للموضوع.

ذات ليلة حارّة أرِقَة، الأسبوع الماضي، حين ظننتهما مستغرقين في النوم، فجأة قالت أمي في جنح الظلام، ساعتين قبل الفجر كما أعلمني رقاص الساعة أسفلًا في مكتب أبي، "ليس بوسعنا فعلها."

وفورًا أجابها كلود في نبرة حازمة، "بلى بوسعنا." وبعد هنيهة تفكُّر، "بوسعنا."

الفصل الثاني

والآن إلى أبي، جون كيرنكروس، رجل ضخم، النصف الآخر مِن خريطتي الجينية، مَن أقداره الملتوية تعنيني وتؤرقني. إذ فيّ أنا وحسب أمي وأبي يكونان إلى الأبد، بحلوهما، مرهما، في خلطة الفوسفات والسكر على مد التركيب اللولبي المزدوج لحمضي النووي، الوصفة الرئيسة لجوهر كينونتي. أمزج جون وترودي في أحلام يقظتي – ومثلي مثل كل طفل لأبوين متباعدين، أتوق إلى تزويجهما مرة أخرى، هذا الزوج الوجودي الأساسي، وبجمعهما أطابق بين ظروفي الحياتية وخريطتي الجينية.

أبي يمر على بيتنا بين الوقت والآخر والبهجة تغمرني لدى مجيئه. أحيانًا يحضر إليها عصائر سموذي من المتجر المفضل لديه في شارع جد. لا يقوى على مقاومة تلك التركيبة الدبقة من السوائل التي يفترض بها أن تُطيل عمره. ولا أدري ما الذي يدفعه إلى زيارتنا، فكل مرة يغادرنا فيها، يغادرنا مظللًا بغمامة من الحزن. لي محاولات في الماضي رجمتُ فيها بالغيب وأثبتَ الوقتُ خطئي، لكني ما برحت أصغي جيدًا والآن أفترض التالي: أبي لا يعلم شيئًا عن كلود، ما زال مغرمًا صبابة بأمي، يحدوه الأمل بالعودة إليها قريبًا، ما زال مصدقًا قصتها بأن الداعي إلى

الانفصال هو منح كليهما "الوقت والمساحة للنضج" وتجديد الرابط الزوجي بينهما. رغم أنّ أبي شاعر لم ينل التقدير فإنّه ما زال مثابرًا بعزيمة قويّة لا تُفتّ. إنه صاحب دار نشر مُعدمة ومُديرها، وقد شهدَت نشر الأعمال الأولى لشعراء ناجحين، أصحاب اسم وصيت، ومنهم شاعر من شعراء البلاط. ما إن تبدأ شهرتهم تبلغ الآفاق، مثلهم مثل الأطفال، يهجرون داره الصغيرة إلى دور أكبر. أفترضه تقبل خيانة الشعراء حقيقةً من حقائق الحياة، وكما القديس، يكتفي وحسب بحصد الصيت الحسن الذي يبرر استمرارية وجود دار كيرنكروس. إن الحزن لا المرارة هو ما يعتريه على فشله في نظم القصائد. مرةً قرأ على مسامع ترودي ومسامعي نقدًا جارحًا لديوانه الشعري. وصف الناقد قصائده بالعتيقة، الكلاسيكية المتحجرة، "الجميلة" بإفراط. لكنه يتنفّس الشعر، وما زال يتلو القصائد لأمي، يدرّس الشعر، ينقح الشعر، ينقد الشعر، يتآمر في الأوساط الأدبية لصالح الشعراء المغمورين، يشارك في لجان الجوائز، يشجع على قراءة الشعر ويروج له في المدارس، ينشر مقالات عن الشعر في مجلات أدبية صغيرة، ويتحدث عن الشعر في الإذاعة. ترودي وأنا استمعنا إليه مرةً في بواكير الصباح. يملك مالاً أقل مما تملك ترودي، وأقل بكثير من كلود. وفي قلبه يكنز ألف قصيدة.

هذه هي مجموعة حقائقي ومسلماتي. ومثلي مثل جامع الطوابع الصبور، أتأملها محدودب الظهر وأضيف إليها بنود جديدة جمعتها مؤخرًا. جلده يعاني من خطب ما، الصدفية، ما يصيّر يديه متشققتين جافتين وحمراوين. ترودي تمقت شكلهما وتأنف من ملمسهما وما تنفك تقول له بأن يرتدي قفازين. لكنه يأبى. يملك عقد إيجار ستة أشهر على ثلاث غرف وضيعة في **شورديتش**، مثقل بالديون، ومثقل

بالوزن الزائد ويجدر به ممارسة الرياضة. البارحة وحسب، وقعت يداي – لا نزال مع استعارة جمع الطوابع – على **طابع بيني بلاك**[4]: البيت الذي تسكنه أمي وأسكنه أنا بالتبعية، البيت الذي يؤمه كلود ليلًا، هو بناء جورجي ضخم في منطقة **هاملتون تيراس** العنجهية، كما أنه أيضًا بيت طفولة أبي. في أواخر العشرينات من عمره، مع مستهل ظهور لحيته الأولى، وبعيد زواجه من أمي، ورث قصر العائلة. أمه العزيزة مضى على وفاتها زمن طويل. كل المصادر متفقة على أن البيت قذر. الأوصاف المبتذلة وحسب توفيه حقه: متقشر، متفتت، متداع. أحيانًا في فصل الشتاء يكسو الصقيع الستائر بطبقة رقيقة من الجليد فتيبس؛ في موسم هطول الأمطار الغزيرة، مصارف المياه، مثلها مثل مصارف المال الموثوقة، تعيد ودائعها مع فوائد؛ وفي الصيف، مثلها مثل مصارف المال المخادعة، تفوح نتانتها. لكن أنظر، ها أنا أمسك بملقطي بالطابع الأكثر ندرة من بين كل طوابع مجموعتي، **طابع جويانا**[5]: رغم حاله المهترئة هذه، فإن تلك المساحة المؤلمة على مد ستة آلاف قدم تشتري لك سبعة ملايين جنيه استرليني.

معظم الرجال، معظم الناس، ما كانوا ليسمحوا أبدًا لشريك حياتهم بطردهم من أسفل أفاريز طفولتهم. جون كيرنكروس ليس معظم الناس. وها هي استدلالاتي المنطقية. مولود في برج فلكيٍّ كريم، متعطش لإرضاء الغير، طيّب بإفراط، جدّي بإفراط، لا تسري في عروقه ذَرّة من طموح الشّاعر وجشعه الرّصين. يؤمن حقًا أن نظمه

(4) Penny Black: الطابع الأول الذي صدر في بريطانيا العظمى ضمن نظام البريد العام وذلك عام 1840 ومرسوم عليه الصورة الجانبية للملكة فكتوريا وبقيمة بنس واحد وقتذاك. أما الآن فالطابع ثمين كونه من الطوابع النادرة ويتوق جامعو الطوابع إلى اقتناء الطابع والاحتفاظ به ضمن مجموعاتهم لما يحمله من صفة تاريخية.

(5) British Guiana: طابع المستعمرة البريطانية "جويانا" وهو الطابع الأندر والأغلى على مستوى العالم إذ صدر عام 1856 وبكمية محدودة جدًا.

قصيدة في مديح أمي (عينيها، شعرها، ثغرها) والقدوم إلى هنا وإلقاء القصيدة عليها من شأنه أن يحنن قلبها عليه، وجعله مُرَحّبًا به في عقر بيته. لكنها مدركة أن عينيها لا تشبهان في شيء "مرج غالاواي"، الاستعارة التي نوى بها الاستدلال على "شدة خضرة عينيها"، وبما أن لا دم إيرلندي يسري في عروقها، فالبيت الذي نظمه بدا شاحبًا. كلّما استمعنا إليه، شعرتُ في نبضات قلبها المتباطئة بطبقة من الملل تتكلّس في عروق شبكة عينيها، تُعميها عن رؤية الشجن في المشهد القائم أمامها – رجل ضخم، ذو قلب ضخم، يرافع قضيته أمامها دون أي أمل، في سونيتة مخالفة لقواعد نظمها.

ربما غاليت في قولي ألف قصيدة. فكثير من القصائد التي يعرفها أبي طويلة، مثل تلك الإبداعات الشهيرة لموظفي البنوك: حرق جثمان سام ماكغي والأرض اليباب[6]. ما تزال ترودي تكلف خاطرها الاستماع إلى تلك الجلسات الشعرية العرضية. بالنسبة إليها يظل المونولوج خيارًا تفضله على تبادل الحديث، تفضله على الاضطرار إلى أخذ جولة أخرى في جنة عدن زواجهما غير المُعشِبة[7]. ربما هي تسايره من باب إحساسها بالذنب، أيًا يكن النزر المتبقي منه. إذ يبدو أن حديث أبي الشعري معها كان فيما مضى طقسًا من طقوس حبهما. لمن الغريب، كيف أنها لا تطيق دفع نفسها إلى الإفصاح له عما يشك حتمًا فيه، ما ستضطر إلى الكشف عنه لا محالة. أنها ما عادت تحبّه، أنَّ لها عشيق.

سمعت اليوم على الإذاعة امرأةً تسرد قصة دهسها كلبًا، غولدن

---

(6) "The Cremation of Sam McGee" للشاعر الكندي "Robert W. Service" وقصيدة "The Waste Land" للشاعر البريطاني "T. S. Elliot"

(7) Unweeded Garden: في إشارة إلى وصف هاملت للدنيا: "ما أشد ما تبدو لي عادات الدنيا هذه مضبنة، عتيقة، قاهية لا نفع منها. ألا تبًا لها، ألا تبًا تبًا لها! إنها لحديقة لم تعشب، شاخت وبزرت، لا يملؤها إلا كل مخشوشن تنفت رائحته." (تعريب جبرا ابراهيم جبرا)

ريتريفر، على طريق مهجورة ليلًا. جثمت عند مصابيح الإضاءة الأمامية جانبه، بيد تُمسك كَفّ المخلوق وهو ينازع الموت متشنّجًا في ألم مفزع. عيناه البنيتان الواسعتان الغفورتان تحدقان فيها. وبيدها الأخرى تناولت صخرة وانهالت بها ضربًا على جمجمة الكلب المسكين. القضاء على جون كيرنكروس لن يتطلب سوى ضربة واحدة، "*coup de vérité*"[8]. لكن عوضًا عن ذلك، وما إن يستهل قراءته الشعرية، تتلبس ترودي ملامح الاستماع اللامبالية. أما أنا، فأعيره أذنًا مصغية.

في العادة نمضي نحو مكتبته الشعرية في الطابق الأول. الصوت الوحيد المسموع لدى جلوسه على كرسيه المعتاد يصدر عن الساعة ذات الرقاص الصاخب الموضوعة على إطار المستوقد. هنا، في حضرة الشاعر، أسمح لنفسي الرجم في الغيب كما أشاء. إن كان أبي يرنو بنظره نحو الأعلى كي يستجمع أفكاره، فسيرى الحال المتردي لتصاميم آدم النيوكلاسيكية على السقف. التلف قد نثر الغبار الجصي على متون الكتب الشهيرة وكساها كما طبقة من السكر الناعم. أمي تمسح مقعدها براحة يدها قبل جلوسها عليه. وبلا أي مقدمات منمقة، يأخذ أبي نفسًا عميقًا، من ثم يستهل. يتلو القصائد بفصاحة رشيقة، مفعمة بالمشاعر. معظم القصائد المعاصرة تجمد أوصالي، تثير فيّ القشعريرة. معظمها تنصب على الأنا، كامدة باردة اتجاه الآخر، ومظالم وشكاوى كثيرة محشورة في أبيات قصيرة. إلا أني في عناق أخوي دافئ، أستقبل جون كيتس وويلفريد أوين. أشعر بأنفاسهما على شفتيّ، بقبلتهما تلثم ثغري. فمن منا لا يتمنى لو أنه هو من نظم "Candied apple, quince, and plum and gourd"[9]، أو

(8) ضربة الحقيقة القاضية.

(9) البيت يعود إلى الشاعر جون كيتس من قصيدته (في عشية القديسة آغنيس – The Eve of St Agnes) وهي قصيدة

"The pallor of girls' brows shall be their pall"[10]؟

أستعير عينَي أبي العاشقتين، وأتصورها جالسة إلى الطرف الآخر من المكتبة. تجلس على مقعد جلديّ كبير ذي ذراعين يعود إلى حقبة أثاث فرويد المكتبي في فيينا. ساقاها الرشيقتان شبه العاريتين مندستان تحتها على نحو فاتن. تتّكئ بمرفقها على ذراع المقعد وتسند رأسها المتدلي، أصابع يدها الأخرى تنقر بخفة على كاحلها. هذه الساعة المتأخرة من بعد الظهيرة حارة، النوافذ مفتوحة، همهمة حركة السير من شارع **جونز وود** لطيفة على الأذن. تعابير وجهها متأملة، كئيبة، شفتها السفلى متهدلة. ترطبها بلسان صاف. عقص شقراء معدودات تتدلى رطبة على عنقها. فستانها القطني، فضفاض كي يحتويني، أخضر فاتح، أفتح من خضرة عينيها. الحمل يتقدم على وتيرته دون كلل ولا ملل، والإرهاق قد نال منها، وزادها فتنة. جون كيرنكروس يبصر تورد الصيف على وجنتيها، الخط الجميل لعنقها وكتفيها وتورم نهديها، هضبة الأمل المستديرة التي هي أنا، ربلتي ساقيها الشاحبتين، الكعب الناعم لقدمها المكشوفة، صف أصابع قدمها المتقلصة كما أصابع أقدام الأطفال البريئة في الصور العائلية. في عين خياله يرى أن الحمل قد سما بكل شيء فيها نحو الكمال.

بصره أعمى عن رؤية حقيقة انتظارها له كي يرحل. كم أن إصرارها عليه للعيش في مكان آخر، الآن، ونحن في الفصل الثالث من

رومانسية تروي قصة حبٍّ عذري في القرون الوسطى بين فتاة وشاب من عائلتين متصارعتين. وتعد القصيدة من ضمن أشهر قصائد كيتس الرومانسية. والبيت أعلاه يشير إلى الهدايا التي أحضرها الحبيب إلى حبيبته عشية القديسة أغنيس، وترجمتها إلى العربية (تفاح محلّى، سفرجل، برقوق وبقطين.)

(10) البيت يعود إلى قصيدة (نشيد لأجل الشباب الهالك – Anthem for Doomed Youth) وتعود للشاعر البريطاني ويلفريد أوين. وهي من قصائد الحرب العالمية الأولى الشهيرة إذ شارك أوين في القتال وقتل على أرض المعركة في فرنسا قبل أسبوع من إعلان الهدنة التي أنهت الحرب. والقصيدة التي يرثي فيها الشباب القتلى في الحرب نشرت بعد وفاته. وترجمة البيت إلى العربية هو التالي (ولتكفّن أجسادهم بوجوه النسوة الشاحبة.)

الحمل، ينم عن فكر منحرف. هل يا ترى أبي شريك في جريمة قتله؟ رجل بهذه الضخامة، ستة أقدام كما سمعت، عملاق ذو شعر أسود كثيف ينسدل على ذراعين جبارتين، عملاق أحمق يصدق بأنّه تصرُّف حكيم منه السماح لزوجته بالحصول على "مساحتها الخاصة" التي تدَّعي احتياجها لها. مساحة! فلتأتِ إليّ هنا حيث لا مساحة لي كي أعقف إصبعًا واحدة. إشارة أمي إلى "المساحة"، إلى احتياجها لها، هي استعارة مشوهة، إن لم تكن مرادفًا. مرادف لأنانيتها وشرِّها وتحجر قلبها. لكن تمهل، أنا أعشقها، هي إلهتي وأنا في أمس الحاجة إليها. أسحب كل الأوصاف التي نعتُّها بها! قلبي المكروب مَن تلفّظ بها. فأنا مُضلّل بالأوهام مثل أبي. هذه هي الحقيقة. جمالها ونأيها بنفسها وقوة شكيمتها كلّ لا ينفصل في صورتها التي نعشقها.

أعلاها، كما أرى في عين خيالي، سقف المكتبة المُهترئ يطلق سحابة مفاجئة من الذرِّ الدوار يلمع طافيًا في شعاع من ضياء الشمس. وأرى ترودي تومض قبالة المقعد الجلدي البني المتشقق حيث لربما تمدد فيما مضى هتلر أو تروتسكي أو ستالين في أيامهم الفيينيّة، حين كانوا بعد على صورتهم الجنينية لذواتهم المستقبلية. أقر. أعترف. أنا ملك يمينها. إن أمرت، أنا الآخر سأحزم متاعي وأغادر إلى **شورديتش**، وأرضعني في المنفى. فما الداعي إلى حبل سرّي، إن كنا أنا وأبي يربطنا بها حبل العشق الميؤوس.

ورغم كل الدلائل - ردودها المهذبة المقتضبة، تثاؤبها، تجاهلها العام له ولقصائده - يتلكأ أبي حتى بواكر المساء، آملًا، ربما، في دعوتها له على العشاء. لكن أمي في انتظار كلود. وأخيرًا تدفع زوجها بعيدًا بإعلانها حاجتها إلى الراحة. سترافقه إلى الباب. ومَن بيده يا ترى تجاهُل الأسى

في صوته على وقع وداعه المتردد. كم يوجعني تصور الذل الذي يحتمله كرمى قضاء دقيقة أكثر أو اثنتين في حضرتها. لا شيء - سوى طبيعته - تحول بينه وبين فعل ما كان أي رجل آخر سيفعل - ينحيها عن طريقه ويتوجه إلى حجرة النوم الرئيسة، حيث خلقت نطفتانا، ينبطح على الفراش أو في مغطس الحمام مغمورًا بسحب البخار الكثيفة، من ثم يدعو أصدقاءه لقضاء الليلة، يصب النبيذ، وبذا يكون الحاكم الآمر في بيته. عوضًا عن ذلك، يأمل أبي في نجاح خطته التي تعتمد اللطف والطيبة وحساسيته المفرطة لاحتياجاتها. آمل أن أكون مخطئًا، لكني أرى أنّ الفشل الذريع مُقدّر لخطّته، لأنها لن تنفك تحتقره لضعفه، وسيعاني أكثر وأكثر. زياراته لنا لا خاتمة لها، هي وحسب تتلاشى. يغادر مكتبته تاركًا خلفه حزنًا يتردد صداه في الأثير، وطيفًا خائب الأمل، يجلس متربعًا على مقعده.

وها نحن الآن ندنو من الباب الأمامي بينما تصطحبه خارج الملكية. تلك التنويعة من التلفيّات كانت موضع نقاش بينهما مرات عدّة. أعرف أن مفصل هذا الباب قد انخلع عن المنجور. العفن الجاف قد صيَّر العتب[11] طبقةً من غبار. ألواح من البلاط قد اختفت، وأخرى تصدعت - من الطراز الجورجي، مزخرفة فيما مضى بالنقشة الألماسية، ويستحيل استبدالها. ما يغطي تلك الشقوق وقطع البلاط المفقود أكياس بلاستيكية تمتلئ بقنانٍ فارغة وطعام متعفّن. ومن تحت الأقدام، مندلقة على الأرض، مكونات شعار قذارة البيت الملكي: فتات السجائر، صحون بلاستيكية ملوثة بدماء الكاتشب الكريهة، أكياس شاي متهدلة وكأنها أكياس خيش بالغة الصغر من البقوليات

(11) العَتَب - architrave: عارضة مرتكزة على العمود مباشرةً وتعد حلية معمارية فوق الباب في الطراز المعماري الكلاسيكي.

تختزنها الفئران وأقزام الجن. عاملة التنظيف قد هجرت البيت مكروبة قبل وجودي. ترودي تدرك أنّه ليس من واجبات الحبلى حمل أكياس القمامة على قلبها ورميها في صندوق المهملات الكبير خارجًا. لكان من السهل عليها الطلب من أبي تنظيف الردهة، لكنها لن تفعل. فالواجبات المنزلية قد تجر وراءها حقوق المِلكيّة. ولعلّها تنوي اختلاق قصة ذكية عن هجره لها في هذا الحال المزري. أما كلود فيظل بالمجمل زائرًا، غريبًا، لكني سمعته مرة يقول إن تنظيف ركن من البيت لن يتأتى عنه إلا إبراز الفوضى في بقية أرجائه. ورغم موجات الحر القائظ فأنا مُحصّن جيدًا من النتانة. بيد أن أمي ما تفتأ تتشكى منها طوال النهار، لكن في هِمّة فاترة. فالنّتانة ما هي إلّا وجه واحد وحسب من أوجه تعفن البيت الزوجي.

ولعلّها تظنّ أنّ بقعة من خثارة اللبن على فردة حذائه، أو منظر البرتقالة المكسوة بفرو العفن الفضي ستقلص من وقت وداعيّات أبي. لكنها مخطئة. الباب مفتوح، أبي يقف مفشوخ الساقين على العتبة، أنا وهي داخل الردهة. موعد مجيء كلود سيزف بعد خمس عشرة دقيقة. وأحيانًا يأتي في وقت أبكر. ترودي باتت نزقة لكنّها تُبقي على تظاهرها بالنعاس. هي واقفة على قشور بيض. ورقة مربعة زفرة كانت فيما مضى لفافة شريحة من زبدة غير مملّحة قد علقت بصندلها ولوثت أصابع قدميها بالزيت. هذه الأحداث سترويها لاحقًا على كلود في سرد فكاهي.

أبي يقول لها: "اسمعي، لا بد أن نتحدث."

"حسن، لكن ليس الآن."

"ما نفتأ نؤجل حديثنا."

"لا يسعني وصف الإجهاد الذي أعيشه الآن. لا فكرة لديك بتاتًا

عن حالي. دعني وحسب أستلقي وأنام."

"معك حق. ولهذا السبب أرى أنه يجدر بي العودة والانتقال إلى هنا كي يتسنى لي ..."

"رجاءً جون، ليس الآن. قد خضنا هذا النقاش من قبل. أنا في حاجة إلى مزيد من الوقت. حاول مراعاة حالتي. أنا حامل بطفلك، أم تراك نسيت؟ هذا ليس بالوقت المناسب للتفكير بنفسك."

"لا تروق لي فكرة وجودك هنا وحيدة بينما بوسعي ..."

"جون!"

تتناهى إلى مسامعي تنهيدته ما إن يعانقها بقدر ما تسمح له. تاليًا، أشعر بذراعها تمتد متناولةً معصمه، تتفادى بحذر، على ما أظن، ملامسة يديه الموبوءتين، تديره للخلف وبرقة تدفع به إلى الشارع.

"حبيبي، أرجوك، غادر ..."

لاحقًا، بينما تضطجع أمي، غاضبة ومرهقة، أعاود أنا تأمل افتراضي الأوليّ. يا ترى أي صنفٌ من الرجال يكون؟ هل جون كيرنكروس الضخم هو رسولنا نحو المستقبل، الرجل الذي سيضع حدًا للحروب، يقمع السلب والاستعباد ويقف على قدم المساواة مع نساء العالم ويراعيهن؟ أم تراه الرجل الذي ستدهسه حوافر الوحوش وتلقي به في هوة النسيان؟ قريبًا سنعرف الجواب.

الفصل الثالث

ومن عساه يكون كلود هذا، الدجال الذي انسل كالدودة بين عائلتي وآمالي؟ سمعتها مرةً ودونتها على لوح ذاكرتي: الريفي ذو العقل البليد[12]. مستقبلي يلوح أمامي مظلمًا. وجوده يحرمني حقي في حياة سعيدة برعاية كلا والديّ. فقد أخضع أمي لشهوته المخزية ونفى أبي. مصالحه لن تتفق أبدًا مع مصالحي. ولا بد سيسحقني. إلا إن دبرت خطة. إلا، إلا، إلا - كِسرة كلمة، طيف علامة على مصير بديل، تثغو الأمل في تفعيلة يامبية[13] قصيرة، تطفو في أفكاري مثل عوّامة عين سوداء[14]. محضُ أمل.

وكلود، مثله مثل العوّامة، بالكاد يُعتبر حقيقيًا. ليس حتى بمُنْتَهِز فُرَص معسول اللسان، ولا وغدًا ذا ابتسامة ساحرة. بل مُثير للملل حدّ الإعجاز، مُبتذل مُجرَّد من أيّ إبداع، حرفيّة تفاهته متقنة الصنع مثلها مثل أرابيسك **الجامع الأزرق**. ها هو رجل ما ينفكّ يصفّر على الدوام، لا يصفّر الأغاني بل قوافي الإعلانات، الرنات، مَن يبهج صباحك بصفير رنّة استنساخ نوكيا الساخر لقيثارة تاريغا. رجل تعليقاته المتكرّرة

(12) The dull-brained yokel: نعت تطلقه شخصية ستيفن ديدالوس في عوليس على شخصية عم هاملت – كلوديوس.

(13) الهامب – iamb: تفعيلة شعرية ذات مقطعين: مقطع قصير يتبعه مقطع طويل.

(14) يقصد بالعوامة النقط السوداء التي تظهر في مجال الرؤية على هيئة أجسام طافية في العين.

تفتقر إلى الفطنة والدهاء، تقطر من فمه مائعة، جُمَله الموهنة تقع في الأذن هامدة كما الكتاكيت اليَتَمة، رخيصة تتلاشى. رجل يشطف عضوه في الحوض ذاته حيث تشطف أمي وجهها. رجل يفقه شؤون الملابس والسيارات وحسب. مَن أخبرنا مئة مرّة أنه أبدًا لن يشتري كذا ولن يقود سيارة كذا، أو كذا، ولا سيارة هجينة أو.. أو.. وأنّه لا يشتري أطقُم بِدَله إلا في كذا، لا، ذاك على شارع **ماي فير**، أما القمصان فمن محلٍّ آخر، وجواربه من، لا يذكر... لو أن ...لكن. لا أحد غيره ينهي جملة مع "لكن".

ذاك الصوت التفه، تلك النبرة المشبوهة. حياتي بأسرها قضيتها أحتمل العذاب المزدوج لصفيره وحديثه. على الأقل أنا مُعفىً من الابتلاء برؤيته، لكن الحال سيتبدل عمّا قريب. ففي حجرة الولادة الدامية شبه-المعتمة (فقد قررت ترودي أنه هو، لا أبي، من سيكون معها)، متى ما انبثقتُ لملاقاته أخيرًا، وأيًا تكن هيئته، سيظل السؤال الذي يؤرقني هو ذاته: ما الذي تفعله أمي بحق السماء؟ ما عساها تريد؟ هل اجترحت كلود من تعويذة ما كي تستعرضه مثالًا على غموض الشهوة الجنسية؟

ليس يدرك الجميع إحساس وجود قضيبِ خَصْم أبيك على بعد إنشات من أرنبة أنفك. في هذه المرحلة المتقدمة من الحمل كان من الأجدر بهما أن يحجما عن إشباع شهوتهما لصالحي. على الأقل من باب الكياسة، إن لم يكن من باب الالتزام بوصية الطبيب. أغلق عينيّ، أعض على نواجذي، أسناني تصر، أشد وثاقي على الجدران الرحميّة بكامل قوتي. فمن شأن مطبات اهتزازية كهذه أن تقلع جناحًا عن طائرة بوينغ. أمي تحفز عشيقها، تنخسه بزعيقها الصارخ. **جدار الموت!** مع كل مضاجعة، مع كل ضربة مدك، يتملكني الذعر من اقتحامه الجدار،

من اختراق رمحه جمجمتي اللينة ونثر بذور كينونته في أفكاري، يسقيها بمطر تفاهته القشدي. من بعدها، معطوب-الدماغ، سأفكر وأتكلم مثله. سأغدو ابن كلود.

احبسني في طائرة بوينغ تهوي منزوعة الجناحين في المحيط الأطلسي ولا تحجز لي تذكرة ليلية أخرى لحضور مداعباته. هأنذا، على مقعدي في الصف الأمامي، أجلس على نحو أخرق رأسًا على عقب. هذه مسرحية متقشفة، حداثية بشكل كئيب، من شخصيتين رئيستين فقط لا غير. أضواء المسرح مسلطة بكامل قوتها، ويدخل كلود. تعرية نفسه، لا تعرية أمي، هو ما ينوي عليه. يخلع ملابسه ويطويها مرتبةً على الكرسي. جسده العاري، مثله مثل بدلة محاسب، باهت لا يلفت الأنظار. يجول في حجرة النوم، على خشبة المسرح، خارج خشبة المسرح، عريانًا يناجي ذاته في مشهد يتقطر مواضيع تفهة. الصابون الزهري، هديته إلى عمته في عيد ميلادها، والذي يجدر به إعادته إلى المتجر في **شارع كرزون**، حلم نسي معظم أحداثه، سعر الديزل، اليوم يبدو وكأنه يوم ثلاثاء. لكنه ليس بيوم ثلاثاء. كل موضوع جريء يئن واقفًا على قدميه، يترنح، من ثم يقع هامدًا تاركًا المسرح للموضوع الذي يليه. وماذا عن أمي؟ هي في الفراش، بين الملاءات، كاسية عارية، تشنف أذنيها بكلامه، متيقظة ومتأهبة بهمهمتها وإيماءة تعاطفها. أما الأداء الخفي عن أعين الجميع إلا عينيّ، فيأخذ محله تحت الملاءات، سبابة تدعك بظرها المتهدل وتستقر نصف بوصة داخلها، تهزهزها برفق مع تسليمها به والتنازل له عن روحها. أظنه من اللذة القيام بذلك. نعم، تتمتم له بين آهاتها، هي أيضًا تشاركه شكوكه بشأن هدية عمته، نعم، هي الأخرى تنسى أحلامها ما إن تفيق، ومعه حق، اليوم

يبدو كيوم ثلاثاء. لا تعليق لها على موضوع الديزل - شكرًا للرب على رحماته الصغيرة.

ركبتاه تضغطان على الفرشة الخؤونة التي ضمت في ماض قريب أبي. وبإبهامين بارعتين تفك أمي سروالها الداخلي وتفسح المجال. يدخل كلود. أحيانًا سيناديها فأرتي، لقب على ما يبدو يثيرها، لكن لا قبلات، لا لمس ولا ملاطفة، لا وعود ولا تمتمات، لا لعق لطيف ولا حلم يقظة عابث. فقط الصرير المتسارع للسرير، إلى أن تصل أمي أخيرًا وتأخذ محلها عند **جدار الموت** وتشرع بالزعيق. لعل تلك اللعبة قديمة الطراز في الملاهي مألوفة لديك. ما إن تنطلق وتتسارع، قوة الجاذبية تسمرك على الجدار بينما الأرض تهوي في دوامة تحت قدميك. ترودي تدور في دوامة أسرع، وجهها يستحيل بقعة ضبابية من الفراولة والقشدة، لطخة خضراء تحل محل عينيها. صراخها يعلو ويعلو، من ثم، بعد الجولة الأخيرة من الصعود والهبوط، الزعيق والارتجاف، أسمع نخيره المكبوت المفاجئ. وقفة قصيرة جدًا. يغادر كلود. الفرشة تعود وترتفع، وأعاود سماع صوته الآن، هذه المرة ينبعث من الحمام - مستأنفًا المناجاة مع تكرار في المواضيع، **شارع كرزون** ويوم الأسبوع، ومع تنويع مبتهج من الصفير لرنة من رنات نوكيا. مسرحية من فصل واحد، ثلاث دقائق على الأكثر، لا تكرار. عادةً ما تنضم إليه في الحمام، وبلا أي تلامس، يشطف كل منهما جسد الآخر عن جسده بماء الاغتسال الحار. لا لمس حنون، ولا نعاس في عناق العاشق الدافئ. عادةً، في غمرة هذا الغسل السريع، والذهن صاف من بعد النشوة، يعودان فينكبان على حبك خيوط مؤامرتهما، إلا أن صدى قطرات الماء المنهمر على البلاط يغمر صوتَيهما، فتتوه عني الكلمات.

وهذا هو السبب وراء ضآلة ما أملك من معلومات فيما يخص مؤامرتهما. كل ما أعرفه أنها تثيرهما، تخفض من صوتيهما، حتى إن كانا يظنان أنهما وحدهما لا ثالث معهما. وحتى أنني أجهل اسم عائلة كلود. المهنة مطور عقاري، وإن لم يكن على قدر نجاح معظم أقرانه. امتلاكه المربح وقصير الأمد لبرج سكني في **كارديف** يجسد ذروة إنجازاته. ثري؟ ورث مبلغًا من سبعة أرقام، وكل ما تبقى له الآن، على ما يبدو، ربع مليون. يغادر بيتنا حوالي الساعة العاشرة، ويعود بعد السادسة. وها هما فرضيّتاي المتضادتان عنه: الفرضية الأولى، هناك شخصية قوية تكمن متربصة في صدفة تفاهته. إذ يعصى على العقل استيعاب وجود شخصية تافهة مثل شخصيته. لا بد أن رجلًا داهية وشريرًا ويقظًا يختبئ في مكان ما داخله. هو رجل فريد من نوعه، آلة ذاتية الصنع، أداة خداع قاتلة، يتآمر ضد ترودي حتى وهو يتآمر معها. أما الفرضية الثانية: الإناء بما فيه ينضح، الصدفة خاوية، هو متآمر صادق في نواياه معها، وإن يكن بليدًا أكثر منها. من جهتها، تؤثر ألا تشك في رجل يعدو بها إلى بوابة الفردوس في أقل من ثلاث دقائق. أما أنا فأؤثر الإبقاء على عقل منفتح.

أملي في اكتشاف المزيد يكمن في البقاء متأهبًا الليل بأكمله في انتظار الوقوع عليهما يغردان فجريّة[15] جديدة. جواب كلود "بوسعنا" في نبرة غير معتادة منه هو ما أثار فيّ الشكوك حول حقيقة بلادته. خمسة أيام مرت مذ سمعتها – ولا شيء. أركل أمي كي تستيقظ لكن ما كانت لتقلق منام عشيقها. عوضًا عن ذلك تلتقط محاضرة بودكاست وتقحمها في أذنيها وتسلم عقلها إلى عجائب الانترنت. انتقاؤها عشوائي.

(15) Aubade: قصيدة أو أغنية ترحيب بالفجر أو أغنية حب تنشد عند الفجر.

وقد سمعت كل المواضيع. استزراع اليرقات في يوتاه. ممارسة التنزه مشيًا على الأقدام في بورين. هتلر وهجوم الفرصة-الأخيرة على آردن. قواعد وآداب السلوك الجنسي في قبائل اليانومامي. كيف انتشل بوجيو براتشيوليني قصائد لوكريتيوس من هوة النسيان. القوانين الفيزيائية لرياضة التنس.

أظل متيقظًا، أصغي، أتعلم. باكرًا هذا الصباح، قبل بزوغ الفجر بأقل من ساعة، المادة المسموعة جاءت أثقل من المعتاد. منسلًا عبر عظام أمي، راودني حلم مزعج متنكرًا في هيئة محاضرة رسمية. **حالُ العالم**. خبيرة في العلاقات الدولية، امرأة رزينة منطقية ذات صوت رخيم، حذرتني من أن وضع العالم لا يسُرّ عدوًّا ولا حبيب. عرضت حالتين ذهنيتين هما المسيطرتان اليوم: الشفقة على الذات والسلوك العدواني. كل حالة منهما على حدتها خيار سيّئ على مستوى الأفراد. أمّا إن امتزجا، على مستوى الجماعات والشعوب، فسيتخمّر شراب سام انتشى عليه مؤخرًا الروس في أوكرانيا، كما سبق أن جرى في الماضي مع رفاقهم الصرب في تلك البقعة من العالم. قد استصغرتم من شأننا، وها نحن نثبت لكم اليوم حجمنا الحقيقي. الآن وقد باتت روسيا الذراع السياسية لعالم الجريمة المنظمة، فاندلاع حرب جديدة في أوروبا ما عاد احتمالًا غير وارد. انفضوا الغبار عن وحدات الدبابات على مد الحدود الجنوبية لليتوانيا، وعلى مد السهول شمال ألمانيا. وها هو الشراب ذاته هيَّج غلاة الإسلام الهمجيين. الكأس قد فرغت، والصرخة ذاتها ما تزال تصم الآذان: قد أهنتمونا، وسنأخذ بثأرنا.

المحاضِرة ترى الجنس البشري من منظور معتم، حيث السيكوباتيّون يشكلون نسبة ثابتة من البشرية لا تتبدل. الصراعات

المسلحة، سواء مبررة أم لا، تجذبهم إلى أتونها. يساهمون في الدفع بنزاع محلي إلى اقتتال عبر الحدود. أوروبا، من وجهة نظرها، تعيش أزمةً وجودية، متشرذمة وواهنة مع تجرع جماعات متنوعة من القوميين النرجسيين من ذات الكأس الشهية. الارتباك حول القيم يعمها، بكتيريا معاداة السامية عادت تستوطنها، جموع المهاجرين غاضبون متململون. عدا عن أوروبا، في كل بقاع الأرض، التفاوت في توزيع الثروة جائر إلى حدّ لم يسبق له مثيل، فاحشو الثراء تسيدوا العالم وباتوا العرق المتفوق الجديد. عجلة الاختراع سخرتها الدول لأجل تطوير الأسلحة الذكية، سخرتها الشركات العالمية في إيجاد السبل لتفادي دفع الضرائب، والبنوك القويمة سخرتها في كنز جيوبها بملايين الكريسماس. والصين، أكبر من أن تحتاج إلى أصدقاء أو مستشارين، مستهزئةً تسبر شواطئ جيرانها، تشيد جزرًا من الرمال الاستوائية، تعد العدة للحرب التي تعلم علم اليقين أنها قادمة لا ريب. الدول الإسلامية موبوءة بالتشدد الديني، القمع الجنسي، والإبداع الموءود. الشرق الأوسط، الحاضنة النووية للحرب العالمية القادمة. أما الولايات المتحدة العسرة فبالكاد تحمل شعلة الأمل للعالم، فهي تحمل على نيرها جرائم التعذيب، تقف عاجزة أمام نصها المقدس المكتوب في عصر الشعور المبودرة المستعارة، وكأنما الدستور قرآن منزل لا يقبل التبديل. شعبها متوتر الأعصاب، يعاني من السمنة المفرطة، مذعور، يخالجه غضب يعجز عن الإفصاح به، يزدري حكومته، وكل سلاح يباع يوقظ جريمةً نائمة. وأفريقيا لم تتعلم بعد حيلة الحفل الديموقراطي - الانتقال السلمي للسلطة. أطفالها يلقون حتفهم، بالآلاف كل أسبوع، إثر افتقارهم إلى أبسط الأساسيات – مياه نظيفة، نواميس، وأدوية رخيصة. أما الخطر الذي يتهدد البشرية

جمعاء على قدم المساواة فهي تلك الحقائق المضجرة القديمة عن التغير المناخي، غابات تختفي، مخلوقات تنقرض والجليد القطبي يذوب. صناعة الزراعة المربحة والسامة تطمس الجمال الأرضي البيولوجي. المحيطات تتحول إلى ماء حمضي مذق. وفي الأفق المنظور، تدنو منا على عجل، أمواج تسونامي البوليّ من طلائع المسنين المتزايدين، متسرطنين وخرفين، مع تكلفة الرعاية الصحية المهولة التي سيتطلبونها. وعاجلًا، مع التبدل الديموغرافي، الكثافة السكانية ستنخفض على نحو كارثي. إبداء الرأي لن يعود حرًا، الديموقراطية الليبرالية لن تعود مرفأ المصير المنشود، الروبوتات ستسرق الوظائف، الحرية ستتصارع وجهًا لوجه مع الأمن، الاشتراكية لحق بها العار، الرأسمالية فاسدة، مدمرةٍ، لحق بها العار، ولا بديل آخر في الأفق.

أي باختصار، كما قالت، فتلك الكوارث هي صنيعة طبيعتنا الثنائية. طبيعة ذكية وطفولية. فقد شيدنا عالمًا معقدًا وخطيرًا تعجز معه طبيعتنا النزاعية عن إدارته. وفي خضم هذا اليأس، فالتصويت العام سينصب لصالح القوى الخارقة. العصر الثاني للعقل على أفول. كنا مذهلين، لكن اليوم بتنا هالكين. عشرون دقيقة. كِلْك.

مشغول البال، أنقر على حبلي. هو مسبحتي التي ألجأ إليها كلما اعتراني القلق. تمهل، أقول في نفسي. بما أن الطفولة هي المرحلة التي أنا مقبل عليها، فيا ترى أين العيب في الطبيعة الطفولية؟ قد استمعت إلى كثير من تلك النقاشات وبت أعرف الآن كيف أقارع الحجة بالحجة. فلا أسهل من النظرة التشاؤمية، حتى أنها متعة شهية، وسام الشرف وشارة الامتياز على صدور المثقفين في كل مكان. فهي تعفي طبقة المفكرين من إيجاد الحلول. كما أن الأفكار السوداوية للمسرحيات

والقصائد والروايات والأفلام تثيرنا. والآن انتقلت العدوى إلى البرامج الحوارية. ولمَ عسانا نصدق هذا السرد المتشائم في عصر لم يسبق للبشرية أن عرفت قبله غنىً أكثر، ولا خدمات صحية أفضل، ولا عاشت عمرًا أطول؟ نسبة ضحايا الحروب ووفيات المواليد انخفضت إلى حدٍّ غير معهود – هذه المعرفة المهولة، كل تلك الحقائق التي تستند على أسس علمية، في أي عصر سابق كانت متاحة بقدر ما هي متاحة لنا جميعًا اليوم؟ عصر نشهد فيه كل هذا التعاطف الحنون – اتجاه الأطفال، الحيوانات، الديانات الأخرى، والأجانب المجهولين من بقاع بعيدة – ويتضاعف يومًا بعد يوم؟ عصر ارتقى فيه ملايين البشر من الكينونة المعدمة لأجدادهم؟ حيث في الغرب، حتى الفقير يتكئ على مقعده، ويتسلى بالاستماع إلى الموسيقى الساحرة بينما يقود سيارته على الطريق السريع الأملس بأربع أضعاف سرعة الجواد المنطلق؟ حيث الجدري، شلل الأطفال، الكوليرا، الحصبة، وفيات المواليد العالية، الأمية، الإعدام العلني ولجوء السلطة الروتيني للتعذيب، كلها تلاشت إلى زوال في دول كثيرة؟ ففي ماض ليس ببعيد، كل تلك اللعنات كان لها وجود يومي. عصر حيث وجود ألواح الطاقة الشمسية وحقول الطواحين الهوائية والطاقة النووية تبشر بالخلاص من بالوعة ثاني أكسيد الكربون، والمحاصيل المعدلة وراثيًا ستنقذنا من التلف على يد المبيدات الكيميائية وتنقذ الأشد فقرًا من الموت جوعًا؟ عصر حيث الهجرات الكبيرة إلى المدن ستعيد أراض شاسعة إلى البرية، تخفض من نسبة المواليد، وتنقذ نساء القرى من براثن السلطة الأبوية الجاهلة؟ وماذا عن المعجزات التي باتَ مسلّمًا بها والتي تصيّر العامل البسيط موضع حسد القيصر أوغسطس: علاج الأسنان دون ألم، الإنارة

الكهربائية، الاتصال المباشر اللحظي بمن نحب، أروع موسيقى شهدها العالم، وموائد شهية من عشرات الثقافات المختلفة؟ نحن متخمون بالامتيازات والملذات، وكذلك متخمون بالشكاوى، والبقية ستلحق بنا. أما بالنسبة إلى الروس، فالشيء ذاته قيل عن الإسبان الكاثوليك. توقعنا رسو سفنهم على شواطئنا. ومثل كثير من التوقّعات، لم تتحقّق. المسألة انحلت مع عدة سفن حربية وعاصفة هبت رياحها كما نشتهي وأبعدت أسطولهم إلى شمال اسكتلندا. الهواجس ستراودنا دومًا - فتلك هي ضريبة هديتنا المعقدة التي منحتنا إياها الأقدار، الوعي.

ترنيمة واحدة أرتلها للعالم الذهبي الذي أنا على وشك استملاكه. ففي حبسي قد بت جهبذًا في الأحلام الجماعية. فمن منا حقًا يعرف الحقيقة؟ أنا بالكاد يتسنى لي جمع الأدلة. كل فرضية إما تدعمها فرضية أخرى أو تلغيها. لذا مثلي مثل الجميع، سآخذ منها ما أبتغي، ما يناسب احتياجاتي.

بيد أنَّ هذه التأملات قد ألهتني وفاتتني الكلمات الأولى من الحوار الذي بقيت متيقظًا لأجله. تغريدة الفجرية. دقائق تفصلنا عن رن جرس المنبه. كلود تمتم شيئًا، أمي أجابته، من ثم عاود الحديث مرة أخرى. أعود وألصق أذني بالجدار. أشعر باضطراب في الفراش. الليلة كانت حارة. لا بد أن كلود ينهض الآن، يخلع عنه القميص الذي يرتديه للنوم. أسمعه يقول إنه سيلتقي بأخيه بعد الظهيرة. كان قد ذكر أخاه ذاك من قبل. كان يجدر بي إبداء اهتمام أكبر. لكن سياق الحديث دائمًا ما أثار فيّ الملل - مال، حسابات، ضرائب، ديون.

كلود يقول، "كل آماله معلقة على الشاعرة التي ينوي التعاقد معها."

شاعرة؟ قلة من الناس في هذا العالم تتعاقد مع الشعراء. أنا أعرف وحسب واحدًا منهم. أخوه؟

أمي تقول، "أوه تلك المرأة. كنت قد نسيت أمرها. تنظم القصائد عن البوم."

"البوم! يا له من موضوع مثيرا على كلٍّ، عليّ أن ألتقيه الليلة."

تقول له على مهل، "لا أظن من الحكمة أن تلتقيه. ليس الآن."

"عليّ أن أفعل وإلا سيعاود القدوم إلى هنا. لا أريده أن يزعجك. لكن."

فتقول له أمي، "ولا أنا. لكن لا بد أن ننفذ الأمر على طريقتي. بروية."

يسود الصمت برهة. كلود يتناول هاتفه عن المنضدة جانب السرير ويطفئ المنبه قبل موعد رنينه.

أخيرًا يقول، "إن أدنت أخي المال فسيكون غطاءً جيدًا."

"لكن لا تدنه الكثير. فلن يتسنى لنا استعادته."

يضحكان. من ثم ينهض كلود ويمضي بصفيره نحو الحمام، أمي تضطجع على جانبها وتعاود النوم، أما أنا، متروكًا في هذه الظلمة، أجدني أواجه وحيدًا الحقيقة الشائنة التي عرفتها التو، أتفكر مليًّا ومليًّا في غبائي.

الفصل الرابع

حين آنسُ بسماع أزيز السيارات المارّة فيما النسيم العليل يهز ما أظنها أوراق شجرة كستناء الحصان، حين أسمع صريفًا قصديريًّا ينبعث من المذياع المحمول أسفلي فيما الظلّ الظليل المرجاني يتوهج في غسق استوائي متأن، يضيء بنوره الباهت بحري الداخلي وملايين ملايين الشذرات العائمة فيه، أدرك أن أمي تأخذ حمامًا شمسيًّا على الشرفة خارج مكتبة أبي. كما أني مدرك أن الدرابزون من الحديد المطاوع المزخرف بنقوش ورقة البلوط والجوزة إنما متماسك بعضه ببعض بفضل الطبقات العتيقة من الدهان الأسود، لهذا بات من الخطر الاتكاء عليه. أن الرافدة الصخرية الناتئة من فتات الخرسانة حيث تجلس أمي قد أعلنت عن اهترائها، حتى مِن قِبل المقاولين مَن لا رغبة لديهم في الترميم. سعة الشرفة الضيقة تتيح المجال لوضع كرسي قابل للطي على نحو مائل، على خط مواز تقريبًا للبيت. ترودي حافية القدمين، ترتدي صدرية بكيني، وشورت قصير من الجينز بالكاد يترك متسعًا لي. نظارة شمسية زهرية الإطار عدستاها على صورة قلب الحب مع قبعة من قش تعلو هذا الزي. وأعرف ذلك لأن عمي - عمي!- قد سألها على الهاتف عما ترتديه. وبكل غنج، استجابت لطلبه.

قبل دقائق معدودة أنبأنا المذياع أن الساعة قد دقت الرابعة. أنا وإياها نتشارك كأسًا، لربما قنينة، من مارلبورو سوفينيون بلان. ما كان ليكون اختياري الأول، لأجل ذات نوعية العنب مع طعم حشيشيّ أقل، لفضلت احتساء نبيذ سونسير، ويفضل من شافينول. رشفة من تركيبة مياه معدنية صلدة لكانت خففت من أثر ضربة الشمس المباشرة وحرارة الفرن المنعكسة عن الواجهة المتشققة لبيتنا.

لكنّنا في نيوزيلاندا، ونيوزيلاندا فينا، وأنا أسعد حالًا مما كنت عليه اليومين الماضيين. ترودي تبرد نبيذنا بمكعبات ثلجية من الإيثانول. لا اعتراض لدي. أعيش الآن خبرتي الحميمية الأولى مع اللون والشكل، فالجزء الأوسط من جذع أمي موجّه نحو الشمس، وبذا بات بإمكاني، في سديم أحمر كما الحال في غرفة تحميض الصور، أن أتبين يديّ قبالة وجهي والحبل السري متشابك حول بطني وركبتيّ. أرى أن أظافري بحاجة إلى تقليم، مع أني ما زلت على بعد أسبوعين من موعد ولادتي. يحلو لي أن أفكر أن الغاية من وجودها هنا هو اكتساب فيتامين د لأجل نمو عظامي، أنها قد خفضت صوت المذياع كي تتأمل فكرة وجودي في ذهن صاف، أن راحة يدها التي تمسّد المكان حيث تظن رأسي موجودًا هو دلالة حنانها وعطفها. لكن لربما هي هنا كي تسمر بشرتها وخفضت صوت المذياع لأن الحر قائظ ولا يطاق فيه الاستماع إلى دراما إذاعية عن الإمبراطور المغولي أورنجزيب، أنها ببساطة تمسد بطنها بأناملها كي تلطف من الانتفاخات المزعجة الملازمة للفصل الأخير من حملها. باختصار، أنا لست واثقًا من حبها.

النبيذ بعد احتساء الكأس الثالثة لا يحل شيئًا، وألم اكتشافي الأخير ما زال يوجعني. ومع ذلك، يخامرني شعور مريح من الانفصال

عن الواقع: فأنا الآن أطوف خارج جسدي ولي أن أرى نفسي هاويًا على عمق خمسة عشر قدمًا أسفل مني، مثلي مثل متسلق جبال منبطح على صخرة باسط الذراعين والقدمين. بدأت أعي حقيقة وضعي، وبت قادرًا على التفكير والشعور في الوقت ذاته. هذا أقصى ما يصل إليه تأثير النبيذ الأبيض النيوزلندي الرخيص. إذن، أمي قد فضلت أخا أبي، خانت زوجها، ودمرت ابنها. عمي سرق زوجة أخيه، خدع أب ابن أخيه، وأهان ابن زوجة أخيه إهانة عظيمة. أبي بطبيعته لا حول له ولا قوة، ومثله أنا بحكم ظروفي الحالية. عمي – رُبع خريطتي الجينية، نصف أبي، وإن لم يشبه أبي إلا بقدر ما أشبه أنا فيرجيل أو مونتاين[16]. ويا ترى أي بضعة خسيسة مني هي كلود وكيف لي أن أعرف؟ قد أغدو شقيق نفسي وأغدر بي كما غدر هو بأخيه. متى ما ولدت وتسنى لي أخيرًا البقاء وحدي، هناك رُبعٌ مني سأود حمل سكين مطبخ في يدي والاستفراد به. لكن اليد التي تحمل السكين ستكون أيضًا يد عمي، المتربص لي في رُبع جينتي. ووقتئذ سنرى كيف ستتجمد السكين عن الحراك. فبصري نوعًا ما هو بصره. وحتى بصيرتي هذه.

علاقتي بترودي لا تسير على ما يرام. ظننت أن حُبّها لي أمر مُسلّم به. لكني استمعت إلى نقاش دائر بين علماء الأحياء ساعة الفجر. فالأم الحبلى عليها أن تصارع المقيم المستأجر في رحمها. الطبيعة، أُمّ في حد ذاتها، قد كرست مبدأ الصراع على الموارد إذ قد يحتاج إليها أشقائي وغرمائي المستقبليين. عافيتي أستمدها من ترودي، لكن عليها أن تحافظ على عافيتها مني. ولم عساها تكترث لمشاعري؟ إن كان في صالحها وصالح نطفة حقيرة لم تخلق بعد أن أولد منقوص التغذية،

(16) إشارة إلى قول هاملت: "تزوجت عمي، أخا أبي: وإن لم يشبه أبي إلا بقدر ما أشبه أنا هرقل." (تعريب جبرا ابراهيم جبرا)

فلم عساها تعكر مزاجها إن كان لقائي المرتقب بعمي يثير قلقي؟ كما أن علماء الأحياء قد أشاروا أيضًا إلى أن من الحكمة بمكان أن يخدع أبي رجلًا آخر إلى تحمل مسؤولية تربية طفله بينما هو - أبي! - ينثر بذور أشباهه في نساء أخريات. منظور قاتم، خاو من الحب. إذن نحن وحدنا، جميعنا، حتى أنا، كل واحد منا، يرتحل على طريق سريع مهجور، نحمل على كتفنا الصرة المعلقة على طرف عصا، حيث نحتفظ بالمخططات، الجداول الإحصائية، في سعينا اللاواعي نحو الحفاظ على الجنس البشري.

أثقل مما أطيق، سوداوي إلى حدّ يستحيل معه أن أصدّق. يا ترى لماذا العالم يصور نفسه في هذا المنظور القاسي؟ وماذا عن حقيقة وجود أناس طيبين كرماء لطيفي المعشر. فالحصاد ليس كل شيء. أمي أكثر من مجرد مؤجر. أبي لا يصبو إلى نثر شذرات كينونته على أوسع مدى، بل يصبو إلى زوجته، وبالتأكيد، إلى ابنه الوحيد. أنا لا أصدق حكماء علوم الحياة. فأبي لا بد يحبني، يريد العودة إلى هنا، وسيعتني بي - إن أتيحت له الفرصة. وأمي لم تحرمني قط من وجبة طعام، وحتى هذه الظهيرة كانت تنكفئ عن الكأس الثالثة كرمى لي. العيب ليس في حبها لي. بل فيّ. امتعاضي منها هو ما يقف حائلًا بينها وبيني. أرفض رفضًا قاطعًا التصريح بكرهي لها. لكن أن تهجر شاعرًا، أي شاعر، لأجل كلود!

الأمر شاق، وما يصيّره شاقًا أكثر هو أن الشاعر جدُّ رقيق. جون كيرنكروس، المطرود من بيت عائلته، الملكية التي ابتاعها جده، وبأي داع؟ بداعي فلسفة "النضوج الشخصي" – متلازمة تحمل في قلبها مفارقة مثلها مثل "القراءة السريعة". أن يفترقا في سبيل أن يجتمعا، أن يدير كلّ ظهره للآخر على أمل العناق، أن يكفا عن الحب في سبيل

الوقوع فيه. وهو صدّق هذا الهراء. يا له من ساذج! وبين ضعفه وخداعها انشق صدع نتن غدا المدخل الذي تسلل منه عمي الصرصور. أما أنا فأجلس مقرفصًا هنا في حياتي الشخصية محكمة الإغلاق، في غسق ومد، غسق متباطئ، أحلم فاقدًا صبري.

ليتني كنت في ريعان عمري. فلنقل بعد ثمانية وعشرين عامًا من الآن. بنطالي الجينز باهت وضيق، جذعي منحوت وعضلاتي مشدودة، رشيق الحركة كما النمر، موهوم بالخلود الأبدي. كنت سأجلب أبي المسن في سيارة أجرة من **شوردیتش** وأدفع به في عقر داره، أصم آذاني عن اعتراضات ترودي الأمومية، وأودعه في مكتبته، في مخدعه الزوجي. وأقبض على عمي الصرصور المسن من عنقه وألقي به خارجًا في بالوعة **هاملتون تيراس** المغمورة بأوراق الشجر المتساقطة. وسأهدئ روع أمي بقبلة لا مبالية على قذالها.

إلا أن هذه هي حقيقة الواقع المحدود - الحياة هي اللحظة التي تعيشها الآن، المكان الذي أنت فيه الآن، هي ليست وقتئذ ولا هناك. وها هي موجة الحر في لندن تقلينا، متكئيْن على هذه الشرفة المتقلقلة. أسمعها تُعيد ملء الكأس، أسمع بربرة مكعبات الثلج، تنهدها الرقيق، تنهيدة قلق لا راحة بال. هذه إذن كأسنا الرابعة. لا بد أنها تظن أني كبير كفاية كي أحتملها. وأنا على حسن ظنها بي. نسكر أنا وإياها لأن عشيقها ما زال حتى الآن يتباحث مع أخيه في مكتبه عديم النوافذ في دار كيرنكروس للنشر.

كي ألهي نفسي أبعث بأفكاري رسولًا في الأثير يتجسس عليهما. تمرين محض في ممارسة الخيال لا أكثر ولا أقل. لا شيء مما سأسرده حقيقي.

القرض الحسن منبسط على طاولة المكتب المزدحمة.

"جون، هي صدقًا تحبك لكنها طلبت مني بصفتي فردًا موثوقًا من العائلة أن أطلب منك البقاء بعيدًا عنها لفترة أطول، بعض الوقت وحسب. فهذا الأمل الوحيد في سبيل إنقاذ زواجكما. إمم. وسترى بنفسك كيف ستنتهي الأمور على خير. كان يجدر بي أن أخمن أن دفعات الإيجار قد تراكمت عليك. لكن. أرجوك، قل نعم واقبل مني المال، ودعها هي تحظى بمساحتها."

المال يغطي طاولة المكتب بينهما، خمسة آلاف جنيه استرليني في أوراق خمسين جنيه قذرة، خمس أكوام نتنة من الصكوك الحمراء. وعلى جانبي المال دواوين الشعر والمسودات في أكوام متقلقلة، أقلام رصاص مبرية، ومنفضتا سجائر زجاجيتان، تطفحان بالرماد، قنينة ويسكي، ومشروب تومينتول خفيف مع جرعة متبقية، قدح كريستالي، وفي القدح ذبابة ميتة على ظهرها، عدة أقراص إسبرين على منديل ورقي. الدلائل القذرة على الكد والعرق لأجل لقمة العيش.

وهنا أرجم بالغيب. أبي لم يفهم قط أخاه الصغير. حتى أنه لا يرى الأمر يستحق شرف المحاولة. وجون يؤثر تفادي المواجهات. عيناه تتحاشيان النظر إلى المال المفرود على طاولة المكتب. وما كان ليخطر إليه أن يفسر لأخيه أن كل ما يبتغيه هو العودة إلى زوجته وطفله.

عوضًا عن ذلك يقول، "قد وصلتني البارحة. أتود الاستماع إلى قصيدة عن بومة؟"

عينة من تصرفات جون النزوية التي مقتها كلود منذ طفولته. يهز رأسه، أرجوك اعفني، لكن فات الأوان.

أبي يحمل بين يديه المتقشرتين ورقة واحدة مطبوعة.

يستهل تلاوة القصيدة، "البومة الحكيمة قارعة ناقوس الموت الوشيك"[17]. كم يعشق أبي الصور المجازية.

"حسن إذن فأنت لا تريد المال،" يقاطعه أخوه مكفهرًا. "سِيّان لدي." وبأصابع المصرفي الدودية يجس الأكوام، يسحبها الواحدة تلو الأخرى بعجالة من فوق المكتب، ومن حيث لا أدري يتناول رباطًا مطّاطيًّا وفي ثانيتين يعيد النقد إلى الجيب الداخلي لسترته المزرَّرة بالفضي، وينهض عن الكرسي، على وجهه أمارات الحرّ والسقم.

أبي، متأنيًّا، يقرأ البيت الثاني. "ننجذب إلى نعيبها القاسي يقرئنا أرهب السلام". يكف عن القراءة وبنبرة فاترة يقول، "هل عليك أن تغادر الآن؟"

ولا محلل سيسعه فك شفرة هذا التبادل الأخوي المختزل، الحزن السرمدي في قلب هذه المحادثة. الظروف، القواعد، النظم، قد كُرّست منذ زمن بعيد ولا سبيل إلى مراجعتها. تفوّق كلود المالي النسبي محتوم عليه الشحوب في ظل أبي. سيبقى دائمًا الأخ الأصغر، مخيب الآمال، المكبوت، الغاضب. أبي يرى في أخيه، أقرب القربى إليه، لغزًا مُحيّرًا، لُغزًا بالكاد يثير اهتمامه. أبي لا يبدي ردة فعل على الإطلاق وتصرفه هذا يبدو استهزاء. بيد أنه ليس باستهزاء، بل أسوأ: هو عدم اكتراث، حتى أنه لا يعي حقيقة أنه لا يكترث. لا بشأن الإيجار، ولا المال ولا عرض كلود. لكن لأنه رجل مهذب سينهض عن كرسيه كي يصطحب ضيفه إلى الباب، ومتى ما أنجز هذه المهمة يعود فيجلس إلى مكتبه من جديد، المال الذي كان قبل دقائق ممدودًا على طاولة مكتبه بات

(17) البيت - والبيت الذي يليه - يحملان إشارة إلى نص لبدي مكبث في مسرحية مكبث لشكسبير (الفصل الثاني - المشهد الثاني): "البومة هي التي نعبت، قارعة الناقوس للمحكومين بالموت، قارئة أرهب السلام." وتفسير هذا النص أن في الليلة السابقة لتنفيذ الإعدام، كان يرسل إلى المحكوم قارع ناقوس "يقرئه السلام" – أرهب سلام يسمعه إنسان. (التعريب والتفسير مصدرهما جبرا ابراهيم جبرا)

في عالم النسيان، وكذلك كلود. قلم الرصاص يعاود محله في يد أبي، وفي يده الأخرى يحمل سيجارة. وسيواصل العمل على الشيء الوحيد الذي يهمه، تنقيح القصائد قبل إرسالها للمطبعة، ولن يرفع رأسه حتى الساعة السادسة، ساعة احتساء الويسكي والماء. لكن أولًا سينقف الذبابة خارج القدح.

وكما العائد من سفر طويل، أعود إلى الرحم. لا شيء قد تغير على الشرفة، عدا أني وجدتني صبيًا سكران. وكأنّي بها ترحب بعودتي من جديد، تفرغ ترودي القنينة في كأسها. مكعبات الثلج قد فترت، والنبيذ شبه دافئ، لكنها محقة، فلنتجرع حتى آخر قطرة، فقد سبق السيف العذل. ما زال النسيم يثير أوراق أشجار البلوط، وحركة السير أخذت تتصاعد. ومع أفول الشمس، الحر يشتد، لكني لا أمانع الحر القائظ. مع احتسائي الجرعة الأخيرة من السوفينيون بلان أهيئ نفسي للتفكر. فها أنا قد رحلت بعيدًا، فررت عبر الأثير دون سلم ولا حبل، حرًا طليقًا كما الطير، تاركًا ورائي الآن وهنا. حقيقة الواقع المحدود ما كانت حقيقة: لي أن أرحل متى شئت، ألقي بكلود خارج البيت، أزور أبي في مكتبه، وأستطلع أخباره، مثل هدهد لطيف خفي. هل الأفلام بهذه الروعة؟ سأكتشف قريبًا. فالمرء قد يسترزق من حبك مغامرات كهذه. لكن الواقع، الحقيقة المقيدة، قد بدأ عقلي يستوعبها الآن، وها أنا أنتظر على أحر من الجمر عودة كلود وسرده علينا ما حصل بالفعل. فأنا على يقين أن منظوري السردي يجانب الحقيقة.

أمي هي الأخرى تتحرق شوقًا لمعرفة ما جرى. لو لم تكن تشرب عن اثنين، لو لم أكن هنا لأشاركها الحِمل، لغابت عن الوعي ووقعت أرضًا. بعد عشرين دقيقة ندلف داخلًا ونشق طريقنا عبر المكتبة، من ثم

على درجات السلم نحو حجرة النوم في الأعلى. على المرء أن يلزم حذره متى ما سار حافي القدمين في هذا البيت. أسمع أمي تعوي إثر صوت سحق تحت قدمها، نترنح أنا وإياها وتتكئ بقوة على الدرابزين. والآن نقف ثابتين بينما تتريث وتتفحص كعب قدمها. تتمتم لاعنة في هدوء، ما يعني وجود نزيف، لكن ليس بالجرح العميق. تقطع حجرة النوم عرجاء، مخلفةً وراءها على ما أتخيل أثرًا من الدماء على سجادة أعرف أنها عاجية قذرة منثورة بالملابس المرمية والأحذية وحقائب السفر التي لم تفرغ بعد من رحلات تسبق وجودي.

نصل الحمام ذا الصدى، ومما سمعت، فالحمام زريبة كبيرة قذرة. تفتح دُرجًا، تعيث فيه فاقدة الصبر، تبعثر محتوياته، تفتح دُرجًا آخر، وفي الثالث أخيرًا تجد لاصق الجروح. تجلس على حافة الحوض وترفع قدمها المصابة على ركبتها. نخيرها الخافت ولهاثها الساخط يوحي إليّ أن الجرح في مكان يصعب عليها الوصول إليه. ليت بيدي الركوع أمامها ومساعدتها. إذ وإن تكن شابة ورشيقة، فليس من السهل عليها الميل للأمام مع وجودي الضخم يعترض طريقها. لذا تقرر أنّه من الأفضل لها، وأكثر أمانًا، أن تزيح الأشياء من حولها وتجلس على البلاط البارد الصلب. لكن حتى هذه الخطة يصعب عليها تنفيذها. الذنب كله ذنبي.

نحن هنا وهذا ما نفعل لدى سماعنا صوت كلود، يصرخ من أسفل السلالم.

"ترودي! يا إلهي. ترودي!"

خبط خطوات متسارعة، يعاود الصياح باسمها، من ثم أنفاسه الثقيلة في الحمام.

"جرحت قدمي على كسرة زجاج لعينة."

"هناك دم على سائر حجرة النوم. ظننت ..." لا يعلمنا بالأمل الذي راوده باحتمالية فنائي. عوضًا عن ذلك يقول، "هاتها، أنا سألصقها. ألا يجب علينا تنظيف الجرح أولًا؟"

" اللعنة! ألصقها وحسب."

"حسن. اثبتي." والآن دوره في اللهاث والنخير. من ثم، "هل كنت تشربين؟"

" دعني وشأني. ألصقها."

وأخيرًا أنجز المهمة ويساعدها على النهوض. أنا وهي نتمايل معًا.

"إلهي! كم كأسًا شربت؟"

"كأسًا واحدة لا غير."

وتتكئ مرة أخرى على حافة الحوض.

يمضي مبتعدًا، اتجاه حجرة النوم، من ثم يعود بعد دقيقة. "سيستحيل علينا تنظيف السجاد من الدم."

"جرب فركها بأي شيء."

"صدقيني، لا فائدة. ها بقعة هناك. هاك. جربي بنفسك."

نادرًا ما سمعت كلود يتحدث بتلك النبرة الحازمة. ليس منذ "بوسعنا."

أمي أيضًا تلتقط الاختلاف في النبرة وتسأله. "ما جرى؟"

والآن نسمع نبرة تذمر ناحِب في صوته.

"قد أخذ المال، ولم يكلف نفسه حتى عناء شكري. واسمعي هذا. قد قدم إعلانًا بالإخلاء إلى المالك في **شورديتش**. وسينتقل إلى هنا. أخبرني أنك في حاجة ماسة إليه، مهما عاندت وأصررت على قول العكس."

أثير الصدى في الحمام يتلاشى. لا صوت سوى أنفاسهما، سكوت

عميق يَرِيْنُ عليهما بينما يتفكران في الأمر معًا. حدسي ينبئني أنهما يتبادلان النّظر كُلّ إلى عينَي الآخر، نظرةً عميقة معبرة.

"ها قد عرفتِ." يقول لها أخيرًا، في أسلوبه الفارغ المعهود. يتريث، من ثم يقول، "فما العمل؟"

على وقع السؤال يتصاعد خفقان قلب أمي. لا يتسارع وحسب، بل يعلو، كما صوت الطرق المكتوم في المواسير المعيبة. خطب آخر يلم بأحشائها. أمعاؤها ترتخي، صرير ينبعث عن تمددها، وفي الأعلى، في مكان ما فوق قدميّ، عصارات تتسارع أسفلًا في أنابيب متمعجة نحو وجهة غير معلومة. حجابها الحاجز يرتفع. ألصق أذني بالجدار، بشدة، إذ في خضم تلك الأصوات المتصاعدة من حولي سيسهل على حقيقة محورية أن تفلت من سمعي.

الجسد يستحيل عليه الكذب، لكن العقل ملكوت آخر، إذ حين تستهل أمي الكلام أخيرًا، نبرة صوتها ناعمة، سلسة، كليًا تحت السيطرة. "أنا معك."

كلود يدنو، يتحدث برقة، في نبرة أقرب إلى الهمس. "لكن كيف ترين الأمر؟"

يتبادلان القبل ويرتعش جسدها. أشعر بذراعيه تطوقان خصرها. يتبادلان القبل كرة أخرى بلسانين صامتين.

تقول له، "مذعورة."

فيجيبها وكأنما يشير إلى مزحة تخصهما، "غندورة."

لكن لا يقوى أحدهما على الضحك. أشعر بكلود يدفع بإربيّته بين فخذيها. أن يهتاجا في ساعة كهذه. عجبي! ما أقل ما أعرفه. تجد سحاب بنطاله، تدس يدها، وتمسده، بينما يعقف هو سبابته أسفل

شورتها. أشعر بضغط عقفه المتواتر على جبهتي. هل سيصعد إلى الطابق العلوي؟ لكن لا، حمدًا للرب، يعود إلى سؤاله.

"قرري."

"الأمر مخيف."

"أجل، لكن تذكري. ستة أشهر من الآن. في بيتي، مع سبعة ملايين في البنك. والطفل قد أودعناه في مكان ما. لكن. امم. الخيار. سيكون؟"

سؤاله العملي يهدئ أعصابه، يتيح له المجال لسحب إصبعه. لكن نبضها، الذي أخذ التو يستقر، يثب كرة أخرى على وقع سؤاله. لا على وقع إثارة الجنس بل الخطر. دمها يخفق في عروقي مدويًّا، كما الدويّ المكتوم لقذائف المدافع، وأشعر بها تتصارع مع نفسها حول الخيار. أنا عضو في جسدها، بضعة منها، أفكاري لا تنفصل عن أفكارها. أنا شريك فيما تنوي فعله. ومتى تحين اللحظة، لحظة إعلانها القرار، إصدار أمرها الملكي في نبرة هامسة، الكلمة التي تختزل في حرفيها جريمة خيانتها العظمى، سيبدو وكأن فمي غير المجرَّب تفوه بها. وما إن يعاودا تبادل القبل تهمس في فم عشيقها. كلمة طفلها الأولى.

"سُمّ."

الفصل الخامس

وهكذا نعتنق "الأنا"[18] حتى قبل أن نولد. ترودي نائمة حافية القدمين على الأريكة في حجرة الجلوس تطهر جسدها من الكؤوس الخمس التي احتسيناها، بيتنا القذر يتدحرج شرقًا نحو الظلمة الدامسة، وأنا أتفكر مليًا في كلمة عمي أودعناه مثلما أتفكر في كلمة أمي سُمّ. مثلي مثل دي جي محدودب الظهر على مشغل الاسطوانات، ما أنفكّ أحك الاسطوانة وأختبر سماع العبارة في عدة تنويعات. والطفل قد أودعناه في مكان ما. ومع التكرار تنصقل الكلمات، وحقيقة المستقبل الذي ينتظرني تنجلي أمام عينيّ. نودعه ما هي إلا قرين نرميه. مثلما الطفل هو قريني أنا. في مكان ما كذبة هي الأخرى. أيا أُمًا مُتحجّرة الفؤاد! واهولَها من عبارة! نذير خرابي، سقوطي في الهاوية، إذ في حكايات الأطفال الخيالية وحسب يرتقي الأيتام غير المرغوب فيهم على سلم التبني. فيقينًا دوقة كامبريدج لن تتبناني. طيراني المنفرد في رحلة شفقتي على الذات تحط بي في مكان ما على الطابق الثالث عشر من البرج السكني الوحشي الذي سمعت أمي تقول كم أنها أحيانًا تتأمله حزينة مشفقة. تتأمله من نافذة حجرة النوم العلوية وتتفكر، قريب

(18) Solipsism: تعني "الأنانة" وهي نظرية فلسفية تقول بأن لا وجود لشيء غير "الأنا".

تبصره العين، بعيد ناء بعد وادي سوات[19]. تصوَّر العيش هناك.

سأتصور. سأقضي طفولتي دون كتب منكبًا على ألعاب الكمبيوتر، أقتات السكريات والدهون، وأتلقى الصفعات على الرأس. هو وادي سوات ولا ريب. تجسيد البيئة الريفية الخاوية من الفضول العقلي لانجلترا العصر الحديث. لا قصص ما قبل النوم تغذي عقلي الرضيع اللدنيّ. وماذا عن زراعة اليرقات في يوتاه؟ مسكين أنا، مسكين ذاك الطفل كث الشعر السمين ذو الثلاثة أعوام في بنطاله الكاموفلاج، منسيّ مهمل في سديم من دخان السجائر وضجيج التلفاز. كاحلا أمه بالتبني الموشومتان المنتفختان تترنحان أمامه متجاهلةً وجوده، يلحقها كلب صديقها العنيف متقلب المزاج. أبي، أبي الحبيب، أنقذني من هوّة الوادي الكئيب. خذني معك. دعني أمت مسمومًا إلى جانبك على أن أودع في مكان ما.

إرهاصات فصل الحمل الأخير من الاستغراق في الذات. فكل ما أملك من معلومات عن حياة الفقراء في انجلترا اكتسبتها عن طريق التلفاز والمراجعات النقدية للعالم الزائف في الروايات. أنا لا أعرف شيئًا. لكن شكّي المنطقي ينبئني أن الفقر هو الحرمان على كل الأصعدة. لا دروس لتعلم البيانو القيثاري في الطابق الثالث عشر. وإن كان التملق والنفاق هو الثمن الوحيد، سأبتاع لنفسي الحياة البرجوازية وأعتبر كرامتي ثمنًا زهيد. لا هذا وحسب، بل سأكتنز القمح، سأغدو فاحش الثراء، وسأشتري لنفسي شعار النبالة. "Non Sanz Droict"[20]،

(19) وادي سوات: تقع شمال غرب باكستان وهي مسقط رأس ملالا يوسفزاي الحائزة على جائزة نوبل للسلام حيث أصيبت بالرصاص في رأسها بعد إطلاق عناصر من طالبان النار عليها.

(20) في إشارة إلى شعار نبالة عائلة شكسبير والذي يحمل الوسم (ليس دون حق – Not without right) باللاتينية مع رسمة للقلم وريشته بحيث يبدو القلم كما الرمح في إشارة مزدوجة إلى كون شكسبير كاتبًا مسرحيًا وكذلك جزئية (spear) من اسم العائلة والتي تعني الرمح. ويقال إن جون شكسبير والد ويليام شكسبير حاول مرات عدة نيل

وشعاري سيجسد حب الأم المطلق الذي لا تشوبه شائبة. لا لن أسلم نفسي إلى مكائدها في التخلي عني. لن أقبل بأن ترمي بي في المنفى، أنا من سينفيها. سأشد الوثاق عليها بهذا الحبل اللزج، سأكرهها على خدمتي، سأحدجها بعينيّ المولود الجديد، نظرة واحدة ثملة، يوم مولدي، وأخترق قلبها بحُزْبون نحيبي الأول. من ثم، مصفدة بأغلال الحب المنيع ستغدو مربيتي مدى العمر، حريتها موج متقهقر عن شاطئها، ملك يميني أنا لا ملك كلود، وسيهون عليها انتزاع نهديها من بين أضلعها وقذفهما خارجًا على أن يهون عليها التخلص مني. أرأيتِ أماه؟ حتى أنا لي أن أكون متحجر الفؤاد.

***

وهكذا أضعت الوقت، ثملًا على ما أفترض، مستغرقًا في أوهام العظمة، منفصلًا عن الواقع، إلى أن استيقظت هي، تئن وتتأوه، تتلمس الأرض بقدميها أسفل الأريكة بحثًا عن فردتيْ صندلها. نهبط معًا، نعرج باتجاه المطبخ حيث الرطوبة خانقة، في عتمة تكاد تستر في ظلالها القذارة، تميل برأسها أسفل صنبور الماء البارد وتجرع الماء. ما تزال في لباسها الشاطئي. تشعل الإنارة. لا أثر لوجود كلود، ولا رسالة. نتجه صوب الثلاجة وتطل فيها متأملة. أرى – أتصور أني أرى بقرنيتي التي لم أختبرها بعد – ذراعها الشاحبة المترددة تحوم في الضياء البارد. كم أعشق ذراعها الفاتنة. على رفٍّ سفلي شيء ما كان حيًا فيما مضى، والآن بات كائنًا متقيّحًا، يبدو وكأنما يتحرك في كيسه الورقي، تطلق على إثر سماع خشخشته لهاثًا تبجيليًّا، ويجبرها على صفق الباب. لذا نقطع

الموافقة على منح عائلته شعار النبالة لما ستضفيه على العائلة من مرتبة اجتماعية مرموقة، لكن لم ينلها إلا بعد شهرة ابنه وتوسطه له ودفع مبلغ كبير مقابلها.

المطبخ صوب خزانة الأطعمة الجافة وهناك تجد كيسًا من الجوز المملح. بعد هنيهة، أسمعها تتصل بعشيقها.

"أما زلت في البيت؟"

يعصى عليّ سماعه في ضجيج مضغها الطاحن.

"حسن،" تقول له، بعد أن سمعت ما لديه. "اجلبه معك. علينا أن نتكلم."

من النحو الرقيق الذي تضع عليه الهاتف جانبًا أستنبط أنه في طريقه إلى هنا. يا لسوء حظي. لكني أعاني الآن من صداعي الأول، ألم يطوّق جبهتي، مثل عصبة مبهرجة، ألم يرقص خالي الهم على وقع نبضها. إن كانت تشاركني ألمي، فلعلّها ستتناول مُسكّنًا. فالحق يقال، الألم ألمها. لكنها تستجمع شجاعتها وتفتح الثلاجة مرة أخرى وتجد على الرف البلاستيكي العلوي للباب وتدًا عتيقًا من جُبنة البارميزان عمره من عمر إبليس، وأصلب من حجر الأدمنت. إن تمكنت من حتّ فتات منه بأسنانها فأنا وإياها سنعاني معًا، بعد تناولنا الجوز، من موجة عارمة أخرى من الملح تكتسح الخور وجداوله العذبة، تثخن الدم في عروقنا وتصيرها مستنقعًا سبخًا. الماء. يجدر بها شرب المزيد من الماء. يداي تطفوان للأعلى بحثًا عن صدغيّ. يا له من ظلم وحشيّ، أن أعاني من ألم مبرح كهذا ولم أولد بعد.

كنت قد استمعت إلى نقاش دائر حول الألم وكيف أنه منذ أمد بعيد قد استبق وجود الوعي. إذ كي يتفادى مخلوق بسيط التعرض إلى ضرر خطير فقد حثته الطبيعة على أن يطور سوطًا ذاتيًا يلسع وينخس، سوطًا يستنبطه من التجربة المحسوسة. فلافتة حمراء من النيون تشع في رأسه لن تجديه نفعًا - فمن هناك كي يراها؟ - ما

سيجديه لدغة، قرصة، نبضة من وجع. الابتلاء قد حشر الإدراك فينا حشرًا، وأثبتت الوسيلة أنها ناجعة، فالإدراك يلسعنا متى ما دنونا قريبًا من النار، متى ما هَوَينا في غياهب الحب. تلك المشاعر المحسوسة هي مقدمة ابتداع النفس. وبما أن الوسيلة نجحت مع الحفاظ على الذات، لم لا نتوسّع فيها؟ فلنقرف من الخراء، نخشى الوقوف على حافة جرف ونخشى الغرباء، نتذكر الإهانة والمعروف، نقرن الجنس بالطعام. قال الرب، ليكن ألم. وكان الشِّعر، وإن بعد أمد[21].

إذن ما الغاية من الصداع، من وجع القلب؟ ما الخطر الذي تحذرني منه الطبيعة، أو ما الصنيع الذي تحثني على فعله؟ لا تدع عمك وأمك زانيا القربى يسمّمان أبيك. لا تنفق أيامك الثمينة متبطلًا مقلوبًا رأسًا على عقب. تدبر ولادتك الآن وانتفض![22]

تجلس على كرسي المطبخ متأوهة، رنة الأنين الملازمة لعلة الثمالة. لا يجد المرء خيارات عدّة يقضي فيها المساء بعد قضاء الظهيرة في شرب الخمر. بالأحرى هناك خياران لا ثالث لهما: الندامة، أو احتساء المزيد من الخمر من ثم الندامة. وقد اختارت الأول، لكن من المبكر التيقن من خيارها. ما زال البارمزان على الطاولة، وقد نسيت أمره. كلود عائد من البيت المستقبلي حيث ستعيش أمي، على بعد ملايين الجنيهات مني. سيقطع شوارع لندن في سيارة أجرة لأنه لم يتعلم قط القيادة.

أحاول رؤيتها على ما تبدو عليه، ما ينبغي أن تبدو عليه، الحبلى الناضج ثمرها ذات الثمانية والعشرين عامًا، متهدلة على الطاولة كما غصن البان (أصر على استخدام التشبيه)، شقراء،

(21) إشارة إلى الآية الثالثة في سفر التكوين: وقال الله "ليكن نور". فكان نور.

(22) إشارة إلى نص الحوار بين هاملت وطيف أبيه إذ يقول الطيف لهاملت بعد إعلامه بجريمة قتله على يد أخيه: "إن كانت الطبيعة سوبةً فيك، انتفض ولا تدع سرير ملك الدنمرك يتحول إلى فراش للفجور والزنى اللعين بذوي القربى." (تعريب جبرا ابراهيم جبرا)

شعرها مجدول في ضفائر محاربة فايكنغ، فاتنة تعجز الواقعية عن وصفها، رشيقة لولا وجودي، شبه عارية، زنداها متوردان تورد وهج الشمس، تتلمس مساحة كافية على طاولة المطبخ تسند عليها مرفقيها بين الأطباق اللامعة بصفار المح من شهر مضى، فتات الخبز المحمص والسكر التي يتقيأ عليها يوميًا الذباب المنزلي، الكراتين نتنة الرائحة والملاعق المغلفة بطبقة من القذارة، السوائل التي استحالت قشرًا جافًا على مظاريف البريد التافه. أحاول رؤيتها وأسعى إلى حبها كما يفترض بي، لكن سرعان ما يخطر لي ما تحمل في جعبتها: الشرير الذي اتخذته عشيقًا، القديس الذي هجرته، الفعل الشائن الذي تنويه، الطفل العزيز الذي ستلقي به إلى الغرباء. ألا أزال أحبها؟ إن كففت عن حبها فهذا يعني أني لم أحبها قط. بيد أني أحببتها، أحببتها. أحبها.

تتذكر وتد الجبن وتتناول أقرب أداة وتطعنه بكل قوتها. كسرة تتقصم وتضعها في فمها، صخرة جافة تمصها بينما تتفكر مليًا في وضعها. دقائق معدودة تمر. أقول في نفسي، لا خير في وضعها، وعلى كُلٍّ فدماؤنا لن تثخن، لأن الملح الذي تتناوله ستحتاج إليه عيناها، وجنتاها. كم يحز في قلب الطفل سماع أمه تبكي. تواجه حقيقة العالم الشائن الذي حبكته بيديها، الأفعال التي وافقت عليها، واجباتها الجديدة، والتي أجدني في حاجة إلى تعدادها كرة أخرى – اقتلي الشّاعر جون كيرنكروس، بيعي إرثه العائلي، شاركي الغنيمة أخاه، ارمي بالطفل. أنا من يتوجب عليه النحيب. بيد أنّ الجنين رواقيّ جامد الوجه، بوذا مغمور في الماء، خال من التعبير. فنحن نقبل، على خلاف أقربائنا الأبعد من الرضع المنتحبين، حقيقة أن الدموع هي من طبيعة الأشياء.

"Sunt lacrimae rerum"[23]. الرضيع بنحيبه يفوته المغزى. الانتظار هو الفعل الصحيح. وكذلك التفكير!

تكف عن البكاء لدى سماعنا عشيقها في الردهة، يلعن مع كل خطوة يتعثر فيها بالنفاية المنتشرة، مرتديًا حذاء البروغ الأكبر من مقاسه إرضاءً لها. (هو يملك نسخة من المفتاح. أي من يتوجب عليه رن الجرس.) ينزل كلود إلى المطبخ في السرداب. صوت الحفيف يدل على كيس بلاستيكي يحتوي إما بقالة أو معدات الموت أو الاثنين.

لحظة دخوله يلاحظ حالتها المتبدلة ويقول، "كنت تبكين."

لا يقولها من باب الجزع ، بل من باب ذكر واقعة أمامه، في نبرة آمرة. تهز كتفيها باستخفاف وتشيح بنظرها عنه. يتناول من داخل كيسه قنينة، يضعها على الطاولة في تؤدة حيث يتسنى لها رؤية الرقعة.

" كوفيه لو شارنيه مينيتو سالون جان ماكس روجير 2010. أتذكرين؟ أبوه قُتل في حادث سقوط طائرة."

يتحدّث عن موت الآباء.

"طالما بارد وأبيض سيعجبني."

قد نسيَت. المطعم حيث تباطأ النادل في إضاءة الشموع. كانت قد أحبت النبيذ وقتئذ، وأنا أحببته أكثر. وها هي، فرقعة سدادة القنينة، رنين الكأسين – أرجو أن تكونا نظيفتين – وصبٌ كلود الخمر. ليس بيدي أن أرد الدعوة.

"في صحتك!" سرعان ما ترق نبرتها.

يصب مرة أخرى، من ثم يقول، "أخبريني، علام كنت تبكين؟"

---

(23) اقتباس لاتيني للشاعر فيرجيل من كتابه الإنيادة (الكتاب الأول – السطر 462) بما معناه: هناك دموع في قلب الأشياء، ترثي مأساة الإنسان. ولأن العبارة تحتمل أكثر من معنىً، اختلف المترجمون على ترجمتها، وهذه الترجمة تأتي بناءً على السياق، وبناءً على تعريفها في قاموس مريام ويبستر.

ما إن تستهل الكلام تنقبض حنجرتها. "كنت أفكر في هِرّنا. كنت في الخامسة عشرة من عمري، اسمه هكتور، لطيفًا كان ومحبوب العائلة، وأكبر مني بعامين، أسود، مُسنًّا، أبيض القوائم والذّقن. عدت يومًا من المدرسة عكرة المزاج. وكان هو على طاولة المطبخ حيث لا يفترض به أن يكون. كان يبحث عن طعام. لذا سددت له ضربة عنيفة أسقطته أرضًا. سمعت صوت انسحاق عظامه المسنة. من بعدها اختفى لأيام. علقنا ملصقات على أعمدة الإنارة والأشجار. من ثم وجده أحدهم مستلق عند حائط على ركام من الأوراق المتساقطة إلى حيث زحف بعيدًا ومات. هكتور، مسكيني هكتور، متيبس كما العظمة. لم أفصح أبدًا عما جرى، لم أجرؤ، لكني أدرك الآن أن الذنب كله كان ذنبي، أنا من قتله."

إذن بكاؤها لم يكن بداع مشروعها الشرير الذي تدبره، ولا البراءة المفقودة، ولا الطفل الذي ستتخلى عنه بسهولة. تعاود البكاء كرة أخرى، مع نحيب أعلى.

"كان مسنًا يشارف على الموت،" يقول لها كلود. "ليس بيدك الجزم بذنبك في موته."

تجيبه الآن باكية في صوت متهدج، "بل ذنبي، ذنبي أنا، أنا من قتله! وا رباه!"

أدري، أدري. أين سمعتها؟ - يقتل أمه لكن ما كان ليرتدي بنطالًا رماديًّا [24]. لكن فلنكن عادلين. امرأة يافعة، بطنها ونهداها منتفخان حدَّ التشقق، يلوح أمام ناظريها الألم المنزل من الرب، وكل الحليب والخراء الذي سيعقبه والليالي الساهرة التي ستقضيها تشق طريقها

(24) اقتباس من رواية عوليس تبين التناقض بين قرار ستيفن عدم الركوع جانب أمه على فراش موتها والصلاة لأجل روحها رغم توسلاتها له، ورفضه بعد وفاتها ارتداء بنطال رمادي والالتزام بالأسود حدادًا عليها.

الوعرة في رحلة طويلة عبر أرض جديدة من الواجبات المنفرة، حيث الحب الوحشي سيخطفها من حياتها – وطيف هِرٍّ عجوز يلاحقها برفق على قوائمه البيضاء، يطالب بالثأر لحياته التي سلبتها.

رغم ذلك. فإنّ المرأة التي تخطط بدم بارد ... تذرف الدموع منتحبة على ... فلأمسك لساني عن القول.

"أحيانًا القطط اللعينة تغدو مزعجة،" يقول لها كلود في نبرة مؤازرة. "تشحذ مخالبها على الأثاث. لكن."

لا حُجّة مضادة في جعبته. فننتظر حتى تفرغ من البكاء. دموعها جفت، وحان الوقت لصب كأس أخرى. ولم لا؟ يصب جرعتين، سكون عميق يرنو عليهما، من ثم يخشخش في الكيس مرة أخرى، ويتناول منها قنينة عتيقة أخرى، لكن مختلفة. أسمع صوتًا أرق بينما يضعها بتؤدة على الطاولة. القنينة من البلاستيك.

هذه المرة ترودي تقرأ الرقعة لكن ليس بصوت مسموع. "في الصيف؟"

"مقاوم التجمد يحتوي على مادة غليكول الإيثيلين، مادة ناجعة. فقد سبق وجربتها مع كلب جاري، كلب ضخم من الفصيلة الألزاسية، دفع بي إلى الجنون بنباحه المتواصل ليل نهار. على أي حال. لا لون له ولا رائحة، طعمه سائغ، بل حتى حلو، مناسب لعصائر السموذي. إمم. يدمر الكليتين، ألم فظيع لا يحتمل. كِسَرٌ كريستالية دقيقة تمزق الخلايا إربًا. سيترنح ويجمجم كما السكير، لكن دون رائحة كحول. غثيان، تقيؤ، فرط تنفس، نوبات تشنج، أزمة قلبية، فشل كلوي. يسدل الستار. يأخذ وقتًا، طالما لا تتلخبط الأمور بتلقي العلاج."

"وهل يترك أثرًا؟"

"لا شيء يختفي دون أثر. لكن عليك أن تأخذي المزايا بعين الاعتبار. من السهل الحصول عليه، حتى في الصيف. منظف السجاد يؤدي الغرض لكن طعمه مر. من الممتع تدبر جرعاته. حلو المذاق. علينا وحسب أن نفصلك عن الحدث لحظة وقوعه."

"أنا؟ وماذا عنك؟"

"لا تقلقي. سأكون منفصلًا."

لم يكن هذا قصد أمي من سؤالها، لكنها تختار التغاضي عن الأمر.

الفصل السادس

ترودي وأنا نعود نثمل من جديد ويتحسن مزاجنا، بينما كلود، من بدأ متأخرًا عنا ويتمتع بكثافة جسدية أكبر، فما زال الطريق أمامه طويلًا. هي وأنا نتشارك احتساء كأسين من السونسير، ويشرب هو الباقي، من ثم يعود إلى كيسه البلاستيكي ويتناول البورغندي. القارورة البلاستيكية الرمادية من غليكول الإيثيلين تقف كتفًا إلى كتف القنّينة الفارغة، خفيرةً على عربدتنا. أو لعلها **تذكرة الموت**[25]. من بعد الأبيض اللاذع، أشعر برشفة البينونوار عليّ وكأنها لمسة أمٍّ حنون. آه، أن تكون حيًّا في زمن زاخر بهذا العنب! زهرة متفتحة، باقة من السلام والمنطق. على ما يبدو فلا أحد يود قراءة المكتوب على الرقعة عاليًا لذا أنا مجبر على الرجم بالغيب، وأجازف بقولي إنها قنينة إيشيزو غراند كرو. سدد قضيب كلود على رأسي، أو الخيار الأرحم، فوهة مسدس كي أخمن الإقليم، وسأتفوه عاليًا لا روماني كونتي، حسبي في خياري مذاق العنب الأسود المتبل والكرز الأسود. أثر من البنفسج والعفصين يوحي بالصيف الكسل المعتدل عام 2005، صيف لم تفسده موجات الحر القائظ، مع أن نفحة من شذى الموكا، مع مذاق موزة مقشرة سوداء من

(25) عن اللاتينية "memento mori" وتعني (تذكّر أنك فان) وتشير إلى إحدى ممارسات المسيحية اللاتينية في القرون الوسطى بوضع غرض يتأمله صاحبه ويتفكر في الدنيا على أنها ملهاة وعرض فان عن الجوهر الباقي.

إقليم أبعد، تستحضر فيّ إقليم غريفو عام 2009. لكن لن أعرف أبدًا. ومع هذا المزيج المتخمر من النكهات، المصنوع في ذروة الحضارة المدنية، ينصب نحوي، ينساب داخلي، أجدني، في خضم الرعب، في مزاج تأملي.

الشك قد أخذ يساورني بأن عجزي ليس مرحلةً عابرة. هبني كل القوى التي يتسنى للجسد البشري التمتع بها، أعد ذاتي اليافعة المتوحشة مفتولة العضلات ونظرة عينيها الجامدة كما النمر، وحُضّه على اتخاذ أشد المواقف تطرفًا – قتل عمه في سبيل إنقاذ أبيه. ضع سلاحًا في يده، مفتاح ربط الإطارات، ساق عجل متجمدة، ودعه يقف خلف كرسي عمه، حيث تتسنّى له رؤية قارورة مقاوم التجمد فتستثير الحَميّة فيه. اسأل نفسك، هل بيده – هل بيدي – فعلها، تحطيم تلك العجرة المشعرة من العظام وسكب محتواها الرمادي على مدّ القذارة المنبسطة على الطاولة؟ من ثم يقتل أمه كونها الشاهد الوحيد، يتخلص من الجثتين في مطبخ القبو، مهمة يستحيل تنفيذها سوى في الأحلام؟ ولاحقًا، تنظيف ذاك المطبخ – مهمة أكثر استحالة؟ وضع في الاعتبار احتمال الحكم بالسجن، قضاء الوقت حبيس الضجر المجنون، في جحيم رفقة الآخرين[26]، من ليسوا حتى بصفوة الآخرين. شريكك في الزنزانة يفوقك قوّة ولا يأبه لشيء سوى مشاهدة مسلسلات الدراما الصباحية على مدار اليوم على مر ثلاثين عام. تفكر بإبداء امتعاضك؟ إذن راقبه يملأ غطاء الوسادة المصفر بالصخور، يرنو بنظره إليك، نحو عجرة عظامك أنت.

أو فلنفترض الأسوأ، الجريمة ارتكبت – آخر خلايا كلية أبي تشظّت بفعل السم الكريستالي. قلبه ورئتاه تقيأهم في حجره. ألم

(26) Hell is other people: إشارة إلى الجملة الختامية من مسرحية جان بول سارتر الوجودية (لا مخرج – No Exit)

مبرح، غيبوبة، من ثم الموت. وماذا عن الانتقام لمقتله؟ طيفي الشاب يهز كتفيه مستخفًا ويتناول معطفه، يتمتم في طريقه خارجًا أن جرائم الشرف قد بادت وما عاد لها من وجود في الدولة المدنية الحديثة. فلأدعه يعبر عن موقفه بلسانه.

"تطبيق القانون بيديك – يا لها من عادة عتيقة، دعها لنزاعات الألبان المسنين وطوائف القبلية الإسلامية. فالأخذ بالثأر قد باد واندثر. هوبز[27] كان محقًا، صديقي الصغير. الدولة وحسب من يتوجب عليها احتكار العنف، السطوة الكفيلة بإبقائنا جميعًا في رهبة منها."

"حسن، طيفي الطيب، إذن اتصل بلوياثان[28]، اتصل بالشرطة، ودعهم يحققون في الأمر."

"أي أمر؟ حس الفكاهة السوداوي لدى كلود وترودي؟

"الشرطي: وتلك القنينة من الغليكول على الطاولة، سيدتي؟

السبّاك نصحني بها، حضرة الشرطي، كي أحافظ على المشعاع العتيق في البيت من التجمد في الشتاء"."

"طالما الأمر هكذا، فيا ذاتي المستقبلية المتجلية في أبهى صورها، انطلقي إلى **شورديتش**، حذر أبي، أخبره بكل ما تعرف."

"أخبره بماذا؟ أن المرأة التي يحب ويبجل تخطط لقتله؟ ومن أين لي أن عرفت معلومة كهذه؟ أكنت شريكًا في أحاديث الوسادة، هل كنت أسفل الفراش؟"

وما هذا إلا النموذج المثالي للشاب القوي المقتدر. فما عساني أنا

---

(27) الفيلسوف البريطاني توماس هوبز (1588 – 1679) وأحد مؤسسي فلسفة السياسة الحديثة، لا سيما مع كتابه (لوياثان – Leviathan) والذي شكل إضافة مؤثرة على نظرية العقد الاجتماعي.

(28) إشارة إلى عنوان كتاب هوبز (لوياثان) وهي كلمة عبرية تعني الوحش البحري الضخم القوي، أقوى الوحوش، ومذكورة في الإنجيل في سفر إشعياء.

أن أفعل، الأعمى، الأبكم المقلوب رأسًا على عقب، شبه الطفل، من ما زال يقطن بيت أبويه، محميًا بخيوط المئزر الشريانية الوريدية للقاتلة المستقبلية؟

لكن صه! المتآمران يعاودان الحديث.

"ليس بالأمر السيّئ،" يقول كلود، "رغبته الملحة في الانتقال مجددًا إلى هنا. ادّعي المقاومة بادئ الأمر، من ثم دعيه يعود."

"آه نعم،" تقول له، في نبرة باردة ساخرة. "وأرحب بعودته مع كأس سموذي."

"لم أقل ذلك. لكن."

لكني أظنّه قالها.

يلوذان بالصمت برهةً كي يتفكرا. أمي تتناول قنينة نبيذها. لهاة أمي تعلو وتهبط دبقة بينما تحتسي الشراب، السوائل تنصب عبر الصمامات في مجاريها الطبيعية، تعبر - مثلها مثل غيرها من السوائل - قريبًا من كعبيْ قدميّ، تنعطف داخليًا، في اتجاهي. فكيف لي ألا أحبها؟

تضع كأسها جانبًا وتقول، "لن ينفعنا تركه يموت هنا."

يا للسهولة التي تتكلّم بها عن موته.

"معك حق. خير لنا أن يموت في **شورديتش**. بإمكانك زيارته هناك."

"وأجلب معي قنينة عتيقة من مقاوم التجمد كرمى لأيامنا الخوالي!"

"تجلبين معك سلة نزهة. سلمون مدخن، سلطة كولسلو، أصابع شوكولا. و... المطلوب."

"هاااا!" يصعب عليّ أداء الصوت المتفجر شكًّا الصادر عن أمي.

"أهجره، أطرده من بيته، أتخذ لي عشيقًا. من ثم أُعِدّ له نزهة!"

حتى أنا قدّرت استياء عمي المبطن من "أتخذ لي عشيقًا" – كما لو أنه واحد من عشاق كثر مجهولين سيحل دورهم لاحقًا. هي في مفردة الفعل "أتخذ" وافتقار "عشيقًا" لأل التعريف. المسكين. هو يحاول مساعدتها ليس إلا. يجلس قبالة امرأة يافعة فاتنة ذات ضفائر ذهبية، في صدرية بكيني وشورت قصير في مطبخ قائظ، ثمرة ريانة ناضجة مذهلة، غنيمة لا يطيق ضياعها من بين يديه.

"لا،" يقول في نبرة مراعية. الإهانة التي وجّهتها إليه في صميم منظوره عن نفسه قد رفعَت من طبقة صوته. "هي هديّة مُصالحة، تكفّرين بها عن صنيعك. تطلبين منه العودة. العيش معًا. تقدمة سلام أو شيء من هذا القبيل، لحظة تحتفلان بها، تبسطين المفرش. وتسعدا!"

يؤوّل صمتها نقطةً لصالحه. هي تفكّر. وأنا كذلك. والسؤال هو ذاته. إلى أيّ حد كلود رجل غبي؟

يردف متشجعًا، "سلطة الفاكهة خيار معقول."

هناك حس شاعري في تفاهته الرقيقة، شيء من العدميّة ينعش أقواله المبتذلة. أو، على العكس، طبيعته التفهة تجرد أحقر أقواله من وضاعتها. كلود وحسب له أن يتفوق على هذه الإجابة، ولم يكذب خبرًا، فعلها بعد خمس ثوان.

"طالما أن البوظة ليست بخيار."

محض منطق. تعليق يستحق الإدلاء به. فمن عساه أو بإمكانه صنع بوظة من مقاوم التجمد؟

ترودي تنهد. تقول له همسًا، "كما تعرف، كلود، فقد أحببته فيما مضى."

هل يا ترى يراها كما أتصورها؟ عيناها الخضراوان تغشاهما نظرة لامعة، وكرة أخرى، دمعة تترقرق، تنساب رقيقةً على وجنتها. بشرتها متوردة رطبة، شعرات رقيقة أفلتت حرةً من ضفيرتيها، أضواء السقف الساطعة تصيّرها فتائل ملتهبة.

"كنا جد يافعيْن لدى التقائنا. أعني، التقينا باكرًا جدًا. على مضمار رياضي. كان يرمي الرمح عن ناديه وحطم رقمًا قياسيًا محليًّا. ركبتاي ارتجفتا بمجرد رؤيته، كيف جرى حاملًا ذاك الرمح. مثله مثل إله إغريقي. بعد أسبوع اصطحبني إلى **دبروفنك**. حتى أن غرفتنا لم يكن لها شرفة. يقولون إنها مدينة جميلة."

أسمع الصرير المتقلقل لكرسي المطبخ. كلود يتصور صواني خدمة الغرف متراكمة خارج الباب، ملاءات الفراش مبعثرة على نحو رومانسي حد الغثيان، الفتاة ذات التسعة عشر ربيعًا تجلس شبه عارية إلى طاولة الزينة من الخشب الرقائقي المطليّ، ظهرها مثالي، منشفة فندق رطبة تنبسط على حجرها – إيماءة وداعية اتجاه الحشمة. جون كيرنكروس منفيّ بفعل الغيرة عن الصورة المتخيلة، خارج إطارها بكثير، لكن يبقى ضخمًا، وعاريًا هو الآخر.

بلا مبالاة لصمت عشيقها، تسترسل ترودي في طبقة صوت متصاعدة، قبل أن يمسك لسانَها انقباضُ حنجرتها. "كل تلك الأعوام قضيناها نحاول إنجاب طفل. وما إن، وما إن ..."

ما إن! ظرف زمان تافه لا قيمة له! وقت سئمت من أبي وشعره، كنت قد رسخت وتدي فيها حتى استحال عليها طردي. وها هي تبكي الآن لأجل جون كما بكت لأجل هكتور الهر. فلنأمل أن ذمة أمي لن تتسع إلى ارتكاب جريمة قتل ثانية.

"إمم،" يقول كلود أخيرًا، عارضًا عليها فتاته. "انسكب الحليب وكل ما سواه."

الحليب، ذاك السائل البغيض المنفر للجنين المقتات على الدم، لا سيما بعد احتسائه النبيذ. على كلٍّ مستقبلي بأسره حليب مسكوب.

ينتظر بصبر فرصة عرضه فكرة النزهة. ليس بالأمر الهين عليه، أن يشهد نحيب عشيقته على منافسه. أو لربما يساعده مشهد كهذا على التركيز في مهمته. ينقر أصابعه بخفة على الطاولة، عادة لديه. لدى وقوفه أسمع خشخشة مفاتيح المنزل في جيبه، أو لعله يتنحنح دون جدوى. تلك الإيماءات الفارغة، الخاوية من الوعي الذاتي، أراها دلائل شرٍّ مستطير. هناك نفحة كبريتية جهنمية تتعلق بكلود. لكن اللحظة أنا وإياه على نفس القارب، فأنا أيضًا أنتظر، مزعوجًا بالولع المرضي الذي اعتراني كي أعرف مخططه، كما الحال لدى تشوّقك إلى معرفة نهاية مسرحية. لن يتسنى له الإفاضة طالما هي تبكي وتنوح.

بعد دقيقة تتمخط وتقول في صوت متهدج، "على أي حال، أنا أكرهه الآن."

"قد سبب لك التعاسة."

تومئ له وتتمخط من جديد. والآن نعيره آذانًا مصغية بينما يعرض علينا الكتيب الشفهي. أسلوبه في التقديم يضاهي أسلوب المبشر الإنجيلي الواقف على عتبة بابها كي يهديها إلى حياة أفضل. من الضروري، يقول لنا، أن نقوم أنا وأمي بزيارة واحدة على الأقل إلى أبي في **شوردیتش** قبل الزيارة الأخيرة، الزيارة القاتلة. إذ من العبثي محاولة إخفاء أي دليل على وجودها هناك. ومن المفيد ترسيخ فكرة تقاربهما هي وجون من جديد.

هذا الأمر، يقول لنا، لا بد أن يبدو انتحارًا، كأنما كيرنكروس قد أعد شراب كوكتيل لنفسه كي يحسن من طعم السم. ولهذا، فعلى أمي لدى زيارتها الأخيرة أن تترك لديه القوارير الأصلية الفارغة من الغليكول وعصير السموذي المعد في المتجر. ولا بد أن تمحو عن تلك القوارير كل أثر لبصماتها. ستحتاج إلى نزع بصماتها بالشمع. ولديه المادة المطلوبة. مادة رائعة هي الأخرى. وقبل مغادرتها شقة جون، ستترك بقايا وجبات النزهة في الثلاجة. أي وعاء أو تغليف يجب أن يخلو أيضًا من بصماتها. كي يبدو الأمر وكأنه تناول طعامه وحيدًا. وكونها المستفيدة من وصيته، ستكون عُرضة للتحقيق، موضع اشتباه في مؤامرة قتله. لذلك فكل أثر لكلود، لا سيما في حجرة النوم والحمام، لا بد أن يستأصل، تكشطها عن الوجود، كل شعرة وكل قشرة جلد. وكل، أشعر بها تقولها في نفسها، ذيل خامد ورأس جامد من كل حيوان منوي. سيتطلب الأمر وقتًا.

ويواصل كلود شرحه، محذرًا إياها من محو سجل اتصالاتها الهاتفية به. فشركة الاتصالات تحتفظ بها.

"لكن تذكري. أنا مجرد صديق."

كم شق عليه النطق بتلك الكلمات، لا سيما وأن أمي قد أعادتها عليه وكأنما تردد شعارًا. الكلمات، التي بدأت أقدر قيمتها، لها أن تصيّر أي أمر حقيقة.

"أنت صديقي وحسب."

"أجل. تتصلين من وقت لآخر. لتبادل الحديث. فأنا صهرك. أقدم لك يد العون. لا شيء أكثر."

يعرض فكرته علينا في سرد محايد، وكأنما قتل الأشقاء والأزواج كل يوم هي لقمة عيشه، جزّار شريف يمارس مهنته في متجره على

الشارع الرئيس ويغسل مآزره الملطخة بالدم مع غسيل العائلة والملاءات والمناشف.

ترودي تستهل دورها في الحديث، "لكن اسمع –" بيد أن كلود يقاطعها مع فكرة مفاجئة تذكرها التو.

"هل رأيتِ؟ البيت في شارعنا، على نفس الجانب، ذات الحجم والحالة؟ معروض في السوق مقابل ثمانية ملايين!"

أمي تأخذ لحظة تستوعب فيها المعلومة الجديدة في صمت. ضمير الجمع في "شارعنا" هو ما تحاول بلعه.

وهكذا. كسبنا مليونًا إضافيًا لقاء عدم قتلنا أبي في وقت أبكر. كم هم محقون: نحن من نصنع أقدارنا. لكن. (كما يقول كلود). معلوماتي ما تزال بعد ضئيلة فيما يخص عالم الجريمة. ومع ذلك، فحتى أنا لي أن أرى خطته أقرب إلى عجينة خباز منها إلى لحمة جزار. نصف مخبوزة. فمن شأن غياب البصمات الكلي عن قارورة الغليكول أن يثير الشكوك. ومتى ما شعر أبي بالتوعك، ما الذي سيمنعه من الاتصال برقم الطوارئ؟ سيغسلون معدته، يستعيد صحته. من ثم؟

"لا أكترث بشأن سعر البيت،" تقول ترودي. "تلك المسألة سنعالجها لاحقًا. السؤال الأهم هو هذا. ما هي مجازفتك، ما الذي ستخاطر به مقابل مطالبتك بنصيبك من المال؟ إن وقع خطب ما ووقعتُ أنا في قبضة الشرطة، فأين دورك في الموضوع متى ما كشطتك عن حجرة نومي؟"

أنا متفاجئ بنبرتها الفظة. واللحظة أختبر شعورًا ليس بالبهجة، بقدر ما هو أمل بالبهجة. أشعر بعقد تنحل في أحشائي. الشريران يتعاركان فيما بينهما، المؤامرة - الهشة أصلًا - ها قد انهارت، وأبي سينجو بحياته.

"ترودي، سأكون جانبك خطوة بخطوة."

"بل ستكون آمنًا في بيتك. حجة غيابك لا غبار عليها. إنكار مثالي."

قد درست الأمر من كل جوانبه. طوال كل هذا الوقت كانت تفكر خفيةً عني. يا لها من لبؤة.

كلود يقول. "كل ما في الأمر ..."

"ما أريده منك،" تقول له أمي في نبرة متقدة تجمد أوصال الجدران من حولي، "أن تربط نفسك بهذا الأمر ربطًا وثيقًا. فإن وقعت، تقع معي. إن –"

جرس الباب يرن مرة، مرتين، ثلاثًا، ونقف جميعًا جامدين. لا أحد، من خبرتي، قد أتى باب بيتنا الأمامي في هذه الساعة المتأخرة. إلى هذا الحد خطة كلود هشة إذ انهارت حتى قبل أن يكمل سردها، فها هم الشرطة عند الباب. لا أحد غيرهم يرن الجرس بهذا الإصرار العنيد. المطبخ كان مزودًا بأجهزة تنصت طوال تلك المدة وقد سمعوا كل ما قيل. ترودي ستحظى بمأربها – كلنا سنقع معًا. الرُضّع خلف القضبان كذا كان عنوان وثائقي طويل عرضوه على المذياع واستمعت إليه ذات ظهيرة. المجرمات المدانات في الولايات المتحدة، الأمهات المرضعات، يسمح لهن بتربية أطفالهن في الزنزانة. المسألة عرضوها من منظور إيجابي دليلًا على التطور والتنوير المدني. لكني أذكر التفكر بيني وبين نفسي، وما الذنب الذي اقترفه أولئك الرُضّع. أطلقوا سراحهم! آه، على أي حال. فقط في أميركا.

"سأرى من هناك."

ينهض ويقطع المطبخ إلى حيث هاتف الباب المرئي. يحدق مليًا في الشاشة.

"هذا زوجك." يقول في نبرة فاترة.

"إلهي." تصمت أمي هنيهة كي تفكر. "لا جدوى من ادعاء عدم وجودي في البيت. الأجدر بك الاختباء في مكان ما. في حجرة الغسيل. فليس من عادته أبدًا –"

"هناك شخص آخر برفقته. امرأة. امرأة يافعة. وجميلة أيضًا."

هنيهة صمت أخرى. الجرس يعاود الرنين. رنةً أطول.

صوت أمي موزون، وإن كان مشدودًا. "في هذه الحال، اذهب أنت وأدخلهم البيت. لكن كلود، حبيبي، لطفًا احمل قارورة الغليكول وأبعدها عن هنا. "

الفصل السابع

هناك فنانون، في الكتابة أو الرسم، لا يسطع نجمهم إلا إذا حُصِروا في حيّز ضيق، مثلهم مثل الأجنة. المدى المحدود لمواضيعهم قد يذهل أو يخيب أمل البعض. تبادل المغازلة بين أبناء الطبقة الأرستقراطية في القرن الثامن عشر، الحياة أسفل الشراع، أرانب ناطقة، أرانب وحشية منحوتة، أشخاص سمان على لوحات زيتية، بورتريه الكلاب، بورتريه الخيول، بورتريه النبلاء، عاريات مضطجعات، ميلاد المسيح بالملايين، الصَّلب، رفع العذراء، أواني الفاكهة، وزهور في زهريّات. خبز دنماركي وجبن مع أو دون سكين على الجانب. بعضهم يكرس حياته للكتابة نثرًا عن النفس وحسب. والحال ذاته مع العلوم، أحدهم يفني حياته في دراسة الحلزون الألباني، وآخر في دراسة فيروس. داروين أفنى ثمانِ سنين من عمره في دراسة البرنقيل. وفي حياة حكيمة لاحقة، أفنى عمره في دراسة دودة الأرض. جسيم هيغز، شيء بالغ الصغر، حتى أنه قد لا يرقى إلى شيء، قد أفنى عمره في سبيل فهمه الآلاف. أن تحصر نفسك في قشرة جوزة، أن ترى العالم من خرم بوصتين من عاج[29]، في حبة

(29) Two inches of ivory: في إشارة إلى الروائية الإنجليزية جين أوستين وحديثها قبل وفاتها عن عملية الكتابة إذ وصفتها "كما الرسم بفرشة دقيقة على مساحة لا تزيد عن بوصتين من عاج". الإشارة في ظاهرها تعود إلى طاولتها الصغيرة جدًا التي كتبت عليها روائع رواياتها مثل "كبرياء وهوى"، إلا أنها تفسر أيضًا استعارة عن محدودية العالم الذي كتبت عنه في رواياتها نتيجة خبرتها المحدودة في الحياة.

رمل[30]. ولم لا، إن كانت الآداب بأسرها، وكل الفنون، سعيُ الإنسان المحموم إلى فهم العالم، ما هي إلا ذرة في كون الاحتمالات. وحتى هذا الكون قد لا يكون إلا ذرة في فضاء الأكوان الحقيقية والمحتملة.

فلم لا تكن شاعرًا عن البوم؟

أعرفهم من وقع أقدامهم على درجات سلم المطبخ. أولهم كلود، من ثم أبي، تتبعه صديقته التي وقع معها عقدًا، في حذاء كعب عال، أظنها جزمة، ليس بالخيار المناسب للتطواف في مواطن البوم في الغابات. وبما أن الوقت ليل، بمَلَكَة عقلي في الربط بين الأمور، فإنني سأكسوها سترة جلدية سوداء ضيقة وبنطال جينز، دعها تكن يافعة، فاتحة، جميلة، امرأة مستقلة بذاتها. مشيمتي، المتفرعة كما هوائي المذياع، ومدوزنة على الموجة الصحيحة، تلتقط إشارات بأن أمي قد كرهتها من اللحظة الأولى. خواطر غير منطقية تعيث في نبض ترودي، دقات جديدة تنذر بشرٍّ مستطير تعلو وتعلو كأنما آتية من قرية نائية في الأدغال، دقات تنطق بالتملك، الغضب، الغيرة. نحن دون ريب مقبلون على عاصفة هوجاء.

كرمى لأبي، أشعر أني ملزم بالدفاع عن ضيفنا الجديد: فموضوع عملها ليس بذاك المدى المحدود، البوم أكبر حجمًا من الجسيمات والبرنقيل، مع مئتي فصيلة وصدىً فولكلوري ذائع الصيت. وجُلّ الصيت يأتي من كونها نذير شؤم. على خلاف ترودي، ويقينها الغريزي الذي تشعر به في أحشائها، فأنا أرتجف على إثر الشكوك التي تعتريني. فإما أن أبي، ليس بساذج ولا قديس، قد أتى كي يستعرض علينا

(30) To see the World in a Grain of Sand: في إشارة إلى مطلع قصيدة الشاعر الانجليزي ويليام بلايك "Auguries of Innocence": أن ترى العالم في حبة رمل، أن ترى الجنة في زهرة برية، أن تقبض على السرمد في راحة يدك، وتعيش في ساعة كلّ الأبدية.

عشيقته، كي يُحجّم أمي ويضعها في محلها الصحيح (ذكرى من الماضي) ويظهر لامبالاته اتجاه جريمة أخيه الشائنة. أو لربما هو فعلًا ساذج، قديس يفوق أي قديس، وقد مرَّ علينا صافي النية برفقة أحد معارفه من الشعراء كي يكون درعًا اجتماعيًا يحتمي به، على أمل الوجود في حضرة ترودي لأطول وقت متاح قبل أن تسأم منه. أو لربما هو أمر يتجاوز الاحتمالين، احتمال مبهم يعصى عليّ إدراكه. الخيار الأبسط أمامي، على الأقل في الوقت الحالي، أن أتبع غريزة أمي وأفترض تلك الصديقة عشيقة أبي.

لا طفل، وبالتأكيد لا جنين، قد أتقن يومًا فن الأحاديث الجانبية، ولا حتى سيرغب بممارستها. هي أداة في يد البالغين، ميثاق غليظ في التعامل مع أجواء الملل والخداع. وفي هذه الحال الخداع هو الغالب. بعد الإطالة في كشط الكراسي، عرض النبيذ، فرقعة السدادة، يلقي كلود تعليقًا حول موجة الحر تبدر على إثرها همهمة محايدة من أبي. التبادل المتقطع في الحديث بين الأخوين يؤكد كذبة مرور زوّارنا العارض في هذه الساعة. ترودي تظلّ على صمتها، حتى مع تعريف أبي بالشاعرة، إيلودي. لا أحد يعلّق على الشكل الهندسي الاجتماعي البديع من زوجين وعشيقين يجلسون جميعهم حول طاولة، يرفعون كؤوسهم في نخب صحتهم، الأربعة كومبارس في مشهد صامت يجسد هشاشة الحياة المعاصرة.

لا يبدو أبي منزعجًا بعثوره على أخيه في مطبخه، يفتح قنينة النبيذ، يلعب دور المضيف. إذن جون كيرنكروس لم يكن يومًا بالأحمق، الديوث الغافل عن الماء الذي يسري تحت قدميه. أبي الذي لم أوفه حقه من التقدير يحتسي كأسه دون مبالاة ويسأل ترودي عن أحوالها.

أرجو ألا تكوني مجهدة. ملاحظته قد تُؤَوّل لِمْزًا دمِثًا، تلميحًا جنسيّ. تلك النبرة المستعطفة فيه قد اختفت. وحلت محلها إما نبرة الجفاء أو السخرية. الرغبة المشبَعة وحسب تفضي إلى هكذا تغيير. ترودي وكلود لا بد يتساءلان عن سبب زيارة المغدور به، ما عساه يريد، لكن ليس من التهذيب طرح سؤال كهذا.

عوضًا عن ذلك، يتوجه كلود بالسؤال إلى إيلودي إن كانت تعيش بالقرب من هنا. تجيبه بكلا. هي تقطن في **ديفون**، في محترف، في مزرعة، قرب نهر، وكأنها باستفاضتها في الجواب تحيط ترودي علمًا بأنها في لندن تقضي الليل بين ملاءات جون في **شورديتش**. هي تعلن ملكيتها. أحب رنة صوتها، لكنت وصفته بالصوت الإنساني للمزمار، طقطقة خفيفة، مع بطبطة في لفظها حروف العلة. لدى بلوغها نهاية عباراتها، تتحدث بصوت أشبه بالغرغرة والدمدمة يسميه علماء اللغة الأميركيون "vocal fry"[31]. علّة مرضيّة أخذت تنتشر في العالم الغربي، موضع نقاش الكثيرين على المذياع، بمسببات مرضية مجهولة، يظن أنها تعكس الحنكة والتكلف، وغالبًا ما تصيب المرأة اليافعة المتعلمة والمثقفة. هي أحجية ممتعة. مع صوت كهذا، لها أن ترسخ موقعها أمام أمي.

لا شيء في تصرفات أبي يوحي بأن أخاه في هذه الظهيرة قد منحه خمسة آلاف جنيه نقدًا. لا امتنان، هو ذات الازدراء الأخوي المعتاد. لا ريب موقفه هذا يؤجج نار الكراهية القديم في قلب كلود. وفيّ أنا، يثير شيئًا افتراضيًا، ضغينة محتملة اتجاهه. فحتى مع تأويلي أبي رجلًا مغرمًا أحمق، لطالما افترضت أن الأمور متى ما ساءت وباتت غير محتملة مع كلود، إن فشلت في جمع والديّ، فعلى الأقل سأعيش مع أبي، على

(31) Vocal fry: نبرة صوت باتت مميزة لدى المراهقات والشابات اليافعات في الأعوام الأخيرة ونموذج عليه أسلوب النائبة الأميركية اليافعة أليكساندريا أوكازيو كورتيز (Alexandria Ocasio-Cortez).

الأقل لفترة. إلى أن أتمكن من الوقوف على قدميّ. لكن لا أظن أن تلك الشاعرة ستقبل باستضافتي – بنطال الجينز الضيق والسترة الجلدية ليست بملابس أمومة. عنصر من عناصر جاذبيتها. من منظوري الضيق، من الخير لي أن يكون أبي عازبًا. البشرة الفاتحة الجميلة ونبرة البط الواثق لن يقفا حليفيْن في صفي. لكن لربما لا شيء أصلًا بينهما، وحقيقةً هي تعجبني.

كلود قد قال التو، "محترف؟ في مزرعة؟ كم هو أمر مذهل." وتستفيض إيلودي في الوصف في دمدمتها الحضرية، المحترف عبارة عن كوخ على هيئة الحرف "A" على ضفة نهر قاتم وجارف مخلّفًا الزبد حول أعمدة الجلمود الجرانيتي، جسر متقلقل يصل الضفة بالضفة المقابلة، أيكة وشجر القضبان، أرض خلاء مقطوعة الشجر مشرقة متلألئة بشقائق النعمان وزهور الكالندين، بزهور الجريس الزرقاء والغربيون.

"مثالي لشاعر من شعراء الطبيعة." يقول كلود.

ملاحظة صحيحة في محلها ومُملّة حدّ فُقدان إيلودي زخمها. يصر على المواصلة. "وكم تبعد كلها عن لندن؟"

"كلها" يشير بها إلى النهر والصخور والجسر والأيكة والأزهار التي لا معنى لها. تجاوبه مثبطة، بالكاد تبطبط كلماتها.

"حوالي مئتي ميل."

قد خمنت أنه سيسألها عن أقرب محطة قطار وكم من الوقت تستغرقه الرحلة، معلومات سرعان ما سينساها. ومع ذلك يسأل، وهي تجيب، وثلاثتنا نستمع إليهما، لا مصعوقين ولا حتى شبه ضجرين. كُلّ منّا، من وجهة نظره المختلفة، لبُّه مأسور بما لم تفصح عنه الكلمات. العشيقان، بافتراض أن إيلودي عشيقة، الطرفان

الخارجان عن محيط دائرة الزواج، هما القذيفتان اللتان ستفجران هذا البيت من أساسه. وسيقذفان بي للأعلى، إلى غياهب الجحيم، إلى طابقي الثالث عشر.

في نبرة رقيقة يحاول بها إنقاذ الموقف، يشير جون كيرنكروس إلى إعجابه بالنبيذ، ملاحظة يحثُّ بها كلود على إعادة ملء الكؤوس. وبينما يصبُّ الخمر صمت عميق يخيّم علينا. أستحضر وتر بيانو مشدود في انتظار طرقة مفاجئة. ترودي على وشك الحديث. أعرف ذلك من طفرة نبضها، الدقة التي تسبق كلمتها الأولى.

"وتلك البوم. هل هي حقيقية أم هي، لا أدري، صورة مجازية عن شيء ما."

"أوه لا،" تقول إيلودي متعجلة. "هي حقيقية. فأنا أكتب من واقع الحياة. لكن القارئ، كما تعرفين، يسقط الرموز، يستحضر الارتباطات. ليس بيدي منعه عن ذلك. كذا هي طبيعة الشعر."

"دائمًا ما أتصور البوم،" يقول كلود، "حكيمة."

الشاعرة تتريث، تختبر إن كان من نفحة سخرية في كلامه. قد بدأت تستشف شخصيته فتجاوب على قدره، "هاكِ. لا شيء بيدي فعله."

"البوم مخلوقات وحشية." تقول ترودي.

إيلودي: "مثلها مثل طائر أبو الحناء. مثلها مثل الطبيعة."

ترودي: "من الواضح أنها لا تؤكل."

إيلودي: "والبومة الحاضنة لحمها سام."

ترودي: "أجل. البومة الحاضنة لها أن تقتلك."

إيلودي: "لا أظن ذلك. ستسبب لك التوعك وحسب."

ترودي: "أعني، إن نشبت مخالبها في وجهك."

إيلودي: "لم يحدث قط وأن فعلت. فهي خجولة جدًا."

ترودي: "ليس في حال استفزها أحدهم."

تبادل الحديث بينهما يسير على نحو مسترخ، والنبرة لا مبالية. قد يكون حديثًا جانبيًا أو تبادل تهديدات وإهانات –أفتقر إلى الخبرة الاجتماعية المطلوبة كي أميز الفرق. وإن كنت ثملًا فترودي لا بد ثملة هي الأخرى، لكن لا شيء في تصرفاتها يوحي بسكرتها. اشمئزازها من إيلودي، المصنفة الآن ندًّا لدود، هو إكسير الصحوة.

على ما يبدو فجون كيرنكروس قد قبل بطيب خاطر تمرير زوجته إلى كلود كيرنكروس. ما يجرد أمي من قوتها، مَنْ حتى اللحظة كانت تظن أن الهجر والتمرير هو في يدها هي كي تقرره. قد تنكر على أبي علاقته بإيلودي. قد تنكر عليه حقه في الحياة. لكن قد أكون مخطئًا. فهناك إلقاء أبي القصائد في المكتبة، تصرفه كما لو أن كل لحظة ينفقها في حضرة أمي عطية ثمينة، السماح لها بصرفه خارجًا إلى الشارع. (غادر!) لا أملك الوثوق في حكمي. الدلائل غير متوافقة.

لكن لا وقت للتفكر الآن. ها هو ينهض ويقف على قدميه، طيف ضخم يخيم علينا، كأس النبيذ في يده، بالكاد يترنح، على أهبة الاستعداد لإلقاء خطاب. فليلزم الجميع الصمت.

"ترودي، كلود، إيلودي، قد أوجز في حديثي، وقد لا أفعل. من يكترث؟ كل ما يهمني الإفصاح عما يجول في خاطري. متى ما يموت الحب ويغدو الزواج أطلالًا خربة، فالضحية الأولى هي الذكرى الصادقة، الاستحضار الشريف المحايد للماضي. ماض ما عاد ذا صلة بالحاضر، ماض محكوم عليه باللعنة الأبدية. شبح السعادة القديمة

الجالس على وليمة الفشل والأسى. لذا، وفي وجه ريح النسيان المعاكسة، أوقد اللحظة شمعة الحقيقة الصغيرة وأرى إلى أي مدىً سيشع في العتمة ضوؤها. قبل عشرة أعوام تقريبًا، على ساحل **دالماشن**، في فندق رخيص لا إطلالة له على بحر البنادقة، في غرفة ثُمن مساحة هذا المطبخ، في سرير عرضه بالكاد يصل ثلاثة أقدام، أنا وترودي وقعنا في تلافيف الهوى، في نشوة الوجد والثقة، في أفق لا نهائي من البهجة والطمأنينة، لا زمان يحدنا ولا كلمات تصفنا. أدرنا ظهرينا للعالم كي نخلق ونشيد عالمنا الخاص. أثرنا حماسة بعضنا بادعائنا العنف، دللنا ولاطفنا بعضنا كما لو كنا طفلين، منحنا بعضنا ألقابًا محببة، ابتدعنا لغتنا الخاصة. ما كان للإحراج والخجل من محل بيننا. منحنا وتلقينا وسمحنا بكل شيء. كُنّا عَشيقَين ملحميّين. نقف على قمة شاهقة لا أحد قبلنا بلغها، لا حياةً ولا شعرًا. حبنا كان من الرفعة والعظمة حدَّ رأيناه ناموسًا كونيًّا. كان نظامًا أخلاقيًّا، وسيلة يتحتم وجودها كي نتواصل مع الآخرين، بيد أن العالم ولسبب ما قد تغاضى عنها. متى ما استلقينا على الفراش الضيق وجهًا لوجه، كلّ يُنعم النظر في عيني الآخر، وتبادلنا الحديث، استحضرنا ذاتَينا من الغياب إلى الوجود. كانت تمسك يديّ وتُقبّلهما، ولأوّل مرة في حياتي لم يعتريني الخجل منهما. عائلتانا، بعد أن استغرقنا في الحديث بالتفصيل عنهما، بدتا لأوّل مرّة منطقيّتين. أحببنا عائلتينا باندفاع، رغم كل صعوبات الماضي. وكذا كان الحال مع أعزّ وأقرب أصدقائنا. بات بيدنا مغفرة الكل على خطاياه. فحُبّنا قد جاء لصالح الخير في هذا العالم. ترودي وأنا ما سبق لنا أن أصغينا وتحدثنا بكل هذا الاهتمام. ممارستنا الحب تستهل حديثنا، حديثنا يستهل ممارستنا الحب.

مع انقضاء ذاك الأسبوع، وعودتنا واستقرارنا هنا، في بيتي، ظلت جمرة الحب متقدة، شهورًا وأعوامًا. بدا لنا وكأن لا شيء في هذا العالم قد يخمدها. لذا قبل مواصلتي قُدمًا، أرفع كأسي في صحة ذاك الحب. عسى أن لا أحد ينكره، ينساه، يشوهه، أو يرفضه بذريعة أنه كان صرحًا من رمال. في صحة حبنا. قد حدث. حقيقةً كان. "

أسمع لخبطة همهمات توحي باتفاق الأطراف بالإجماع وإنْ على مضض، أسترق السمع أكثر، وإذ أسمع أمي تبتلع بصعوبة قبل ادعائها شرب النخب. أظنها قد جفلت على وقع " في بيتي."

"والآن،" يواصل أبي، في صوت أخفض، كأنما دخل التوردهة دار جنائز، "هذا الحب قد هوى وتحطم. لم تنهر أعمدته إلى روتين ضجر أو بات وَشيعًا يَقِيْنَا الوحدة في وجه الشيخوخة. بل فنيَ بسرعة، على نحو مأساوي، كما هي شيم قصص الحب العظيمة. الستار أُسْدل. حبنا انتهى، وأنا مسرور لانتهائه. ترودي مسرورة. كل من يعرفنا قد سُرَّ وارتاح. كنا نثق ببعضنا، والآن ما عاد من ثقة بيننا. أحببنا بعضنا، والآن أمقتها بقدر ما هي تمقتني. ترودي، حلوتي، بالكاد أطيق النظر إليك. هناك لحظات بالكاد أمسكت نفسي خلالها عن خنقك بيديّ. باتت تراودني أحلام، أحلام سعيدة، أرى إبهاميّ فيها تضيقان الخناق على ودجيْك. وأعرف أنك تحملين ذات الشعور اتجاهي. وإن يكن، فليس بداع لنا كي نندم. بل الأجدر بنا أن نحتفي. ما تلك إلا مشاعر سوداوية نحتاج إليها كي نتحرر من قبضة ترددنا، نحتاجها كي نولد من جديد إلى حياة جديدة وحبٍّ جديد. إيلودي وأنا قد عثرنا على هذا الحب، ورباطه السماوي سيجمع بيننا حتى آخر يوم في حياتنا."

"على مهلك،" تقاطعه إيلودي. أظنها تخشى نزوع أبي إلى فضح

سريرته دون تحفظ.

لكن ما كان ليقبل بأن يقاطعه أحد. "ترودي وكلود، أنا سعيد بكما. قد جمعتكما الحياة في اللحظة المثالية. لا أحد له أن ينكر عليكما سعادتكما، صدقًا تستحقان بعضكما البعض."

بل لحظة ملعونة، وإن يبدو أبي صادقًا في تمنيه على نحو يربكني. أن ترتبط بصعلوك بليد ورغم شَبَقه مثل كلود لهو مصير معقد. وأبي يدرك ذلك. لكن صه. ما زال يتحدث.

"هناك إجراءات لا بد أن نتخذها. سنخوض في نقاشات حادة وتوتر شديد. لكن الخطة بصورتها الأشمل بسيطة، ولهي نعمة أنها كذلك. كلود، أنت تملك بيتًا كبيرًا في **بريمروس هل**، ولكِ ترودي أن تنتقلي إلى هناك. في الغد سأبدأ بنقل بعض أغراضي وإعادتها إلى هنا. ما إن ترحلي وينتهي عاملو الديكور من مهمتهم، ستنتقل إيلودي إلى هنا وتعيش معي. أقترح ألّا نلتقي عامًا أو أكثر، من بعدها نعيد دراسة الوضع. الطلاق سيكون مباشرًا. أهم ما في الأمر أن نتذكر دومًا وفي كل الأوقات أن نظل متمدنين وعقلانيين، أن نتذكر كم نحن محظوظون بالعثور على الحب من جديد. حسن؟ جيد. لا، لا داع، لا تنهض. أنا وإيلودي سنغادر. ترودي، إن بقيتِ هنا، فسأراك غدًا حوالي العاشرة. لن أبقى طويلًا – فعلي الذهاب مباشرةً إلى **سانت ألبانز**. آه بالمناسبة، قد عثرت على مفتاحي."

أسمع صوت كرسي مع نهوض إيلودي. "انتظر، أعني، هل لي أن أقول شيئًا الآن؟"

"ليس من اللائق بتاتًا." يجيبها أبي في نبرة لطيفة صارمة.

"لكن –"

"هلم بنا. حان الوقت للذهاب. شكرًا على النبيذ."

نحنحة مقتضبة، وقع أقدامهما تتراجع عبر المطبخ من ثم صعودًا على السلم.

أمي وعشيقها يخيم عليهما الصمت بينما نصغي إليهما يغادران. نسمع الباب الأمامي في الطابق الأعلى يصفق على صوت حازم، على علامة ترقيم نهائية. نقطة ومن أول السطر. ترودي وكلود مصعوقان. أنا في اضطراب شديد. وأين تراني كنت في خطبة أبي الجليلة؟ ميتًا. جثمان مقلوبًا رأسًا على عقب في ركام قبري الموحل في أحشاء زوجته السابقة المكروهة. لا إشارة، ولا حتى عرضًا، حتى أنه لم يصرفني كموضوع غير ذي علاقة بما يجري بينهما. عام "أو أكثر" لا بد أن ينقضي قبل أن يأتي مخلصي لرؤيتي. أبي رفع النخب احتفاءً بالذكرى الصادقة ونسيني. في عجلته نحو ولادته من جديد، طرح أرضًا بولادتي. الآباء والأبناء. سمعتها مرة ولن أمحوها أبدًا عن لوح ذاكرتي. ما الذي يربط الأب بابنه في ناموس الطبيعة؟ لحظة اهتياج جنسيٍّ عمياء[32].

تصور هذا. قد انتقل إلى **شورديتش** كي يختلي بإيلودي ويختبر حياتهما المستقبلية معًا. أخلى قصره المتداعي لأخيه كلود كي ينتقل ويمنح جون العذر المطلوب كي يرمي بترودي خارجًا. تلك الزيارات المتلهفة، تلك التقدمات الشعرية، حتى المفتاح المفقود، كلها ما كانت إلا خديعة، يغويها بها إلى الشعور بأمان أكثر مع كلود، يقربهما من بعضهما.

كلود يصب المزيد من النبيذ. في ظل هذه الظروف لمن المريح أن يتصرف كلود وفق طبيعته، كيف يوجز في دقة مضجرة تفهة أكثر أفكاره خواءً.

---

(32) اقتباس من رواية عوليس.

"تصوري."

على مد نصف دقيقة لا تنبس ترودي بحرف. وحين تنطق، كلماتها مترنحة بيد أن عزيمتها راسخة.

"أريده ميتًا. وأريده ميتًا الغد."

الفصل الثامن

خارج هذه الجدران الدافئة، النابضة بالحياة، حكاية جليدية تنسل نحو نهايتها البشعة. سماء منتصف الصيف ملبدة بالسحب الكثيفة، لا قمرًا مُضيئ، ولا حتى أرقّ نسمة. بيد أنّ أمي وعمي يحرّض أحدهما الآخر على عاصفة ثلجية لا تُبقي ولا تذر. فرقعة سدادة أخرى، ولا يمر وقت قبل فرقعة السدادة التالية. الخمر جرفني ورأسي الآن مُثقل بثمالتي، حواسي تلتقط الكلمات مغبشة وأسمع فيها صورة خرابي. ظلال الشخصيتين خلف الشاشة الدامية يتجادلان في صراع يائس مع مصيرهما. الأصوات تعلو وتخبو. وكلما التقطا أنفاسهما عن تبادل الاتهامات والمشاحنة، تابعا تآمرهما. ما يقولانه يعلق جاثمًا في الهواء، مثله مثل صبخن[33] بكين.

الحكاية ستؤول إلى نهاية سيئة، وحتى البيت يستشعر الخراب يعصف فيه. في عز الصيف، عواصف شباط الهوجاء تلوي وتكسر الدلاة الجليدية المتدلية من الميزاب، تفتت الآجر غير المستدق على أطراف الجملون، تقلع الألواح – تلك الألواح عديمة الألوان – عن

(33) الصبخن: ضباب خالطه الدخان ولوثه.

الأسقف المنحدرة. ويمرر الصقيع أصابعه على العفن المتعجن حول أطر النوافذ والأبواب الزجاجية القذرة، من ثم ينسحب مرورًا ببواليع المطبخ. أرتجف بردًا هنا. إلا أن النهاية لن تقبل علينا، البشاعة ستغدو أبديّة إلى حدٍّ نرى عنده النهاية السيّئة نعمةً سماوية. لا شيء سيُمحى من الذاكرة، لا شيء سينجرف مع الأيام. العفن القذر سيظل متواريًا في الثنايا بعيدًا عن متناول يد السبّاك، عالقًا في حجرة الملابس بين معاطف ترودي الشتوية. هذه الرائحة النتنة الصلبة تقتات عليها حدَّ التخمة الفئران الجبانة المتوارية خلف إزار الحائط[34] وتصيّرهم جرذانًا. نسمع صوت قضمها ولعانها المتمرد، لكن لا أحد متفاجئ بسماعها. في كل وقت مستقطع، ننسحب أمي وأنا كي يتسنّى لها جلوس القرفصاء، تئن وتتبول بغزارة. أشعر بمثانتها مقابل جمجمتي تتقلص، وينتابني ارتياح كبير. من ثم عودًا إلى الطاولة، إلى مزيد من التآمر والتوبيخ. عمي من كان يكيل اللعان لا الجرذان. وأمي من كانت تقضم، تقضم الجوز المملح. حتى في أصعب الأوقات لا تنفك تأكل عنها وعني.

هنا، أحلم بحقوقي الأساسية – الأمان، السلام الهادئ، لا واجبات، لا جريمة ولا ذنب. أفكر بحقوقي المكتسبة في حبسي هذا. ومفهومان متضادان يلحان عليّ. كنت قد سمعت بهما في بودكاست تركته أمي دائرًا بينما تتحدث على الهاتف. كنا على الأريكة في مكتبة أبي، النوافذ مفتوحة على مصراعيها نهاية ظهيرة ما. الضجر، قال مسيو بارت، ليس بالمفهوم البعيد عن النعمة؛ فالمرء يحدق في الضجر من شاطئ المتعة. والحق معه. هذه هي الحال مع الجنين المعاصر. تأمل معي: لا شيء يفعله الجنين سوى أن يكون وينمو، وحتى النمو ليس بالفعل الواعي.

(34) إزار الحائط: طوق خشبي محيط بالجدران الداخلية للغرفة مما يلي أرضيتها مباشرة.

بهجة الوجود في أصفى صورها، الضجر من توالي الأيام دون أي تمييز. الاستغراقُ في النعمة يستحيل ضربًا من الضجر الوجودي. هذا الحبس ما كان يجب أن يصير سجنًا. فهنا يدينون لي بامتياز العُزلة ورفاهيّتها. أتكلم هنا بلسان بريء، لكن الصورة التي أستحضرها مثالًا لك هي ذروة جماع تمتد بك إلى الأبد – وحتمًا سيصيبك الضجر، حتى وأنت في ملكوت المتعة.

هذا كان إرثي من أسلافي، إلى أن أضمرت أمي السوء لأبي وتمنته ميتًا. والآن أعيش في قلب حكاية يتآكلني القلق حول مآلها. فأينكَ أيها الضجر وأينكِ أيتها المتعة؟

ينهض عمي عن طاولة المطبخ، وفي خطىً مترنحة يتجه صوب الحائط كي يطفئ الأنوار ويكشف الستار عن طلوع الفجر. لو كان أبي، لربما وجد اللحظة مواتية لإلقاء فجريّة. لكن لا هاجس في الأجواء سوى هاجس عمليّ واحد – قد أزف الوقت للنوم. ويا لها من عطيّة من السماء، أن كليهما ثمل حدّ امتناعه عن المضاجعة. تنهض ترودي، نترنح أنا وإياها. لو بيدي العودة إلى وضعي العمودي الطبيعي دقيقة، لشعرت بغثيان أقل. آه كم أفتقد أيام شقلبتي في محيطي الواسع.

مع قدم واحدة على الدرجة الأولى، تتريث كي تقدّر المسافة التي عليها تسلقها. السلم يعلو وينحدر، مثل سُلّم نحو القمر. أشعر بقبضتها المتشبّثة على الدرابزين كُرمى لسلامتي. ما زلت أحبها، وكم أود الإفصاح عن حبي لها، لكن إن وقعت على ظهرها، سأموت. نطلع درجات السلالم مع تقهقر للوراء. كلود يتقدمنا معظم الوقت. كان يجدر بنا أن نوثق بحبل. القبضة على الدرابزين تشتد، أماه! جهد عظيم ولا أحد يتكلم. بعد دقائق عدّة، بعد تأوّهات وتنهدات كثيرة، نصل منبسط السّلّم نحو

الطابق الثاني، وبقية الطريق، الخطوات الاثنتي عشرة القادمة، وإن كانت على أرض مستوية، فهي الأخرى شاقة.

تجلس على جانبها من السرير كي تخلع الصندل عن قدميها، تنقلب على جنبها وصندلها في يدها، وتغرق في النوم. يهزها كلود ويوقظها. معًا يتلمسان طريقهما نحو الحمام، في الجوارير الفوضوية، بحثًا عن قرصيْ بندول لكل منهما، كي يخفّفان من أعراض الثمالة.

كلود يشير قائلًا: "غدًا يوم حافل."

وبالغد يعني اليوم. من المتوقّع حضور أبي الساعة العاشرة، والساعة الآن ناهزت السادسة. أخيرًا، نخلد جميعًا إلى الفراش. أمي تتذمر من أن العالم، عالمها، يلف في دوامة سريعة حول نفسه كلما أغلقت عينيها. ظننت كلود سيكون أكثر رواقيّةً، بما أنه، كما يدّعي، صاحب جسد أقوى. ليس كذلك على الإطلاق. في ظرف دقائق يندفع نحو الحمام ويركع على ركبتيه حاضنًا المرحاض.

"ارفع المقعد." تصيح به ترودي.

صمت، من ثم بهل، في موج متقطّع ومستحق. إلا أن صوته عال. كل صيحة تنقطع فجأة، مثل مشجع كرة قدم سدد له أحدهم طعنةً في ظهره في غمرة إنشاده.

مع دنو الساعة السابعة ينامان. أما أنا فلا. أفكاري هي الأخرى عالقة في دوّامة أمي ذاتها. رفض أبي لي. مصيره المحتمل، مسؤوليتي اتجاه مصيره، من ثم مصيري أنا، عجزي عن التحذير أو الإتيان بأي تصرف. ورفيقاي في الفراش. هل يا تراهما معطوبان حد عجزهما عن تنفيذ مأربهما؟ أو الأسوأ، ينفذانه بشكل سيئ، تلتقطهما الشرطة وتلقي بهما في غياهب السجن. وإذ شبح السجن الذي طاردني مؤخرًا يمسك بي.

أن أستهل حياتي في زنزانة، حيث النعمة ستغدو مجهولةً لي، والضجر امتياز أحارب لأجله. وإن نجحا – فمصيري سيؤول إلى وادي سوات. لا أرى أمامي طريقًا ولا سبيلًا محتملًا إلى أي نهاية مُرضية. رباه! أتمنى ألّا أولد أبدا ...

***

أوغلتُ في النوم. أستيقظ على وقع زعيق مع هزهزة عنيفة متذبذبة. هي أمي على **جدار الموت**. لا، ليس ذاك. أو على الأقل ليس ذاك الضرب من الموت. تلك أمي تهبط درجات السلالم مندفعةً على عجل، يدها الطائشة بالكاد تمسك الدرابزين. وها هي نهاية محتملة، قضيب متخلخل، ثنية طرف سجاد بال، تهوي رأسًا للأمام، ومن بعدها تتيه مأساتي الشخصية في ظلام سرمدي. لا شيء بيدي أتشبث به سوى الأمل. الزعيق مصدره عمي. وها هو ينادي عليها من جديد.

"خرجت كي آتي بالشراب. أمامنا عشرون دقيقة. أنت أعدّي القهوة. وسأتولى أنا الباقي."

خططه الواهية التي حبكها بخصوص ارتكاب الجريمة في **شورديتش** قد طارت في مهب الريح أمام تلهف أمي على العجلة. فجون كيرنكروس لم يعد عاشقها المتيم. هو ينوي طردها، عاجلًا لا آجلًا. ولا بد لها أن تتصرف اليوم. لا وقت لديها تضيعه في جدل ضفائرها. فقد استضافت عشيقة زوجها – هجرها هو قبل أن يتسنى لها هي هجره، كما يقولون في برامج **حلالة المشاكل** التي تُعرض بعد الظهيرة. (تلك المشاكل التي يتصل بشأنها المراهقون تترك أفلاطون وكانط في حيرة من أمرهما.) غضب ترودي كما المحيط - شاسع وعميق، بات القوة المحركة فيها، ذاتها المتجسدة. أعرف ذلك من التبدل في دمها

الساري في عروقي، في الانزعاج الذي يخزني حيث خلاياي مضغوطة ومضطربة، حيث اللويحات تتشقّق وتتشظّى. قلبي يصارع للنجاة أمام غضب أمي الجارف.

وها نحن نصل سالمَيْن الطابق الأرضي، يغمرني طنين الذباب الصباحي يجوب سائحًا بين أكياس القمامة المتناثرة في الردهة. من منظورهم، تلك الأكياس البلاستيكية المفتوحة ترتفع كما ناطحات السحاب السكنيّة المتلألئة بحدائق سطوحها الغناء. يقصدها الذباب كي يرعى ويتقيأ على راحته. حالة الكسل المتخمة التي يعيشونها تشجع على خلق مجتمع مرفّه خالي البال، يعتمد على ثروة مشتركة، وعلى التسامح المتبادل. هذا الطاقم النّعِس اللافقاري متصالح مع عالمه، يعشق حياة الرفاهية بكل عفنها. أما نحن، الفصيلة الأدنى، فمسكونون بهاجس الذعر والتنازع الأبدي. مهتاجون على الدوام، مندفعون بسرعة تتجاوز كل الحدود.

يد ترودي التي تتلمس الدرابزين تقبض الآن على القائم ونتأرجح في دورة سريعة. عشر خطوات ونصل رأس سلم المطبخ. لا درابزين هناك يقودنا للأسفل. فقد وقع، كما سمعت، وهوى في كومة غبار ومكانس، كان هذا قبل قدومي، إن كان سيكتب لي قدوم. واليوم لم يتبقَّ منه سوى ثقوب مشتتة هنا وهناك. درجات السلم من خشب البلوط وغير مكسوة بالسجاد، مع بقع زلقة ودهنية، طلس من البقع المنسكبة المنسية، قطع لحم وشحم مداسة بالأقدام، الزبدة الذائبة المنزلقة عن صفحة الخبز المحمص الذي اعتاد أبي حمله إلى المكتبة دون طبق. وها هي كَرّةً أخرى، تهرع مندفعةً على السلم، وقد تكون هذه هي النهاية، الانطلاق الرأسي أرضًا. ما كاد هذا الهاجس يتجلى في جملة مخاوفي وإذ

بي أشعر بانزلاق قدم للخلف، انحناء للأمام، حافز للطيران، عارَضَه فورًا انقباض مذعور لعضلات ظهرها السفلية، ومن خلف كتفيّ أسمع صوت ليّ الأوتار، تشد وتختبر رسوَّها على العظام.

"ظهري، ظهري اللعين." تتذمر مدمدمة.

إلا أن الأمر يستحق الألم، فها هي تهدّئ عجَلتها وتكمل طريقها على مهل. كلود، يداه مشغولتان عند مغسلة المطبخ، يتريث هنيهة كي يظهر دعمه لها في صوت متعاطف، من ثم يعود ويكمل مهامه. فالوقت لا ينتظر أحدًا، مقولة من مقولاته المبتذلة.

تقف الآن إلى جانبه. "رأسي،" تهمس له.

"وأنا كذلك." من ثم يريها. "أظنه السموذي المفضل لديه. الموز، الأناناس، التفاح، النعناع، وبذرة القمح."

"الفجر الاستوائي؟"

"هو ذا. وها هو المكوّن السرّي. يكفي لهمد عشرة أثوار."

"ثيران."

يصب السائلين في الخلاط ويديره.

ما إن يخمد الضجيج تقول، "ضعه في البراد. سأعد القهوة. وخبئ تلك الأكواب الورقية. إياك أن تلمسها دون قفازيك."

نحن عند ماكينة إعداد القهوة. عثرَت على أوراق المصفاة، تغرف البن، وتضيفه للماء. الأمور تجري على ما يرام.

"اغسل بعض الأكواب،" تناديه. "ورتبها على الطاولة. جهز الأغراض لوضعها في السيارة. قفازا جون في البيت الخارجي. انفض الغبار عنهما. وهناك كيس بلاستيكي في مكان ما."

"حسن، حسن." بما أنه نهض عن الفراش أبكر منها بكثير، فكلود

يبدو نزقًا أمام استلامها زمام الأمور. كم يشق عليّ متابعة تبادلهما الحديث.

"كشف الحساب والغرض ها هما على الطاولة."

"أدري."

"لا تنسَ الوصل."

"لن أنسى."

"جعّده قليلًا."

"قد فعلت."

"بقفازيك لا قفازيه."

"أدري!"

"هل ارتديت القبعة في شارع جد؟"

"بالطبع."

"ضعها حيث يراها."

"قد فعلت!"

لكنه عند المغسلة، يشطف البقع المتكلسة عن الأكواب، ينفذ أوامرها حرفيًا. منيعةً أمام نبرته النزقة تردف، "علينا أن نرتب المكان."

أسمعه ينخر. يا لها من فكرة يائسة. الزوجة الصالحة ترودي تود استقبال زوجها في مطبخ نظيف.

لكن بالتأكيد، أيًا يكن ما يدبّرانه، فلن ينجح. فإيلودي على علم بزيارة أبي المتوقعة إلى هنا. ولربما نصف درزن من أصدقائه هم على علم أيضًا. لندن، من شمالها إلى شرقها، ستوجه أصابع الاتهام من فوق الجثة. تأملوا هذا الجنون الثنائي الجميل[35]. هل لأمي، من لم تشغل

(35) Folie à deux: متلازمة نفسية يتشارك فيها أكثر من شخص الهلوسة والوهم ذاته.

قط وظيفةً في حياتها، أن تطلق مسيرتها المهنية بوصفها مجرمة؟ مهنة شاقة، ليست شاقة وحسب في التخطيط والتنفيذ، بل في العواقب، حيث ستنطلق فعلًا مسيرتها المهنية. أود أن أقول لها، خذي بعين الاعتبار، قبل أن تأخذي حتى الأخلاق بالاعتبار، كل الإزعاج الذي ستعيشينه: السجن، أو الإحساس بالذنب، أو كليهما، ساعات طويلة، على مدِّ نهايات الأسبوع، كل يوم وكل ليلة، على مدى حياتك. لا راتب، لا مزايا، ولا معاشًا تقاعديًّا سوى الندم. خطأ فادح.

إلّا أنّ العاشقين عالقان في دوّامة جنونهما، كما حال كل العشاق.

انشغالهما في ترتيب المطبخ يحافظ على اتزانهما. يزيلان عن الطاولة مخلفات الليلة الماضية، يكنسان بقايا الطعام عن الأرض أو يزيحانها جانبًا، من ثم يبتلعان المزيد من المسكنات والقهوة. هذا كل الفطور الذي حظيت به اليوم. يتفقان على ألا جدوى من تنظيف النضد حول المغسلة. أمي تتمتم أوامرها، أو إرشاداتها. كلود يظل على ردوده الموجزة. مع كل أمر تلقيه أسمعه يقاطعها. لعله بدأ يتردد اتجاه تنفيذ الأمر.

"نحن مبتهجان، فهمت؟ وكأنما تفكّرنا بما قاله الليلة الماضية وقررنا –"

"حسن."

بعد دقائق من الصمت: "لا تتعجل في عرضك عليه. نحتاج إلى –"

"لن أتعجل."

من ثم مرةً أخرى: "كأسان فارغان كي نبدو وكأنما سبق أن احتسينا. وكوب **جنة العصائر** - "

"كلها على الطاولة خلفك."

على وقع كلمته الأخيرة نجفل على صوت أبي من أعلى سلم المطبخ. بالطبع، فقد بات يملك مفتاحه. والآن هو في البيت.

ينادي علينا من الأعلى. "سأنزل حاجياتي من السيارة. من ثم سآتي وأنضم إليكما."

نبرة صوته فظة، واثقة ورجولية. يبدو أن الحب السماويّ قد حرره من برجه العاجي وصيّره رجلًا دنيويًّا.

كلود يهمس، "ما العمل إن أقفلها؟"

أنا قريب من قلب أمي وأحفظ عن ظهر قلبي وقع نبضه وتقلباته المفاجئة. والآن! خفقه يتسارع على صوت زوجها، وهناك صوت آخر، صوت اضطراب في حجيرات القلب، يشبه صوت الخشخاشة من بعيد، أو صوت قرقعة الحصى في علبة صفيح. من مكاني في الأسفل أزعم أن الصوت صادر عن طرفيْ الصمام الهلالي يطبقان فجأة ويلتصقان. أو لعله صادر عن أسنانها.

أما في نظر العالم فأمي تبدو وكأنما تعتريها السكينة. لا تزال الآمرة الناهية، سيدة صوتها، صوتها الموزون الذي لا يحط من قدر نفسه إلى مستوى الهمس خوفًا.

"هو شاعر. أبدًا لا يقفل سيارته. متى ما أعطيتك الإشارة، توجه إليها حاملًا الأغراض."

الفصل التاسع

أبي العزيز،

قبل موتك، أمهلني دقيقة من وقتك، هناك أمر أود أن أحادثك فيه. لا وقت كاف أمامنا، وما بين أيدينا أقل مما تظن بكثير، لذا سامحني إن دخلت مباشرةً في الموضوع. أريد أن أنعش ذاكرتك. هناك صباح قضيناه في مكتبتك، يوم أحد صيفي، ماطر على غير العادة، ولا غبار عالق في الهواء. النوافذ كانت مفتوحة، دقدقة المطر على أوراق الشجر تشنف الآذان. أنت وأمي كنتما أشبه بزوجين سعيدين. ويومها تلوت قصيدة، بلغت روعتها حدَّ أنني لا أراها من نظمك، وأظنك ستكون أول من يقر بذلك. موجزة، ثرية المعنى، مريرة حدَّ الاستسلام، وعصيَّة على الفهم. ذاك الضرب من القصائد التي تصفعك، تؤلمك، حتى قبل فهمك مكنونها. هي موجهة إلى القارئ العابث، اللامبالي، المعشوق الضائع، أي، كما أرى، إلى شخص حقيقي. في أربعة عشر سطرًا تتكلم عن التعلق اليائس، الاستغراق البائس، عن تَوْقٍ عَطِش وغير متبادل. تستحضر ندًّا، جبارًا في موهبته أو مرتبته الاجتماعية أو الاثنين معًا، وتذعن أمامه في فناء ذاتي. في النهاية، الوقت سيأخذ بثأر الشاعر، لكن حتى آنذاك لا أحد سيكترث ولا حتى سيتذكر، إلا إن وقعت أعينهم صدفةً على هذه

الأبيات الأربعة عشرة[36].

أتصوّر أنّ الشخص الذي تتوجّه إليه هذه القصيدة ما هو إلا العالَم الذي سألتقي به. ومنذ الآن أنا مغرم مفتون به. لا أدري ما سيصنع العالم بي، إن كان سيرعاني أو حتى يلاحظ وجودي. من حيث أنا، يتراءى لي هذا العالم قاسي القلب، يلهو بالقدر، يعبث بحياة الناس. نشرات الأخبار وحشية، عصية على التصديق، كابوس طويل لا يسعنا الاستيقاظ منه. أستمع إلى النشرات مع أمي ذاهلًا، غارقًا في الكآبة. فتيات مراهقات مستعبدات، صرن طرائد للرق والاغتصاب. يصنعون من المواسير قنابل متفجرة في المدن، ومن الأطفال قنابل موقوتة في الأسواق. سمعنا خبرًا من النمسا عن شاحنة نقل مقفلة وجدوها على قارعة الطريق مع واحد وسبعين مهاجرًا تركوا فيها أسرى للذعر، للاختناق، والتعفن. الشجاع فينا وحسب يجرؤ على إيفاد رسول خياله والوقوف شاهدًا على تلك اللحظات الأخيرة. هذا عصر جديد. ولعلّه عصر قديم. لكن إلى جانب ذلك، فالقصيدة تجعلني أفكر بك وبخطابك الذي ألقيته ليلة البارحة وكيف أنك لن ترضى أو لن تستطيع مبادلة حبي لك. من حيث أنا، أراك وأمي والعالم بأسره كيانًا واحدًا. أدري، إطناب لا داعي له. وعلى كلٍّ فالعالم غني كذلك بالعجائب، ولهذا فأنا مغرم متيم به. كما أني أحبكما وأبجلكما. أي، ما أحاول قوله، هو أني أخشى الصدَّ منكما.

لذا اتلُ القصيدة مرّةً أخرى كُرمى لي، ألقها على مسامعي بأنفاسك التي تنازع الموت وسألقيها بدوري عليك. دعها تكنْ آخر ما تسمع. وحينذاك ستدرك ما أعنيه. أو خذ الطريق الأهون، وعش بدل أن

(36) القصيدة هي حتمًا سونيتة من سونيتات شكسبير التي يبلغ عددها 154 سونيتة، لكن هنا يترك الروائي إيان مكيوان المجال للقارئ تخمين أي سونيتة يعنيها الجنين بناءً على وصفه لها.

تموت، تَقَبّلْني، احضني بين ذراعيك، اعترف بي ابنًا من صلبك. وفي المقابل سأنصحك هذه النصيحة الصغيرة. إياك أن تنزل درجات السلم. ألْقِ وداعًا عرضيًّا من الأعلى، اركب سيارتك وامضِ. أو إن كان من ضرورة لنزولك، فردَّ عصير الفاكهة، ابق فقط بما يكفي للوداع. سأشرح لك لاحقًا. إلى وقتئذ، أظل ابنك البار ...

نحن جالسون إلى طاولة المطبخ، نصغي في صمت إلى وقع خبطات أبي المتقطعة في الأعلى يحضر صناديق كتبه ويتركها في حجرة الجلوس. القتلة قبل ارتكابهم الجريمة يجدون في الأحاديث الجانبية عبئًا ثقيلًا. فم جاف، نبض واه، أفكار متخبطة في دوامتها. حتى كلود مرتبك. هو وترودي يشربان مزيدًا من القهوة. مع كل جرعة يتجرعانها يضعان كوبيهما جانبًا دون إصدار أي صوت. لا يستخدمان صحونًا واقية. هناك ساعة حائط لم ألاحظها من قبل، تكة عقاربها تماثل تفعيلة يامب شعرية. من على مرِّ الشارع، يتناهى إلى مسامعنا موسيقى بوب تدنو وتبتعد صادرة عن شاحنة توصيل، أشبه **بتأثير دوبلر**، الفرقة الكئيبة ترفع وتخفض الطبقة بمقدار نغمة صغيرة ومع ذلك يظل النفير محافظًا على موجته اللاسلكية. الموسيقى تحمل لي رسالة، لكنها بعيدة عن متناولي. المسكنات بدأت تأخذ مفعولها، أراحتني من الألم وفي المقابل منحتني صفاء الذهن في ظروفٍ الخدَر فيها هو الأنسب. قد راجعا خطتهما مرتين وكل شيء يبدو في محله. الأكواب، السم، "الغرض"، وشيء ما من البنك، القبعة وزوج القفازات والوصل، الكيس البلاستيكي. كلها تربكني. كان يجدر بي الإصغاء ليلة البارحة. والآن لن أعرف إن كانت الأمور تسير كما مخطط لها أم توشك على الانهيار.

"لم لا أذهب وأمد له يد المساعدة،" يفتح كلود فمه أخيرًا. "فاليد تغسل الأخرى والاثنتان ..."

"حسن، حسن، على مهلك." أمي لا تطيق الاستماع إلى بقية المثل. هي وأنا يجمعنا الكثير.

نسمع الباب الأمامي يغلق، ثوان وخبط زوج الحذاء ذاته – قديم الطراز ذي الكعب الجلدي – يتردّد عبر درجات السلم كما سمعناه ليلة البارحة حين نزل أبي برفقة عشيقته، وقرّر مصيره بيده. أسمعه يصفر لحنًا مبهمًا بينما ينزل، أقرب إلى شونبرغ منه إلى شوبرت، صفير يوحي بالارتياح ولا يجسده. إذن هو متوتر، رغم خطاب اللوردات الجيّاش الذي ألقاه علينا. فليس بالأمر الهيّن طرد أخيك والمرأة التي تكره وتحمل في أحشائها طفلك خارج بيت طفولتك الذي تحب. وهأنذا مرةً أخرى، ألصق أذني بالجدار اللزج. لا همسة ولا سكتة ولا كلمة مبلوعة ستفوتني.

عائلتي الرعويّة تستغني عن لباقة تبادل التحيات.

"كنت آمل رؤية حقيبة أمتعتك عند الباب." يقولها مازحًا، وكما العادة، يتجاهل أخاه.

"لا أمل،" ترد عليه أمي في مكر هادئ. "اجلس واشرب قهوتك."

يجلس. صوت صب القهوة، قعقعة ملعقة الشاي.

والآن يأتي الدور على أبي. "المقاول قادم إلى هنا كي يزيل الفوضى المروعة في الردهة."

"ليست بفوضى. هي تصريح."

"عن ماذا؟"

"الاحتجاج."

"آه حقا؟"

"على إهمالك."

"آها!"

"إهمالك لي. ولطفلنا."

لربما كلامها هذا نابع من هدفها النبيل في إضفاء الواقعية على خديعتها. فالاستقبال المعسول كان سيثير فيه الشك. أما لعبها على وتر واجبه الأبوي – برافو أمي!

"سيأتي هنا في تمام الثانية عشرة. مكافحة الحشرات أيضًا في طريقهم. سيرشون البيت بالمبيد."

"لا لن يفعلوا، ليس ونحن هنا."

"الأمر يعود إليك. سيبدؤون الرش الظهر."

"عليهم الانتظار شهرًا أو اثنين."

"لقد دفعت لهم ضعف الأجرة كي يتجاهلوكِ. ولديهم نسخة من المفتاح."

"أوه،" تقول ترودي في نبرة ندم صادقة. "آسفة أنك أهدرت مبلغًا كبيرًا من المال. وأي مال، مال الشاعر."

كلود يقفز مقاطعًا بسرعة، أسرع من رغبة ترودي. "قد أعددت عصير..."

"عزيزي، صب لنا مزيدًا من القهوة، فكلنا في حاجة إليها."

الرجل الذي يُخضع أمي لسطوته ويطمس إرادتها بين الملاءات ها هو الآن طوع أمرها كما الكلب المطيع. الجنس، كما بدأت أستوعبه، مملكة على قمّة جبل ناء، مملكة سرية ومحصنة. وهنا أسفل الوادي لا نفقه شيئًا عنه سوى ما يصلنا من إشاعات.

وبينما يقف كلود محدودب الظهر فوق ماكينة القهوة في الزاوية البعيدة من المطبخ، تحادث أمي زوجها في نبرة لطيفة، "طالما نتكلم عن المال، فقد وصلني أن أخاك كان طيبًا جدًا معك. خمسة آلاف جنيه! يا لك من ولد محظوظ. هل كلفت نفسك عناء شكره؟"

"سيسترد ماله، إن كان هذا ما تعنينه."

"كما استرد المبالغ السابقة؟"

"سيستردها كلها."

"يزعجني اضطرارك إلى إنفاق كل هذا المال على مكافحة الحشرات."

يضحك أبي ضحكةً مبتهجة من القلب. "ترودي! أكاد أتذكر السبب الذي وقعت لأجله في غرامك. بالمناسبة، تبدين جميلة."

"يعوزني قليل من الترتيب. لكن شكرًا لك." وفي أداء مسرحي، تخفض صوتها وكأنما تقصي كلود عن حديثهما. "بعد مغادرتك البارحة احتفلنا. طوال الليل."

"تحتفلين بطردك."

"لك أن تقول هذا."

نميل للأمام، أنا وهي، قدماي أولًا، وأخمن أنها وضعت يدها على يده. بات أدنى الآن إلى الفوضى الشهية لضفيرتيها، عيناها الخضراوان الواسعتان، بشرتها الزهريّة المثالية الفواحة بعبق العطر الذي اشتراه لها منذ زمن بعيد من السوق الحرة في **دبروفنك**. يا لها من بارعة في التخطيط المسبق.

"احتسينا كأسًا أو اثنتين وتكلمنا. وقد قررنا أنك محق. فقد حانت لحظة الافتراق وعلى كلٍّ منا سلك طريقه في الحياة. بيت كلود لطيف

وسانت جونز وود تعتبر مكبًّا مقارنة ببريمروس هيل. كما أني سعيدة جدًا بخصوص صديقتك الجديدة. ثرينودي."

"إيلودي. هي امرأة فاتنة. خضنا نقاشًا حادًّا لدى وصولنا البيت ليلة البارحة."

"لكنكما البارحة بدوتما سعيدين معًا." ألاحظ ارتفاع نبرة أمي.

" ترى أني لا أزال واقعًا في هواك."

هذه أيضًا تؤثر في ترودي. "لكنك قلتها بنفسك البارحة. نحن نكره بعضنا كره الموت."

"وهذه هي الحقيقة. لكنها ترى في تصرفاتي توكيدًا مبالغًا فيه."

"جون! هل عليّ الاتصال بها؟ أعلمها بالكره الشديد الذي أحمله في قلبي اتجاهك؟"

ضحكته تبدو غير واثقة. "كأني أراك تلقين بي في التهلكة!"

وهأنذا أعود وأتذكر مهمتي: الواجب المقدس، المتخيَّل، لطفل أبوين منفصلين، في إعادة جمع وصالهما من جديد. التهلكة. لا ينطق بها إلا شاعر. عتيقة وملعونة. يا لي من أحمق إذ تركت للأمل فيَّ أن يرتفع نقطة أو نقطتين، مثل سوق العقود الآجلة عقب اضطراب وعشية الاضطراب الذي يليه. كل ما يفعله أبواي هو اللهو، كلّ يدغدغ الأوتار الحساسة لدى الآخر. إيلودي مخطئة. التراشق بين الزوجين لا يعدو كونه درع السخرية اللاذعة للطرفين.

وها هو كلود يقبل علينا حاملًا صينية، أثر من التجهم والبلادة في عرضه.

"المزيد من القهوة؟"

"بحق السماء، لا،" يقول أبي في نبرة النبذ المحضة التي يحتفظ بها

لأخيه.

"إن أردت فلدينا –"

"عزيزي، سأحظى بكوب قهوة آخر، كوب كبير."

"فأخوك، " تقول أمي لعمي، "في وجار الكلب[37] مع ثرينودي."

"إيلودي وليس ثرينودي،" يعرّف أبي المصطلح لها في اهتمام مبالغ فيه، "فثرينودي ترنيمة جنائزية، أغنية للموتى."

"مثل، *"Candle In The Wind"*، " يقول كلود كمن بعث إلى الحياة من جديد.

"بحق السماء."

"على كلٍّ،" تقول ترودي متراجعةً خطوات إلى الوراء في حديثهما. "هذا بيت الزوجية. سأنتقل من هنا متى ما كنت مستعدة ولا أمل لك أن أكون مستعدة هذا الأسبوع."

"بحقّك. أنتِ تعين أن مسألة مكافحة الحشرات ما هي إلا خدعة أغيظك بها. لكن لا مجال للإنكار. ألا ترين أنَّ البيت قد بات مكب نفاية نتن."

"اضغط عليّ أكثر جون. ولربما أقرر البقاء. أراك في المحكمة."

"عُلِم. لكن لن تمانعي إن أزلنا أكوام القمامة في الردهة."

"أمانع قليلًا." وبعد لحظة تفكّر، تومئ موافقة.

أسمع كلود يلتقط الكيس البلاستيكي. بهجته ما كانت لتفوت طفلًا غبيّ. "إن أذنتما لي. لدي عمل أقوم به. فلا لحظة راحة لإبليس!"

(37) Be in the doghouse: استعارة تشير إلى وجود شخص في محل نقمة لدى الآخر.

الفصل العاشر

عرفتُ وقتًا فيما مضى، كانت فيه جُمَل كلود الختامية لدى مغادرته خشبة المسرح ترسم ابتسامةً على شفتيّ. لكن مؤخرًا، ولا تسألني عن السبب، ما عاد مزاجي يستسيغ الكوميديا، أعرضت عن ممارسة التمارين، حتى وإن حظيت بمساحة كافية، لا النار ولا الأرض عادتا تثيران فيّ البهجة، لا الكلمات التي كشفت لي قُبّةً مرصعة من النجوم العظيمة، لا ولا الجمال الساحر في تأمل معنى قصيدة، ولا حتى التمتع بأعجوبة المنطق اللانهائية. تلك الأحاديث المثيرة للإعجاب على المذياع ونشرات الأخبار، برامج البودكاست العبقرية التي مسّتني في الصميم، تبدو لي الآن – في أحسن أحوالها – أبخرة هراء كريهة، وفي أسوئها تبجُّحًا خبيث. هذا النظام الدولي العظيم الذي سأنضم إليه عما قريب، هذه الطائفة النبيلة من البشرية، عاداتها وتقاليدها، آلهتها وملائكتها، أفكارها المتقدة وثوراتها المذهلة، ما عاد أي شيء منها يثير حماستي. هناك وقر[38] تنوء به ظلتي التي تلتحف كياني الضئيل. بالكاد هناك مني ما يكفي كي أكون حيوانًا صغير، وأقل من القليل اللازم كي أبعث برسالة عاجلة إلى رجل قريب. يخالجني نزوع إلى أن أولد ميتًا

(38) وقر: الحمل الثقيل.

جَدُوبا، هباءً من تراب إلى تراب.

هذه الخواطر المحبطة، هذا الدفق من الغلواء، والتي أتوق إلى نظمها في عظة جليلة متى ما استفردت بنفسي في مكان ما، تعود وتقهرني مع اختفاء كلود في الأعلى وجلوس والديّ صامتيْن. نسمع الباب الأمامي يفتح ويغلق. أبذل قصارى جهدي محاولًا التقاط صوت كلود يفتح باب سيارة أخيه، لكن لا فائدة. ترودي تميل للأمام مرةً أخرى وجون يتناول يدها. ارتفاع واه في ضغط دمنا يوحي بضمة من أصابع يده الموبوءة على راحة كفها. تنطق اسمه همسًا، في نبرة عتاب المحب. لا يقول شيئًا، لكني أرجم بالغيب وأقول إنه يهز رأسه، يضم شفتيه في شبه ابتسامة، وكأنما لسان حاله يقول عجبًا، انظري إلى ما آل إليه حالنا.

تقول له في نبرة حنون، "كنت محقًا، هي النهاية. لكن بيدنا أن نفترق بالحسنى."

"أجل، خير لكلينا أن نفعل،" يوافقها أبي في صوته العذب الرخيم. "لكن ترودي. كرمى للأيام الخوالي. هل لي أن أتلو عليك قصيدة؟"

هزة رأسها الطفولية الحازمة تؤرجح برفق وضعية جلوسي، لكني موقن مثلما هي الأخرى موقنة، أن في عرف جون كيرنكروس، لا في الشعر تؤوَّل نعم.

"أرجوك جون، بحق السماء لا تفعل."

لكن ها قد أخذ نفسًا عميقًا. كنت قد سمعت القصيدة قبلًا، لكن وقتذاك عنت أقل بكثير مما تعنيه الآن.

"طالما الأمر ليس بيدنا، فلنفترق على قبلة ..."

أقول في نفسي لا داعي له كي يتفوه بعبارات معينة بكل هذا التلذذ. "لن تريْ مني لمحة"، "بقلب صاف أفك نفسي حرًّا"، ولا "ذرة من حبٍّ

قديم ستبقى." وفي النهاية، حين يستلقي **الهوى** على فراش موته، يلفظ نفسه الأخير، وهناك فرصة ضد كل الاحتمالات أن تبعث فيه الحياة من جديد لو فقط ترودي تبدي رغبتها، يرمي أبي بهذه الفرصة في مهب الريح بإلقائه القصيدة في تلك النبرة المتذاكية الساخرة[39].

على كلٍّ لا رغبة هناك تراود ترودي، إذ تعقب على البيت الأخير قائلة، "حتى يأتي اليوم الذي ألفظ فيه نفسي الأخير فلا أريد سماع قصيدة أخرى."

"اطمئني لن تسمعي،" يجيبها أبي في نبرة دمثة. " ليس وأنت مع كلود."

في هذا الحديث الناضج الواعي بين الطرفين، لا أجد نصيبًا لي. لو أنّه رجل آخر لثارت فيه الشكوك لانكفاء زوجته عن مفاوضته على النفقة الشهرية التي هي من حق أم الطفل. أي امرأة، لو لم يكن في جعبتها خطط أخرى، لأقامت الدنيا مطالبةً بحقها. لكني بالغ كفاية لتحمل مسؤوليتي عن نفسي واعتلاء السيادة على مصيري. مثلي مثل **القط ذي الجزمة**، أحتفظ في جيبي بقصاصة سرية تعولني وقت الشدة، كسرة صغيرة من حَوْل وقوة. ما أنفك ألجأ إليها بواكير الصباح كي أتسبب بالأرق وأستجلب قوت الاستماع إلى برنامج إذاعي. رفستان اثنتان على الجدار، دقيقتا التصويب، أستخدم فيهما كعبي عوضًا عن أصابع قدمي شبه الطرية. أركل وكأني أبعث بنبضة وحيدة تواقة، توق يوجعني إلى سماع أحدهما يشير إليّ.

---

(39) Since there's no help, come let us kiss and part: سونيتة تعود إلى الشاعر الإنجليزي مايكل درايتون أحد شعراء العصر الإليزابيثيّ. السونيتة تتبع النظم الشكسبيريّ وفيها يعدد المتحدث مظاهر عزمه الوطيد على فراقه النهائي عن الحبيب، لكن مع الختام، مع وجود الهوى ينازع النفس الأخير، الإيمان جاثمًا على الفراش، والبراءة توشك على إغلاق عيني الهوى لحظة الممات، يكسر المتحدث نمط قصيدته مع السطر الأخير ويومض بصيصًا من أمل، قائلًا لمحبوبته أن يبدها، بكلمة واحدة منها، أن تبعث في حبهما الحياة من جديد.

"آه،" تتنهد أمي. "الجنين يرفس."

"عليّ أن أغادر الآن، "يتمتم أبي. "إذن فلنقل فترة أسبوعين للانتقال من هنا؟"

ألوّح له، فما ركلتي سوى تلويح من بعيد، وما الذي أحصل عليه في المقابل؟ إذن، لذلك، على كلٍّ، وهكذا – وها هو الآن يغادر.

"شهران لا أقل. لكن امكث دقيقة حتى عودة كلود."

"فقط إن عاد بسرعة."

طائرة تعلو رؤوسنا بآلاف الأقدام تهبط في منحنٍ منزلق باتجاه هيثرو، لطالما سمعته صوتًا يحمل النذير. لعل جون كيرنكروس يراجع نفسه ويلقي علينا قصيدة أخيرة. قد يخرج من جعبته، كما اعتاد أن يفعل قبل أن يشد الرحال للسفر، قصيدة **خطبة الوداع: ممنوع الحداد**[40]. فتلك الأبيات رباعية التفاعيل تسكّن وجع القلب، تلك النبرة الناضجة، المواسية، ستثير فيّ الحنين إلى الأيام الخوالي، أيام زياراته الحزينة. إلا أنه يستبدل القصيدة بنقر أصابعه على الطاولة، بالنحنحة، بالانتظار.

ترودي تكسر الصمت، "هذا الصباح شربنا سموذي من **شارع جد**. لكني أخشى أننا قد شربناه كله ولم نترك ما يكفي لك."

ومع هذه الكلمات، ها هي أخيرًا عجلة الجريمة تدور.

وفي صوت لا يحمل أي نبرة، يأتينا وكأنما من جانب خشبة مسرح، حيث تعرض مسرحية مريعة محتومة بالفشل، نسمعه يهتف من أعلى

---

(40) A Valediction Forbidding Mourning: قصيدة نظمها الشاعر الانجليزي جون دون (1572 – 1631(لدى وداعه زوجته قبل شده الرحال للسفر عبر قارة أوروبا. وفي هذه القصيدة يشبه الشاعر افتراق الحبيبين، وإن لأمد محدود، بالموت وافتراق الروح عن الجسد. ويطلب من محبوبته أن يفترقا في وداع صامت، وقور، دون عقاب ولا معاناة، في إجلال كما الحال مع الموت المحتوم.

السلم، "كلا، فقد احتفظت بكوب له. فهو من أخبرنا عن ذاك المتجر، ألا تذكرين؟"

يتحدث هابطًا السلم. يصعب عليّ التصديق بأن هذا الدخول الموقوت توقيتًا ممتازًا، تلك الكلمات الخرقاء، اللامعقولة، قد تمرن عليها سكيران ساعة الصباح.

الكوب الفلّيني بسدادته البلاستيكية مع الشّاروقة موجود في البراد، أسمع بابه يفتح ويغلق. كلود يضع الكوب على الطاولة قبالة أبي قائلًا في صوت أمومي لاهث، "هاك."

"شكرًا. لكن لا رغبة لي به."

وها هو الخطأ الأول. ما بالنا تركنا الأخ الخسيس يقدم الشراب لأخيه بدلًا عن زوجته المثيرة؟ الآن عليهما أن يستدرجاه في الكلام ويشغلانه بالأحاديث الجانبية ولنأمل أن يبدل رأيه. تركنا؟ نأمل؟ هكذا هو الحال إذن، المنوال الذي تسير عليه قصة كهذه، متى ما عرفنا الجريمة مذ كانت نطفة. لا يسعنا أن نمنع أنفسنا عن الوقوف في صف الجناة والتهليل لنجاح خططهم، نلوح لهم من جانب الرصيف بينما سفينتهم الصغيرة من النوايا السيئة تغادر الميناء وتمخر عباب البحر. رافقتكم السلامة! ليس أبدًا بالأمر الهين، بل إنجاز عظيم، قتل نفس والنجاة بنفسك دون أي عقاب. المصطلح الذي يجسد هذا النجاح هو **الجريمة المثالية**. إلا أن المثالية صفة نادرًا ما تكون إنسانية. على متن السفينة، أخطاء قد تقع، أحدهم قد يتعثر بحبل سائب، السفينة قد تنجرف أبعد مما ينبغي جنوبَ جنوبِ غرب. عمل شاق، وكله يجري في البحر.

كلود يسحب كرسيًا ويجلس إلى الطاولة، يسحب نفسًا لاهثًا،

ويلقي بورقته الناجحة. الحديث الجانبي. أو ما يعتبره هو حديثًا جانبيّ.

"المهاجرون، إيه؟ يا لهم من ثلة. يرمقوننا بعين الحسد من كاليه[41]! من الأدغال! حمدًا للرب على القنال الإنجليزي."

أي يضعف أمام إغراء الدخول في حديث كهذا. "آه، إنجلترا، حبيسة البحر العظيم، شواطئها الصخرية تتكسر عليها أمواج الحاسدين.[42]"

تلك الكلمات تحسن مزاجه. أظنني أسمعه يدني الكوب منه. من ثم يردف، "لكني أقول فلندعُ الجميع إلى شواطئنا. تخيل! مطعم أفغاني في **سانت جونز وود**."

"ومسجد،" يعقب كلود. "أو حتى ثلاثة. من ثم ضاربو الزوجات والمعتدون على البنات بالآلاف."

"هل أخبرتك يومًا عن مسجد **جوهرشاد** في إيران؟ رأيته مرةً ساعة الفجر. وقفت أمامه مذهولًا، دامعًا. لا يسعك تخيل الألوان، كلود. الكوبلت، الفيروزي، الباذنجاني، الزعفراني، مسحة من أفتح درجات اللون الأخضر، الأبيض الكريستالي، وكل ما بينها من ألوان الطيف."

لم يسبق لي أن سمعته ينادي أخاه باسمه. هناك زهو في نبرة صوته. يستعرض لأمي، يريها بالمقارنة الحية ما الذي ستضيعه من يدها. أو لعله يرفع نفسه عن التأملات الفاترة لأخيه، من يردف الآن

---

(41) كاليه: بلدة في شمال فرنسا حيث نصبت مخيمات اللاجئين في الفترة من يناير 2015 وحتى أكتوبر 2016، ولقبت بأدغال كاليه نسبةً إلى الأوضاع المزرية والانتهاكات التي تعرض لها اللاجئون، وهي كذلك البلدة من حيث حاول اللاجئون التسلل إلى المملكة المتحدة عبر القنال الإنجليزي إما في شاحنات النقل أو العبارات أو القطارات.

(42) England, bound in with the triumphant sea: اقتباس عن مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير على لسان جون دوق لانكستر، عم الملك ريتشارد الثالث ومستشاره، حين ألقى على الملك ريتشارد خطبته الشهيرة كي يحثه على وضع إنجلترا نصب عينيه لا مصالحه الشخصية، وفيها يبجل إنجلترا بوصفها موطن الملوك والنعم العظيمة والشعب العريق ما يجعلها عرضةً للغزو والحسد والأحقاد من قبل الشعوب والدول الأخرى الأقل حظًا.

قائلًا في نبرة تقبُّل حذر: "لم يخطر لي يومًا زيارة إيران. لكن شرم الشيخ، فندق البلازا. جميلة. كل تلك الزركشات. والجو غالبًا شديد الحرارة لقضاء النهار على الشاطئ."

"أتفق مع جون،" تقول أمي. "السوريون، الأريتيريون، العراقيون. حتى المقدونيون. نحن في حاجة إلى دمائهم الشابة. عزيزي، هلا أحضرت لي كأسًا من الماء؟"

وفي لحظة يقف كلود عند حوض المغسلة. من هناك يقول، "في حاجة؟ أنا لست في حاجة إلى أن يقطعني أحدهم بفأسه أشلاءً في منتصف الشارع. كما جرى في وولويتش[43]." يعود إلى الطاولة حاملًا كأسين. أحدهما لنفسه. أخالني أرى ما الذي ينويان.

يواصل حديثه، " لم تطأ قدماي المترو منذ أحداث السابع من يوليو."

في نبرة صوته التي يعتمدها أبي لدى تجاهله مداخلات أخيه، يقول، "كنت قد قرأت في مكان ما أنّه إن استمر التزاوج بين الأعراق على المنوال الحالي، فبعد خمسة آلاف عام سيحظى كلّ مَن على وجه الخليقة بلون البشرة ذاتها، لون القهوة الباهتة."

"سأشرب نخب هذا." تقول أمي.

"وأنا أيضًا، فلا اعتراض لدي." يعقب كلود.

"في صحة نهاية الأعراق،" يرفع أبي نخبه موافقًا. لكني لا أظنه رفع كوبه. بدلًا عن ذلك، ينتقل في الحديث إلى الأمور المُلحّة. "إن كنت لا تمانعين، فأنا وإيلودي سنأتي يوم الجمعة. تريد أن تقيس النوافذ لأجل

(43) Woolwich: إشارة إلى جريمة القتل الإرهابية التي تعرض لها جندي بريطاني بعد ظهيرة الثاني والعشرين من مايو عام 2013 أثناء عودته مشيًا إلى الثكنة حيث دهسه بريطانيان من أصل نيجيري من ثم انهالا عليه طعناً حتى الموت في وسط الشارع على مرأىً من الناس. وصرّحا أن جريمتهما هي انتقام لمقتل المسلمين على يد الجيش البريطاني.

الستائر."

أتخيّل مَتْبَنًا، من حيث تُلقى خيشة قمح تزن مئة كيلو على أرض الهرْي[44]، من ثم كيس آخر، وآخر. كذا أسمع ضربات قلب أمي.

"لا بأس، بالطبع." تجيبه في نبرة صوتها العقلاني. "وقد ندعوكما إلى الغداء."

"شكرًا، لكن سيكون يومنا حافلًا. والآن عليّ أن أغادر. فأمامي أزمة سير خانقة."

صوت كشط كرسي – وكم كان الصّوت مدويًّا عندي هنا، فرغم البلاط الزلق، يتناهى الصوت إليّ مثل نباح كلب. جون كيرنكروس يقف على قدميه. يعود ويتقمص نبرته الودية الفاترة. "ترودي، لقد كان – "

إلا أنها هي الأخرى سرعان ما تنهض وتفكر بعجل. أشعر بها في كل عصب، في كل طية من طيّات ثرْبها المتيبسة[45]. تملك في يدها حيلة أخيرة وكل الأمور تعتمد على تنفيذها بسلاسة. تقاطع كلامه بدفق من الحديث الصادق. "جون، قبل أن ترحل أود أن أقول لك هذا. أعرف أني أحيانًا قد أغدو امرأة صعبة المراس، وحقيرةً حتى. أكثر من نصف اللوم على ما آلت إليه حياتنا يقع على عاتقي. أعرف ذلك جيدًا. وأنا آسفة أن صيّرتُ البيت مكب قمامة. لكن ما قلته ليلة البارحة. بخصوص **دبروفنك**."

"آه، أجل." يقر أبي. "**دبروفنك**." لكن قد بدأ يشد الخطى ويبتعد.

"ما قلته كان صحيحًا. فقد استحضرت تلك الأيام التي عشناها ومسستَ صميم قلبي. هذا الحب الذي خلقناه أنا وأنت جون، تحفة مذهلة لن تتكرر. وأيًا كان ما حدث بعدها فلا ينقص من قيمته. كنت

(44) الهرْي: بيت كبير يجمع فيه القمح وغيره من الأطعمة.

(45) الثرْب: ثلية من الصفاق تسند الأحشاء الباطنية.

حكيمًا بوصفك له. فصدقًا كان صرحًا حقيقيًّا لا من رمال. ولا شيء مما سيحدث في المستقبل سيجرفه. وحتى إن لم يكن في كأسي سوى ماء، أود أن أرفع كأسي هذه في صحتك، في صحتنا، وشكرًا لك على تذكيري. فلا يهم إن كان الحب سينتصر على كل الصعاب. المهم أنه موجود. لذا، في صحة الحب. في صحة حبنا. كما كان. وفي صحة إيلودي."

ترودي ترفع الكأس إلى شفتيها. علو لهاتها وانخفاضها، التمعج الثعباني لأمعائها يصمان أذنيَّ هنيهة. طوال معرفتي بها، لم يسبق أن سمعت أمي تلقي خطبة. ليس أسلوبها. لكنها تثير الذكريات على نحو غريب. أي ذكريات؟ فتاة متوترة، الممثلة الجديدة بين طالبات المدرسة، رغم ارتجافها تُظهر جرأةً في قبول التحدي، تتقمص نبرةً جازمة في إلقاء خطبتها المفعمة بالجمل المبتذلة، تحاول ترك انطباع جيد لدى الناظرة، هيئة المعلمين والمدرسة بأسرها.

نخب في صحة الحب وبذا في صحة الموت، في صحة إيروس وثاناتوس. إذ كما يبدو فمن بديهيات المذهب الفكريّ أنه متى ما اجتمع مفهومان متناقضان ومتنافران، فلا بد يربطهما رباط وثيق. وبما أن الموت نقيض كل حيّ، فأزواج عدّة من الأضداد طرحها المفكرون. الفن والموت. الطبيعة والموت. وعلى نحو مثير للقلق، الولادة والموت. والزوج الذي لا يملّون من تكراره جذلين، الحب والموت. ما يخص الزوج الأخير ومن حيث أنا، فلا أرى مفهومين لا علاقة تربطهما البتة ببعضهما أكثر من هذين المفهومين. فالميت لا يحب أحدًا، ولا أي شيء. ما إن أخرج من حبسي وأتدبر أموري، قد أكرس وقتًا لتدوين هذه الأفكار في رسالة علمية أو مقال أكاديمي. فالعالم يستميت للاستماع إلى رأي تجريبيٍّ جديد.

حين يتكلم أبي، يتناهى إليّ أنه قد بات أدنى. وبالفعل، ها هو يعود خُطاه إلى الطاولة.

"أحسنت،" يقول في نبرة ألفة صادقة، "هي هذه الروح المطلوبة."

أقسم أن كأس الموت، كأس الحب، في يده.

ومرةً أخرى، بكلا كعبيّ أركل أركل متحديًا قدره.

"أوه، خلدي الصغير،" تنادي عليّ بصوتها الأمومي الحنون. "الشقي استيقظ."

"قد غفلت عن الإشارة إلى أخي في نخبك." يقول جون كيرنكروس. فهي من طبيعته الشعرية الذكورية تفخيم أنخاب الآخرين. "إلى أحبائنا المستقبليين، كلود وإيلودي."

"في صحتنا جميعًا،" يرفع كلود كأسه.

هنيهة صمت. أمي تجرعت كأسها بأكمله.

من ثم أسمع زفير أبي، تنهيدة تلذّذ مبالغ بها، من باب الكياسة وحسب. "حلو أكثر من المعتاد، لكن ليس سيئًا على الإطلاق."

كوب الفلين الذي يضعه جانبًا على الطاولة يصدُر عنه صوت مكتوم.

وها هي تخطر إليّ اللحظة، جليّةً كما اللمبة الكهربائية في أفلام الكرتون. حلقة من برنامج عن رعاية الحيوانات الأليفة يلقي الضوء على المخاطر التي قد تتعرض لها تلك المخلوقات، استمعت إليها بينما ترودي تفرش أسنانها صباح يوم ماطر بعد وجبة الفطور: تعس الكلب الذي يلعق المادة الخضراء عن أرضية المرآب. ميت لا محالة في ظرف ساعات. تمامًا كما وصف كلود ميتة كلب الجيران. كيمياء عديمة الشفقة، عشوائية، ولا تعرف الندم. فرشاة أسنان أمي الكهربائية

طغت بصوتها على بقية الحلقة. في النهاية نحن نخضع للقواعد ذاتها التي تحكم حيواناتنا الأليفة. مثلها، أعناقنا مكبلة بالقيد ذاته الذي يجرنا نحو العدم.

"حسن،" يقول أبي، حرفيًا أكثر مما يدرك، "أنا راحل."

كلود وترودي ينهضان. وها هي الإثارة المتهورة المتأتية عن فن القتل بالسم. الجسد امتص السم، لكن جريمة القتل لم تكتمل بعد. على مد ميلين هناك مئات المستشفيات ومئات عمليات غسل المعدة. بيد أنهما قد تجاوزا عتبة الجريمة. لا عودة للوراء ولا رجعة. كل ما بوسعهما فعله هو الوقوف جانبًا وانتظار تحقق نقيض الحب، في انتظار مقاوم التجمّد يجمّد قلبه.

كلود يقول: "أهذه قبعتك؟"

"أوه أجل! سآخذها."

أتراها المرة الأخيرة التي سأسمع فيها صوت أبي؟

نتحرك صوب السلم، من ثم نصعد الدرجات، الشاعر يقود ركبنا. لديَّ رئتان لكن لا هواء كي أصرخ مُحذّرًا ولا لأنتحب خزيًا من عجزي. فما أزال مخلوق البحر، لا بشرًا كما الآخرين. والآن نقطع طريقنا عبر فوضى الردهة. الباب الأمامي يفتح. أبي يلتفت، يطبع قبلةً عجلى على وجنة أمي ويلاطف أخاه بلكمة أخوية على كتفه. أظنها المرة الأولى التي يفعلها في حياته.

في طريقه خارجًا يصيح من خلف كتفيه، "فلنأمل أن تتحرك تلك السيارة اللعينة."

الفصل الحادي عشر

نبتة باهتة، واهنة، غرسها سكيران ساعة الفجر، تستميت على أوهى بصيص نور من نجاح. ها هي الخطة. رجل يُعثر عليه ميتًا على عجلة قيادته. على أرضية سيارته جهة المقعد الخلفي، بالكاد يرى، كوب فلين يحمل شعار متجر في **شارع جد**، قرب بلدية **كامدون**. في الكوب، بقايا مخفوق الفاكهة، مخرمة ببقايا غليكول الإيثيلين. قرب الكوب، قارورة فارغة من المادة القاتلة ذاتها. وقرب القارورة، وَصْلٌ مَرميّ للشّراب يحمل تاريخ اليوم. ومخفيّ أسفل مقعد السائق عدة كشوف بنكية، بعضها تعود إلى دار نشر صغيرة، وأخرى حسابات شخصية. في الحالتين تشير الكشوف إلى إفراط في السحب بقيمة عشرات الآلاف. على أحد هذه الكشوف هناك خربشة، خط يد الفقيد، الكلمة هي "كفى!" ("غرض" ترودي.) وعلى جانب الكشوف البنكية، زوج قفاز اعتاد الرجل الميت ارتداءه بين وقت وآخر كي يخفي آثار الصدفية. وزوج القفاز يستر أسفله صفحة جريدة مجعدة كُرويًّا تحمل مقالًا نقديًا قاسيًا على ديوان شعري صدر مؤخرًا. على مقعد الراكب الأمامي، قبعة سوداء.

شرطة العاصمة تعاني من عجز في الموظفين، وفائض في القضايا.

المحققون الأصغر سنًا، على ذمة شكاوى المحققين الأكبر سنًا، يجرون التحقيقات ملتصقين بشاشات الحواسيب، منكفئين عن الخروج خوفًا من إتلاف كعوب أحذيتهم. ومع وجود قضايا قتل دموية أخرى في جعبتهم كي يلاحقوها، فالاستنتاج في هذه القضية يبدو سهلًا في متناول اليد. الوسيلة غير اعتيادية لكن ليست نادرة، متوافرة بسهولة، طعمها مستساغ، قاتلة إن امتصها الجسد بجرعات كبيرة، ومصدر إلهام معروف لكُتّاب روايات الغموض والجريمة. التحقيقات تشير إلى أن عدا مسألة الديون، فالزواج كان على حافة الانهيار، الزوجة تساكن شقيق الرجل الميت والذي تبين أنه عاش حالة اكتئاب على مر الأشهر الأخيرة. مرض الصدفية قد زعزع ثقته بنفسه. زوج القفاز الذي يرتديه عادة كي يخفي مرضه يفسّر غياب البصمات عن الكوب وقارورة مقاوم التجمّد. صور كاميرات المراقبة ترصده في متجر **جنة العصائر** مرتديًا قبعته. كان في طريقه إلى بيته في **سانت جونزوود** ذاك الصباح. على ما يبدو، فقد عجز عن مواجهة مسؤولياته كأب، مواجهة انهيار عمله وفشله كشاعر، ووحدته التي عاشها في **شوردیتش**، حيث كان يقطن شقّةً مستأجرة. بعد خوضه شجارًا مع زوجته غادر المنزل مكروبًا. الزوجة تلقي اللوم على نفسها. كان عليهم قطع المقابلة معها عدة مرات. شقيق الرجل الميت كان حاضرًا أيضًا وبذل أقصى جهده في تقديم يد المساعدة.

هل يعقل أن الواقع يمكن التخطيط له مسبقًا بهذه السهولة، بهذه الدقة؟ أمي، كلود وأنا ننتظر مشدودي الأعصاب عند عتبة الباب الأمامي. بين ارتكاب فعل وظهور نتائجه تتربص شبكة متحابكة من الاحتمالات الشنيعة. مع اللمسة الأولى، المحرك يدور لكن لا يشتعل.

لا مفاجأة هناك. فهذه السيارة تعود إلى شاعر سونيتات حالم. مع المحاولة الثانية، أسمع أزيز الفشل نفسه، وكذلك مع الثالثة. صوت انطلاق المحرك يبدو مثل صوت رجل مُسِنّ بات واهنًا حدّ عجزه عن النحنحة. إن مات جون كيرنكروس بين أيدينا فكلنا واقعون لا محالة. والعاقبة هي ذاتها إن نجا بين أيدينا. يتريث قبل المحاولة من جديد، مستجمعًا حظه. الرابعة أوهى من الثالثة. أستحضر مرأى أبي بعين خيالي، متأملًا إيّاه عبر زجاج السيارة الأمامي، يحاكي لنا ساخرًا بهزة كتفيه استغرابه ما يجري، ملامحه شبه مطموسة خلف انعكاس سحب الصيف.

"إلهي،" يقول كلود، الرجل الدنيوي الخبير، "سيغرق المكربن بمحاولاته هذه."

أحشاء أمي تعزف لي أملها الميؤوس منه. لكن مع المحاولة الخامسة، تتحول مجرى الأحداث. على وقع فرقعة بطيئة جياشة وفكاهية، يشتعل المحرك أخيرًا. نبتة كلود وترودي المستميتة يزهر منها برعم أمل. ما إن تتحرك السيارة وراءً نحو الشارع تدخل أمي في نوبة سعال حاد إثر ما أظنها سحابة من دخان العادم الأزرق تهب في اتجاهنا. نتوجه داخلًا، ونصفق الباب خلفنا.

لا نعود أدراجنا إلى المطبخ، بل نصعد السلالم. لا ينبس أحدهما بكلمة، إلا أن طبيعة الصمت المخيم على الأجواء – ثخينًا قشديًّا – يوحي بأن هناك سببًا آخر غير الإرهاق وآثار الثمالة يدفعنا للأعلى اتجاه حجرة النوم. بؤس على بؤس. هو هذا الظلم الوحشي بعينه.

خمس دقائق، وها نحن في حجرة النوم والعجلة سرعان ما تدور. كلود يربض جانب أمي ولعله تعرى. أسمع أنفاسه على عنقها. يخلع

عنها ملابسها، بادرة كرم جنسي غير معهودة منه.

"على مهلك،" تقول له ترودي. "هذه الأزرار من اللؤلؤ."

ينخر ردًّا عليها. أصابعه غير محترفة، فهي تعمل حصرًا لإرضاء حاجاته. شيء ما يعود له أو لها يُرمى على أرضية حجرة النوم. فردة حذاء، أو بنطال بحزام ثقيل. أشعر بها تتلوى بين يديه على نحو غريب. متعجلة. يصدر لها أمرًا على هيئة نخرة ثانية. وها أنا أجثم منكمشًا. ما ينويان عليه قبيح، من المؤكد لن يجري على خير، ليس في هذه المرحلة المتقدمة من الحمل. ما برحت أقول هذا لأسابيع. حتمًا سأعاني.

مطيعةً خاضعة، تجثم ترودي على ركبتيها. الجنس الخلفي، مضاجعة الكلاب، لكن لا يختارانها كرمى لصالحي. ومثل كلب أحمق، يلصق نفسه بعجيزتها. عليها، والآن فيها، عميقًا. حاجز واه من أمي الفاجرة يفصلني عن قاتل أبي المستقبلي. لا شيء على حاله ظهيرة هذا السبت في **سانت جونزوود**. مضاجعتهما لا تشبه في شيء الصدام المسعور المعتاد الذي يهدد سلامة جمجمتي الطرية. بل أقرب إلى غرق دبق، مخلوق متحذلق يزحف في مستنقع. الأعضاء المخاطية تنزلق على صوت صرير واه مع كل حركة. ساعات التآمر التي قضياها معًا قد صيّرت المجرمين على نحو عرضي زوجًا يمارس الجنس بشكل متعمد روتيني. لكن لا شيء يجري بينهما. على نحو ميكانيكي يخضان جسديهما في حركة بطيئة، يؤديان مهمة صناعية معصوبي الأعين وبنصف طاقتهما. كل ما يبتغيانه هو الانعتاق، الانتهاء من الدوام، تذوق طعم راحة الانفصال ولو ثوان عن نفسيهما. وما إن يبلغا ذروتهما أخيرًا، في سلسلة هزات متقاربة، تلهث أمي مذعورة مما ستعود إليه، ومما ستراه. عشيقها ينخر نخرته الثالثة في مناوبته. يهويان مفترقين على ظهريهما،

على الملاءات، ونخلد جميعًا للنوم.

نوغل في النوم طوال بعد الظهيرة، وفي هذا الردح من الزمن أحظى بحلمي الأول، ملوّنًا وغنيًّا بالصور العميقة. الخط، الحد الفاصل بين الحلم واليقظة، أراه مبهمًا ضبابيّ. لا سياج ولا حاجز نيران[46] بين الأشجار. لا أرى سوى أكواخ مراقبة خاوية من حُرّاسها تشير إلى المعبر الحدودي. أطأ بقدمي هذه الأرض الجديدة غير واثق من خطاي، مثلما يخطو فتىً غرّ درب الحياة، صورة جسدي مجهولة وحواسي في فوضى، من حولي الأشكال معتمة، صور الناس والأماكن تذوب، أصوات لا أميزها تغني وتتبادل الحديث في سراديب مقفلة. بينما أتجاوزها، أشعر بألم في صدري يوجعني، ندم لا اسم له ولا بيدي القبض عليه، شعور يخالجني بأني قد تركتُ ورائي شيئًا أو شخصًا في فعل خيانة، خيانة واجب أو حب. من ثم تتجلى لي بهيةً جميلة. سديم بارد يوم ارتكابي خطيئة الهجر، رحلة ثلاثة أيام على ظهر حصان، صفوف طويلة من الفقراء الانجليز الحزانى تحتشد على شوارع الأزقة المتهالكة، أشجار دردار ضخمة تخيم على المروج الغارقة بماء نهر التامز، وأخيرًا ها هي تتناهى إلى مسامعي جلبة المدينة وضجيجها المألوف. على الشوارع روائح فضلات البشر صلدة مثلها مثل جدران البيت، تقودني إلى زاوية حيث تفوح رائحة اللحم المشوي وإكليل الجبل وأعبر فيها مدخلًا رثًّا كي ألتقي بشاب من عمري في مكان معتم سقفه مدعّم بالروافد الداكنة جالسًا إلى طاولته يصب النبيذ من إبريق خزفي، شاب وسيم، يميل صوبي فوق طاولة ملطخة من خشب البلوط، يأسرني بحكاية يفكر بها، حكاية هو كتبها أو أنا من كتبها، يسألني رأيي أو يمنحني رأيه، تصحيح، تدقيق في

(46) Firebreak : أرض محروثة أو مقطوعة الأشجار لمنع حرائق الغابات من الانتشار.

الحقائق. أو لعله يريد مني نصيحة تعينه على مواصلة كتابتها. هذه الضبابية في التمييز بين هويتي وهويته هي مبعث من مباعث حبي له، حب يكاد يُخمد وجع الذنب الذي أرتجي نسيانه. خارجًا في الشارع جرس يقرع. نحتشد خارجًا كي نشيع الموكب الجنائزي. أنا وإياه مدركان كم هذا الفقد عظيم جلل. لكن لا موكب هناك، هو الجرس وحسب ما يبرح يقرع ويقرع.

***

أمي من تسمع جرس الباب. وقبل أن يتسنى لي الطفو من أعماق منطق الحلم العجائبي، ترتدي ثوبها وها نحن نهبط درجات السلالم. ما إن نصل الدرجات الأخيرة حتى تطلق صرخةً متفاجئة. أتصور أن الردهة قد تنظفت من المزابل التي كانت فيها وقت كنا نائمين. الجرس يرن مرةً أخرى، عاليًا، لجوجًا، غاضبًا. ترودي تفتح الباب صارخة، "بحق السماء! هل أنت ثمل؟ ها أنا أسير بأقصى سرعتي –"

تقف مترنحة. إن كانت تملك ثقةً بنفسها فلا يجدر بها الذهول من رؤية ما تراه، ما فتح الجزع عينيّ عليه: رجل شرطة، لا بل اثنان، يرفعان قبعتيهما.

صوت عطوف، أبويّ، يقول، "هل أنت السيدة كيرنكروس، زوجة جون؟"

تومئ موافقة.

"الرقيب كراولي. أخشى أني أحمل إليك خبرًا مؤسفًا. هل تسمحين لنا بالدخول؟"

"إلهي!" تتذكر أمي أن تقول.

يلحق بنا الشرطيّان إلى حجرة الجلوس، نادرًا ما استخدمناها وبذا

شبه نظيفة. لو لم تخل الردهة من أكوام النفاية لاشتبها مباشرةً بأمي. فعمل الشرطة يعتمد على الحدس. لربما الأثر الوحيد الذي تبقى من تلك الأكوام رائحة عطنة، ولربما يختلط عليهما الأمر ويفسرّانها دلالة طبخ أجنبي.

صوت آخر، صوت يافع، بنبرة أخوية متعاطفة مبالغ فيها، "نود منك الجلوس."

الرقيب من ينقل لنا الخبر. فقد تم الإبلاغ عن العثور على سيارة السيد كيرنكروس على كتف طريق "M1" المتجه شمالًا، على بعد عشرين ميلًا من لندن. باب السائق كان مفتوحًا، وعلى مقربة من السيارة، على ساتر عشبي، وجدوه مستلق على وجهه. سيارة إسعاف وصلت مكان الحادث، حاولوا إنعاشه أثناء نقله إلى المستشفى بسرعة فائقة، لكنه توفي في الطريق.

نواح، فقاعة هواء تنبعث من أعماق محيط، تعلو عابرةً جسد أمي، عابرةً جسدي، وتنفجر في وجه الشرطيين المتيقظين.

"إلهي!" تصيح بأعلى صوتها. "هذا الصباح خضنا أسوأ شجار عشناه." ظهرها يحدودب للأمام. أشعر بها تضع يدها على وجهها وتأخذ بالارتعاش.

"لا بد أن أخبرك، " يتابع الرقيب حديثه. يتريث بكياسة، مراعيًا الاحترام المضاعف الواجب إظهاره للحامل الثكلى. "أننا قد حاولنا التواصل معك بعد الظهيرة. صديق تولى التعرّف على الجثمان. أخشى أن الانطباع الأول يشير إلى الانتحار."

حين تستقيم أمي وتطلق صيحةً مفجوعة، حبي لها يجرفني، حبي لفقدانها الجلل – **دبروفنك**، الشّعر، العِشرة. فهي قد أحبته يومًا،

مثلما أحبها هو. استحضارها هذه الحقيقة، وطمسها كل ما عداها، قد عزز من مصداقيّة وقوّة أدائها.

"كان يجدر بي ... كان يجدر بي أن أمنعه عن الرحيل. يا إلهي، الذنب كله ذنبي."

يا لها من داهية، تختبئ على مرأىً من الجميع، محتميةً بالحقيقة.

الرقيب يقول مواسيًا، "غالبًا ما تكون هذه هي ردة فعل الناس. لكن إياك أن تفكري هكذا، إياك. من الخطأ إلقاء اللوم على نفسك."

نفَسٌ عميق وتنهيدة. يبدو أنها على وشك الكلام، تتريث، تتنهد كرةً أخرى، تستجمع شجاعتها. "هناك أمر لا بد أن أفصح عنه. الأمور بيني وبين زوجي لم تسر على ما يرام. كان يواعد شخصًا، ثم انتقل من البيت. وأنا بدأت بـ... أخوه انتقل إلى البيت معي. جون تلقى خبر الانتقال على نحو سيّئ. لهذا فما أقوله هو..."

تكشف لهما أولًا ورقة كلود، أخبرتهما تمامًا بما كانا سيكتشفانه لا محالة. إن تقل لهما الآن، في نوبة انهيار، "أنا من قتله" ستنجو بصنيعها.

أسمع صوت قشط لاصق، قلب ورقة مفكرة، خربشة قلم رصاص. تسرد عليهما في صوت متبلد كل ما راجعته، وتعود بهما إلى نقطة البداية، إلقائها اللوم على نفسها. ما كان يجدر بها تركه يقود السيارة في حالته تلك.

الشرطي اليافع يقول لها في نبرة تبجيلية، "ما كان بيدك معرفة ما سيحدث سيدة كيرنكروس."

من ثم تقرر تغيير مسار المقابلة، وفي نبرة شبه نزقة تقول، "لا أظنني قادرة على استيعاب ما يجري. حتى أني لست واثقة من تصديقي لكما."

" بالطبع، نقدر وضعك." هذا صوت الرقيب الأبويّ. وفي نحنحة

مهذبة، هو وشريكه ينهضان، مستعدين للمغادرة. "هل لديك شخص تودين منا الاتصال به؟ شخص يقف معك في مصابك؟"

أمي تتفكر في إجابتها. وها هي تحني ظهرها مرةً أخرى، وجهها بين يديها. تتحدث عبر أصابعها في صوت خال من أي نبرة. "صهري موجود هنا. هو نائم الآن في الأعلى."

لعلّ حاميا القانون يخزر أحدهما إلى الآخر الآن. أي ذرة شك تساورهما هي عون لي.

"نوَدّ تبادل الحديث معه متى ما كان الوقت مناسبًا،" يقول الشرطي اليافع.

"هذا الخبر سيقتله."

"أظنكما الآن في حاجة إلى الاختلاء بنفسيكما."

وها هو يحدوني مرةً أخرى، خيط الأمل الواهي النابع عن جبني في أن الشرطة – لوياثان لا أنا – هم من سينتقمون لمقتل أبي.

أنا من في أشد الحاجة إلى الاختلاء بنفسي، بعيدًا عن متناول أي صوت. فقد استُنزفت حدَّ النضوب. حرفية ترودي في مد يدها عميقًا في هُوّة فاجعتي وسلبها ألمي قد ترك أثرًا دامغًا في قلبي. كما أني مصدوم بغموض حبي المتضاعف لأمي الموازي لكرهي المتضاعف لها. فقد صيَّرت نفسها والدي الوحيد. فلن أنجو دونها، دون الابتسام في غمرة نظرتها الخضراء الدافئة، صوتها المحب يقطر حلوًا في أذني، يداها الدافئتان تعتنيان بعورتي.

الشرطة تغادر البيت. أمي تصعد السلالم بخطىً متهادية. اليد ثابتة على الدرابزين. واحد-اثنان تقف، واحد-اثنان تقف. تردّد ترنيمة بنغمة منخفضة، أنين شفقة أو حزن تزفرها من منخريها. ننتج ...

ننتج. أمي وأعرفها. شيء ما يعتمر في صدرها، مقدمة تصفية حساب. قد كادت مكيدة، حيلةً ماكرة، حكاية أطفال خيالية وخبيثة. وها هي حكايتها الخيالية تنقلب عليها وتهجرها، تقطع المعبر الحدودي الذي عبرته أنا هذه الظهيرة، بيد أنها قطعت الطريق المعاكس متجاوزةً أكواخ المراقبة الخاوية، كي تثور عليها، وتقف في صف الحقيقة الواقعية، العالم المحموم بمرض الرّوتين الضّجِر، التواصل الإنساني، المواعيد، الالتزامات، كاميرات الفيديو، الحواسيب بذكرياتها اللابشرية. باختصار، عواقب جريمتها. حكاية فرت منها تجر أذيال خيبتها.

مثقلة بآثار الثمالة ونقص النوم، تحملني إلى الأعلى، تتابع مسيرها نحو حجرة النوم. تقول في نفسها، لم يكن من المفترض أن تنجح. ما كانت إلا فعل نكاية. ما أنا إلا مذنبة بخطأ واحد.

الخطوة التالية قريبة، لكن لن تأخذها، ليس بعد.

الفصل الثاني عشر

نحث الخطى نحو كلود الهَجِع، الغارق في منام عميق، كتلة محدودبة، من جهته يتناهى إليّ صوت يعلو وينخفض في منحنى جرسيّ مكتوم بين ملاءات السرير. الزفير، صرير طويل بليد، حدّه الأعلى ينتهي بزركشة من صفير كهربائي. يعقبها هنيهة صمت من شأنها، إن كنت تحبه، أن تثير القلق فيك. يا تراه هل التقط نفسه الأخير؟ وإن لم تحبه، سيحدوك الأمل. لكن أخيرًا، شهيق أقصر، جشِع، مجرَّح بخشخشة المخاط الجاف بفعل الريح، في ذروة هبوب النسيم العليل، تليها خرخرة حنكه المنتصرة. علوّ الصوت يعلن دنوّنا القريب منه. ترودي تردد اسمه. أشعر بيدها تمتد إليه بينما هو جاثم موغل في صفيره. هي متلهفة، في توق إلى مشاركة نجاحهما ولمستها على كتفه ليست باللمسة الرقيقة. يصحو شبه حيّ في نوبة سعال، كما الصوت الصادر عن سيارة أخيه، ويستغرقه الأمر عدة ثوان كي يعثر على كلمات مناسبة يطرح فيها سؤاله.

"اللعنة! ماذا تريدين؟"

"قد مات."

"من؟"

"رباه! أفق."

بما أنها انتشلته من أعمق أعماق منامه، فعليه أن يجلس أولًا على جانب السرير، كذا ينبئني أنين الفرشة، في انتظار الدائرة العصبية تعيده إلى قصة حياته. أنا يافع كفاية لأدرك ألّا آخذ هذه الدائرة أمرًا مسلّمًا به. إذن أين وقفَت به حياته؟ آه، أجل، عند محاولته قتل أخيه. هل صدقًا مات؟ أخيرًا، كلود يبعث من جديد.

"فليلعني الرب!"

الآن وحسب تعتريه الرغبة بالاستيقاظ. يجد الساعة قد باتت السادسة مساءً. منتعشًا ينهض، يمدد ذراعيه على صوت صرير عظامه وغضاريفه، من ثم يروح جيئةً وذهابًا بين حجرة النوم والحمام يصفر مبتهجًا، بأعلى طبقة. من نغمة صفيره أدرك أن الموسيقى تعود إلى اللحن الرئيس لفيلم الخروج. في أذنيّ المشكَّلة حديثًا، بدا اللحن فخمًا متكلّفًا، النمط رومانسي مبتذل، وفي أذن كلود أوركسترا خَلاص شِعريّ. فؤاده يخفق فرحًا. في المقابل، ترودي تجلس على الفراش في صمت. شيء يختمر في صدرها. وأخيرًا، في نبرة رتيبة، تسرد عليه مجريات الزيارة، اللطف الذي أبداه رجلا الشرطة، اكتشاف الجثة، الافتراض الأولي لسبب الوفاة. ومقابل كل خبر تسرده، كأنما تسرد خبرًا سيئًا، يأتيها الرد من كلود، "عظيم!". ينحني للأمام متأوهًا كي يربط خيوط حذائه.

تسأله: "ما الذي فعلته بالقبعة؟"

تعني قبعة أبي الفيدورا ذات الحافة العريضة.

"ما بالك، ألم تريني؟ قد أعطيتها له."

"وما الذي فعله بها؟"

"كانت في يده لدى مغادرته البيت. لا تقلقي. كفاك قلقًا."

تتنهد، تتفكر بُرهة. "رجلا الشرطة كانا لطيفين جدًا."

"طبيعي، فأنت الزوجة الثكلى."

"لا أثق بهما."

"ابقي متماسكة."

"سيعودان."

"ابقي ... متماسكة."

يلفظ تلك الكلمتين مشددًا عليهما، مع وقفة خبيثة بينهما. إما خبيثة، أو نكدة.

الآن هو في الحمام مرةً أخرى، يمشط شعره، ما عاد يصفر. فالأجواء تغيرت.

ترودي تقول، "يريدان الحديث معك."

"بالطبع. فأنا الأخ."

"قد أفصحت لهما عن أمرنا."

يصمت برهة من ثم يقول، "تصرف أحمق."

ترودي تبلع ريقها. لسانها جاف. "لا، ليس بالتصرف الأحمق."

"كنت تركتهما يكتشفان الأمر بنفسيهما. بصنيعك هذا سيشكان في أمرنا، سيبدو الأمر وكأننا نحاول استباق الأمور والتقدم عليهما خطوة."

"أخبرتهما أن جون كان مكتئبًا جراء علاقتنا. سبب آخر يدفعه إلى ..."

"حسن، حسن. ليس بالتصرف الأحمق. حتى أنها قد تكون الحقيقة. لكن." الكلام يتوه منه، فهو غير موقن من الأمر الذي يجدر

به إفهامها اياه.

هل أن جون كيرنكروس لربما كان سيقتل نفسه فعلًا حبًّا لها، لولا أنها هي من قتلته أولًا؟ هناك شجن وذنب في قلب هذه الثيمة المستعادة. لا أظن نبرة كلود غير المبالية، الاستعلائية حتى، تروق لها. عمومًا هذا تخميني وحسب. إذ مهما اقتربت من الآخر، لن يتسنى لك أبدًا معرفة دواخله، حتى وإن كنتَ قابعًا هناك. أظنها مجروحة. لكنها لا تنبس بكلمة. ليس بعد. لكن كلينا يعرف أنها آتية. وقريبًا.

السؤال القديم يعود لطرح نفسه. إلى أي حدٍّ كلود، صِدقًا، رجل غبي؟ من انعكاس مرآة الحمام يتتبع خيط أفكارها. هو أدرى بالطريقة المثلى في صد أي عاطفة اتجاه جون كيرنكروس. يصيح عاليًا، "سيودّان الحديث أيضًا إلى تلك الشاعرة."

استحضارها هو البلسم. كل خلية في جسد ترودي باتت تسلم بأن موت زوجها كان مستحقًا. الكره الذي تحمله في قلبها اتجاه إيلودي يفوق حبها لجون. إيلودي ستعاني. وإذ شعور جارف من الارتياح يسري في عروقها وعروقي وفي اللحظة أنا منتش، أعلو كما راكب الأمواج على موجة مثالية من الحب والغفران تحلق بي للأمام. موجة طويلة، مائلة، أنبوبية متدفقة تحملني إلى حيث قد تراودني مشاعر حنان نحو كلود. لكني أصد هذا الشعور بكامل قواي. كم من المهين لي الإذعان لكل موجة شعور جارف يجتاحها وكأن لا كلمة لي، أن أقف عاجزًا وهي توثق رباطي أشد وأشد بجريمتها. لكن يشق عليّ فصل نفسي عنها وأنا رهين احتياجي لها. وفي غمرة هذا المخيض العاطفي، الاحتياج يستحيل حُبًّا، كما الحليب يستحيل زبدة.

تقول له في نبرة معسولة ومتأملة، "أوه أجل، لا بد سيتحدثان إلى

إيلودي." من ثم تردف قائلة، "كلود، أنت تعلم أني أحبك."

لكنه لا يتجاوب معها. فقد سمع تلك العبارة أكثر من المعتاد. عوضًا عن ذلك يقول، "لن أمانع أن أكون الذبابة مضرب المثل، تعرفين، تلك الذبابة على الحائط."

آه أيتها الذبابة مضرب المثل، آه أيها الحائط، متى تراه سيتعلم الحديث دون تعذيبي؟ الكلام صورة من صور المنطق فلا بد أنه غبيّ غباءَ حديثه.

خارجًا من صدى الحمام يقول مع تغيير في سير الحديث، وفي نبرة رقيقة، "أظنني عثرت على مُشترٍ. الفرصة ضئيلة، لكن تستحق المحاولة. سأخبرك بالأمر لاحقًا. هل ترك الشرطيان بطاقتيهما؟ أود الاطلاع على اسميهما."

لا هي ولا أنا نتذكر. مزاجها أخذ يتبدل مرة أخرى. أظنها تنظر إليه نظرة شاخصة بينما تقول ببساطة، "هو ميت."

حقيقة مروعة، بالكاد تصدق، لحظة مصيرية، وكأنهم أعلنوا التو قيام حرب عالمية، رئيس الوزراء يوجه خطابًا إلى الأمة، العوائل محتشدة بعضها حول بعض والإنارة باتت معتمة لأسباب لن تفصح عنها السلطة.

كلود يقف الآن إلى جانبها، يده على فخذها ويدنيها إليه. يتبادلان قبلة طويلة، قبلة عميقة بلسانيهما وأنفاسهما المتحابكة.

"مثل مسمار على حائط،" يتمتم في فمها. أشعر بانتصابه على ظهري. من ثم يهمس، "قد فعلناها. معًا. كم نحن مذهلان معًا."

"أجل،" تتنهدها بين القبل. يصعب عليّ سماعها مع جلبة حفيف ثيابهما. بيد أني لا أظن حماستها تعادل حماسته.

"أحبك ترودي."

"وأنا أحبك."

أستشعر تراجعًا عن الالتزام في "و" هذه. متى ما دنت منه، هو يبتعد، والآن العكس. هذه هي رقصتهما.

"المسيني." ليست بالنبرة الآمرة، ليس تمامًا، فهناك مسحة مناشدة في صوته. تدس يدها في سحاب بنطاله. الجريمة والجنس، الجنس والذنب. مزيد من المفاهيم المزدوجة. حركة أناملها المتمعجة كما الأفعى تثير فيه اللذة. لكن ليس بما يكفي. يشد على كتفيها، وها هي جاثمة على ركبتيها، تستوطئ نفسها، وتتناوله، كما سمعتهما يقولان، في فمها. لا يسعني تخيل نفسي أرغب في شيء كهذا. لكن يظل إشباع كلود على مسافة أبعد عني أهون الشَرّين. وإن يزعجني أن ما ستبلعه سيؤول في النهاية إلى طعام أتغذى عليه، ما سيصيرني أقرب شبهًا به. وإلا لماذا يتفادى آكلو لحوم البشر تناول الأغبياء؟

فرغا بسرعة، وبالكاد أسمع لهاثًا. يتراجع خطوة للوراء ويقفل سحابه. أمي تبلع مرتين. لا يعرض عليها شيئًا في المقابل، ولا أظنها حتى ترغب به. تنهض عن الأرض وتتعداه، تقطع حجرة النوم اتجاه النافذة وتقف هناك، ظهرها للفراش. أتصورها تتأمل حي البرج السكني. حلمي التعس عن مستقبل لي هناك قد بات أقرب إلى الواقع. تردد بهدوء، لنفسها، إذ عاد إلى الحمام كي يستحم، "هو ميت ...ميت." لا يبدو عليها الاقتناع بتلك الحقيقة. وبعد ثوان عدة، تدمدم، "يا للهول!" ساقاها ترتجفان. توشك على البكاء، لكن لا، فالمصاب عظيم إلى حدّ يعصى معه الدمع. وما زال عليها استيعاب الحقيقة الأخرى. توأما الحقيقة ضخمتان وهي تقف على مقربة شديدة منهما بحيث يعصى عليها رؤية

الوجهين المروعين: حقيقة موته، وحقيقة دورها في جريمة قتله.

كم أمقتها وأمقت ندامتها. كيف لها أن اختارت الثرى على الثريا، كلود على جون، الكليشيه على الشّعر؟ كيف وطئت زريبة الخنازير وتمرغت في القذارة هي وعشيقها الغبي، يتضاجعان في خراء النشوة الرخيصة، يخططان سرقة بيت، يتسببان بألم وحشي ومِيتة مُذلّة لرجل طيب. والآن تلهث مذعورة مرتعدة إثر صنيع يديها، وكأنما القاتلة امرأة أخرى – أخت تعسة فرّت من حبسها في الطب النفسي مع نية القتل بالسم، أخت خارج السيطرة، قبيحة مدمنة سجائر تعتريها أهواء آثمة فاسدة، عار على جبين العائلة، ولا شيء بيدها تظهر به ندامتها سوى التحسر على جريمتها بقول "يا للهول!" وترديدها المبجل لاسم أبي. وها هي، تنتقل في اليوم ذاته، دون أي ذرة حياء، من طور القتل بدم بارد إلى طور الشفقة على الذات.

كلود يظهر خلفها. اليدان اللتان تمسكان كتفيها يدا رجل ذهنه صفى بعد إشباع رغبته، فالرجل التواق إلى معالجة التفاصيل العملية والتأملات الدنيوية لن ينفعه ذهن ملبد بانتصاب عضوه.

"أتدرين؟ كنت أقرأ ذاك النهار. والآن وحسب يخطر لي. ليتنا استخدمناه. ديفينهيدرامين. نوع من أنواع مضاد الهستيمن. الناس يقولون إن الروس قد استخدموا تلك المادة في قتل ذاك الجاسوس الذي وجدوه في حقيبة رياضية. صبوا المادة في أذنه. أداروا المشعاع قبل مغادرتهم المكان كي تذوب المادة في الأنسجة ولا يبقى لها أثر. ألقوا الحقيبة في حوض الاستحمام، كي لا تتقطر السوائل على شقة الجيران في الطابق السفلي –"

"كفاك." لا تقولها في حدة. بل في استسلام.

"أنت مُحقّة. كفانا. فقد فعلناها وانتهى." وبكل وقاحة راح يترنم بتهويدة من كلماته. "يشمتون بك، يصفونك بالمخبول، لكن ها قد أثبتّ لهم، كلود مَن يكون." ألواح أرضية حجرة النوم تتهزهز تحت قدمي أمي. المخبول قد أرفق تهويدته برقصة.

تبقى على ثباتها ولا تلتفت نحوه. هي تمقته الآن بقدر مقتي لها. بيد أنه يقف الآن إلى جانبها، يشاركها تأمل المنظر من النافذة، يحاول تناول يدها.

"الخلاصة هي،" يقول لها في نبرة جادة. "سيحققون معنا بشكل منفصل. لذا علينا أن نوافق بين قصتينا. حسن. هو جاء هذا الصباح. لأجل شرب قهوة. بدا مكتئبًا جدًا."

"أخبرتهما أننا تشاجرنا."

"حسن. متى؟"

"بينما كان على وشك المغادرة."

"علام؟"

"أراد مني الانتقال ومغادرة البيت."

"جيد. إذن. قد جاء هذا الصباح. لأجل شرب القهوة. بدا مكتئبًا جدًا و—"

تتنهد من قلبها كما كنت سأفعل. "انظر. اسرد كل شيء كما حدث فعلًا، ناقص السموذي، وزائد الشجار."

"حسن. هذا المساء. هذا المساء، سأتولى أمر الأكواب، العدّة بأكملها. سأرميها في ثلاثة مواقع. آه، وشيء آخر. كان يرتدي القفازات طوال الوقت."

"أدري."

"ومتى ما توليت تنظيف المطبخ، إيّاك ذرة سموذي –"

"أدري."

يستدير ويبتعد عنها، يهرول في دوائر عبر الحجرة. فهو يستشعر طعم النجاح، الإثارة تزيده اضطرابًا، حماسةً، تلهّفًا. بيد أن تململ أمي وعدم مشاركتها شعوره هذا يعزز نفاد صبره. فهناك أمور لا بد من تنفيذها. ومتى ما انتهيا منها، فهناك أمور أخرى تنتظر التخطيط لها. هو متشوّق للوصول إلى هناك. لكن أين هناك؟ يعود ويتمتم لنفسه، يترنم أغنية. "حلوتي، أحبك حلوتي." قلبي غير مطمئن. يعود إلينا، ولا تزال واقفة متسمرّة عند النافذة، لكنه لا يستشعر الخطر.

"بشأن البيع،" يقول لها، قاطعًا أغنيته. "في القلب من قلبي لطالما أدركت أننا سنضطر إلى قبول مبلغ أقل من المعروض في السوق في حال احتجنا إلى القيام بخطوة سريعة –"

"كلود."

تدمدم اسمه، على مقطعين، الثاني أخفض من الأول. رسالة تحذير. إلا أنه مُصِرّ. لم أعهده سعيدًا كهذا من قبل، ولا كريهًا. "هذا الشخص بنّاء، مطور عقاري. ليس في حاجة حتى إلى رؤية البيت. ما يهمه هي المساحة، القدم المربع. شقق، أترين. وسيدفع نقدًا في –"

تلتفت نحوه. "هل أنت حقًا غير مدرك؟"

"أدرك ماذا؟"

"هل أنت حقًا على هذا القدر من الغباء؟"

هو هذا السؤال! لكن كلود بدل مزاجه. وقد يغدو رجلًا خطيرًا.

"نوّريني."

"هل فاتك؟"

"على ما يبدو."

"اليوم، قبل ساعات قليلة."

"حسن؟"

"قد فقدت زوجي – "

"لا!"

"الرجل الذي أحببته يومًا، ومن أحبّني، من صيَّر حياتي على ما هي عليه، من منح حياتي معنىً ..." أوتار حنجرتها تطبق وتحول دون متابعتها.

بيد أن كلود ينطلق. "أوه حلوتي، فأرتي الصغيرة، كم محزن ومروع. تقولين، فقدتيه. وأين عساك أضعته؟ هل تذكرين آخر مكان وضعته فيه؟ فلا بد أنك تركته في مكان ما."

"كفى!"

"فقدتيه! دعيني أفكر. آه، تذكرت! الآن وحسب خطر لي. قد تركته في "M1"، على قارعة الطريق، مستلقيًا على العشب، أحشاؤه متخمة بالسم، ها! تخيلي، قد نسيناه هناك."

لعله كان سيواصل لولا أن ترودي تستدير نحوه فجأة وتصفعه على وجهه. لا صفعة سيدة، بل قبضة شديدة محكمة تعتل رأسي من مكانه.

"لطالما تآكلك الغيظ." تقول له في نبرة هادئة تفاجئني. "فدائمًا ما كنت تغار منه."

"هكذا إذن." يرد عليها، نبرة صوته تثخن بعض الشيء. "الحقيقة العارية."

"كرهت أخاك لأنك أبدًا ما كنت ستكون الرجل الذي هو عليه."

"بينما أنت بقيت على عشقك له حتى النهاية." ها كلود يعود إلى تلبس دهشته الزائفة. "إذن ما كان ذاك الأمر القاسي الماكر الذي قاله لي أحدهم، أكان ليلة البارحة أم قبل البارحة؟ "أريده ميتًا، وأريده ميتًا في الغد." بالتأكيد لم تكن زوجة أخي المحبة، من صيَّر حياتها ومنحها معنىً."

"قد أسكرتني. فهذا ما تفعله معظم الوقت."

"وصباح اليوم التالي من كانت تلك المرأة التي نهضت على عجل، رفعت نخب الحب، تملقت الزوج الذي صيَّر حياتها على ما هي عليه ومنحها معنىً وخدعته إلى رفع كأس السم في صحتها؟ بالتأكيد لم تكن زوجة أخي المحبة. أوه لا، لا يعقل أن تكون فأرتي الحلوة."

أنا أفهم أمي، أعرفها عن ظهر قلب. هي تتعامل مع الحقائق كما تراها. الجريمة، والتي كانت مجرد سلسلة خطط تحبكها، قد استحالت الآن في ذاكرتها غرضًا منددًا، ثابتًا لا يتزحزح، تمثالًا حجريًّا باردًا وأصمًّا منتصبًا في أرض خلاء في قلب غابة. ليل الشتاء قارس، القمر محاق، وترودي تهرع مبتعدة على طريق الغابة الجليدي. تستدير وتنظر خلف كتفيها إلى الغرض البعيد، شبه محجوب بالشجيرات العارية والضباب الكثيف، فترى أن الجريمة، التجسيد الفعلي لأفكارها، ليست بجريمة على الإطلاق. بل خطأ. ولطالما كانت خطأ. وقد ساورها الشك بشأن هذه الحقيقة طوال تلك المدة. وكلما نأت بنفسها عنها، توضحت هذه الحقيقة لها. هي وحسب كانت مخطئة، لا هي بامرأة سيئة، ولا مجرمة. لا بد أن الجريمة قد وقعت في مكان آخر في الغابة، على يد شخص آخر. والحقائق كلها تشير دون أي ذرة شك إلى ذنب كلود الأساسي. نبرته الساخرة لا تحميه. بل تدينه.

ومع ذلك. مع ذلك. مع ذلك هذه اللحظة تشتهيه، شهوة عنيفة تحدوها إليه. كلما نادى فأرتي، اعترتها رعشة حماسة لولبيّة، انقباض بارد ينغرز ما بين فخذيها، صنارة متجمدة تسحبها نحو الحافة الصخرية الناتئة وتذكرها بكل تلك المرات التي هوت بها في النشوة، المرات العدّة التي نجت بها من **جدار الموت**. فأرته! يا لها من مذلة. في راحة يده. حيوان أليف. عاجزة. مذعورة. خسيسة. رخيصة. يا لهوله من مصير أن تكون فأرته! مدركةً أنه الجنون ذاته. كم يشق عليها مقاومة شهوتها. هل بيدها حتى مصارعتها؟

هل يا تراها تكون امرأة أم فأرة؟

الفصل الثالث عشر

صمت أعجز عن تأويله يعقب وصلة كلود الساخرة. لعله نادم على استهزائه أو ممتعض من تعكير نشوة نجاحه. ولعلها هي الأخرى ممتعضة، أو تواقة إلى مواصلة دور فأرته. أزن هذه الاحتمالات على وقع خطاه يبتعد عنها. يجلس على حافة الفراش المبعثر، ينقر هاتفه. تظل هي مكانها لدى النافذة، تدير ظهرها للحجرة، تتأمل نصيبها من لندن، حركة سير المساء المتلاشية، زقزقة العصافير المتناثرة، سحب الصيف المتكتلة وفوضى السطوح.

وأخيرًا حين تنطق أسمع نبرتها منخفضة ومكفهرة. "أنا لن أبيع هذا البيت كي تغدو أنت ثريًا."

يجيبها بلمح البصر. على ذات الصوت الساخر المستهزئ. "لا، لا. بل سنغدو ثريين معًا. وإلا، إن أردت، فقيرين في زنزانتين منفصلتين."

يوجه لها تهديدًا منمّقًا. وهل تراها ستصدقه، أنه على قدر تهديده بالقضاء عليها وعلى نفسه؟ أنه يتمتع حقًا بالإيثار الإجرامي. جذع أنفك نكايةً بوجه غيرك. وكيف يجدر بها الرد على هكذا تهديد؟ أجد أمامي وقتًا للتفكر لأنها لم تجب بعد. فهذا التهديد المبطن قد فاجأها على حين غرة. منطقيًا، بيدها الرد عليه بذات التهديد. فنظريًا، كلاهما

يملك السلطة ذاتها على الآخر. غادر هذا البيت. ارحل ولا تعد أبدًا. وإلا سأجلب الشرطة لي ولك. لكن حتى أنا أعرف أن الحب لا يسيّره المنطق، ولا السلطة موزعة بالتساوي على الطرفين. فالعاشقان منذ تبادلهما قبلتهما الأولى يأتي كل منهما حاملًا ندوبه وتوقه. فليس كل العشاق يرجون فضيلة العشق. بل بعضهم يعشق بدافع الحاجة إلى ملاذ، وآخرون فقط لأجل الاستغراق في الشهوانية، وأيًا يكن الدافع، فالعاشقان لن يتورعا عن الكذب الفاضح وتقديم التضحيات غير العقلانية. ومع ذلك فنادرًا ما يسأل العاشقان نفسيهما ما الذي يريدانه حقًا، ما الذي يتوق كلّ منهما عند الآخر. ذكريات فشل قصص العشق السابقة لن تردع أيًا منهما. التصرفات الطفولية تشع من أسفل جلد العاشق، سواءً كان لمصلحته أم لا. عدا طبعًا قوانين الوراثة التي تشكل الشخصية وتصفدها بقيودها الجينية. وبذا فالعاشقان غافلان لانعدام وجود إرادة حرة لديهما. لم أسمع ما يكفي من الدراما الإذاعية كي أعرف أكثر من هذا، مع أن أغاني البوب قد علمتني أن العاشقين في كانون لا يتبادلان شعورهما ذاته في أيار، وأن وجود الرحم لدى أحدهما أمر يصعب على الآخر استيعابه، والعكس صحيح.

ترودي تستدير وتواجه الحجرة. صوتها الخافت، النائي، يجمد أوصالي. "أنا مذعورة."

ترى اللحظة بأم عينيها كيف لخطتهما أن بدأت تنهار، رغم دلائل النجاح الأولية. جسدها يرتعش. فإصرارها على ادعاء براءتها لا ينطلي على أحد. وقوعها الوشيك في عراك مع كلود قد فتح عينيها على حقيقة أن ذاتها الجديدة المستقلة وحيدة. نبرته الساخرة نبرة جديدة عليها، تخيفها، وتشتت تفكيرها. وهي تتوق إليه، رغم نبرته هذه، رغم تلطخ

لمساته وقبله بدم جريمتهما. موت أبي لن يكون حبيسًا، فقد كسر قيده وفر من اللوح أو الجارور المعدني في مستودع الجثث وها هو يطفو في نسيم المساء، على طريق لندن الدائري الشمالي، أعلى سطوح شمال لندن ذاتها التي تتأملها من النافذة. وها هو معهما في الحجرة الآن، في شعرها، على يديها، وعلى وجه كلود – قناع مشع فاغر الفاه دون أي تعبير يتأمل الهاتف في يده.

"اسمعي،" يقول لها في نبرة تبادل الحديث على مائدة فطور يوم الأحد. "من صحيفة محلية. عدد الغد. عثر على جثة رجل على كتف طريق "M1" الصخري بين تقاطع كذا وكذا. ما يزيد عن ألف مكالمة تلقتها النجدة من سائقي السيارات العابرة إلخ. أعلن عن وفاة الرجل لدى وصوله المستشفى، كما تؤكد الناطقة باسم الشرطة إلخ. لم يعلن بعد عن الاسم ... هاك اسمعي. الشرطة لن تتعامل في هذه المرحلة مع الوفاة على أنها عمل جنائي."

"في هذه المرحلة،" تتمتم أمي. من ثم يعلو صوتها. "لكنك لا تفهم ما الذي أحاول قوله –"

"أفهم ماذا؟"

"هو ميت. ميت. كم أنا... و..." والآن تجهش في البكاء. "أنا موجوعة."

ولكي أكون منصفًا، كلود يرد عليها ردًا منطقيًّا. "ما أفهمه أنك أردته ميتًا والآن – "

"أوه جون!" تنوح نادبة.

"إذن فلنشد شجاعتنا حتى لا أدري أين ونمضي قدمًا.[47]"

(47) But screw your courage to the sticking-place, and we'll not fail: اقتباس عن مسرحية شكسبير مكبث على لسان ليدي مكبث في حوار يعبر فيه مكبث عن شكوكه ومخاوفه من عواقب ارتكاب جريمتهما وذلك على

"لقد ... ارتكبنا ... شيئًا فظيعًا،" تقول له، غافلة عن خروجها عن دور البريئة.

"عوام الناس ما كانوا ليتحلوا بالشجاعة على فعل ما فعلناه. لذا هاك. اسمعي. ليتون هيرالد وبوست. "صباح البارحة – "

"أرجوك! أرجوك توقف."

"حسن، حسن. على كلٍّ هو ذات الكلام."

والآن هي ساخطة. "يكتبون، **رجل ميت** وكأنه هباء منثور. مجرد كلمات. طباعة. لا فكرة لديهم عما تعني."

"لكنهم محقون. اسأليني فأنا أدرى. حول العالم هناك مئة وخمس أشخاص يموتون كل دقيقة. ميتتان في الثانية. من شأن هذا أن يجعلك تريْ الحياة بمنظور مختلف."

تأخذ ثانيتين كي تستوعب ما سمعته. من ثم تبدأ بالضحك، ضحكة في غير محلها، خاوية من المرح وسرعان ما تستحيل نحيبًا، وفي غمرة هذا النحيب يتسنى لها التفوه أخيرًا. "أنا أكرهك."

يدنو منها، يده على ذراعها، ويهمس في أذنها. "كره؟ أوه لا تثيريني من جديد."

لكنها تثيره. بين قُبَله ودموعها تقول له، "أرجوك كلود، توقف."

لا تستدير نحوه ولا تدفع به بعيدًا. أصابعه أسفل رأسي، تتحرك على مهل.

" أوه لا،" تهمس مقتربةً منه. "أوه لا." الحزن والجنس؟ لي أن أنظّر وحسب. الدفاعات ضعيفة، الأنسجة الرقيقة ترق أكثر، المقاومة

النحو التالي: "مكبث: وإذا أخفقنا؟ - ليدي مكبث: نحن نخفق؟ فقط شد شجاعتك حتى نقطة ثباتها، ولن نخفق." (تعريب جبرا ابراهيم جبرا) ومن الجدير بالملاحظة أن هذه العبارة الشهيرة قد نالت نصيبًا كبيرًا من التحليل لمعرفة ما الذي كان يقصده شكسبير بـ "sticking place" لذا نرى أن رد كلود إشارة إلى هذا الجهل بقوله (لا أدري أين).

العاطفية تخضع صاغرة للخوف الطفولي من الهجران. أتمنى ألا أعرف أبدًا.

قد سحبها صوب الفراش، خلع عنها خفي صندلها، ثوبها الصيفي القطني، ونادى عليها مرةً أخرى بفأرتي، مرة واحدة وحسب. يدفع بها على ظهرها. القبول قد يغدو شائكًا. فهل المرأة الثكلى برفعها ردفيها كي تتحرر من سروالها الداخلي تمنح بذلك قبولها؟ سأقول كلا. تضطجع على جانبها – البادرة الوحيدة التي تأخذها. بينما أنا، أنغمس في حبك خطة، بادرة الحل الأخير. رصاصتي الأخيرة.

يجثو جانبها، على الأرجح عاريًا. في وقت كهذا، أسأل نفسي كيف للأمور أن تسوء أكثر؟ وها هو يؤمن الإجابة بطرفة عين: المخاطرة الطبية العالية، في هذه المرحلة المتقدمة من الحمل، للنكاح التقليدي. يدمدم أوامره – يا لأسلوبه الفاتن – يقلبها على ظهرها، يفرق ساقيها بضربة عنيفة من ظاهر يده، ويستعد، كذا تقول لي الفرشة، كي يجثم بجسده الضخم نحو جسدي.

خطتي؟ كلود يسبر النفق نحوي وعليّ أن أفكر بسرعة. نحن الآن نتأرجح، الفراش من أسفلنا يصر تحت ضغط كبير. عويل إلكتروني في أذنيّ، عيناي جاحظتان وتؤلماني. أعوز كلتا ذراعيّ، كلتا يديّ، لكن لا مساحة كافية. سأقولها بسرعة: أنوي قتل نفسي. موت رضيع، جريمة جنائية وقعت إثر اعتداء عمي المتهور على امرأة ثكلى في مرحلة متقدمة من الفصل الثالث لحملها. سيقبض عليه، يحال إلى المحاكمة، ويحكم عليه بالسجن. وبذا أكون قد أخذت بنصف ثأر أبي. لماذا النصف؟ لأن بريطانيا لا يهون على قلبها الرقيق إعدام القتلة. وسأعطي كلود درسًا لن ينساه في فن الإيثار الإجرامي. كي أزهق روحي فأنا في حاجة إلى الحبل،

ثلاث لفات من هذا السلك القاتل حول عنقي. تتناهى إليّ من بعيد تنهدات أمي. الحكاية المختلقة لانتحار أبي هي إلهام محاولتي. الحياة تحاكي الفن. فأن أولد سقطًا – تسمية استعارية مجردة من فاجعة الموت – تغريني ببساطتها. والآن ها أنا أشعر بخبطاته على جمجمتي. كلود يتسارع، وها هو الآن يعدو، لاهثًا كما الحصان. عالمي يرتج، إلا أن عقدة أنشوطتي في مكانها، كلتا يديّ تقبضان على الحبل، أسحبه إليّ بكل قواي، ظهري منحن، أسحب وأسحب مثلي مثل قارع جرس كنيسة متفان. كم الأمر هين. خناق لزج حول شرياني السباتي، قناة الدفق الرئيسة المحببة لدى ناحري الأعناق. بيدي أن أفعلها. أقوى! إحساس من الدوار يعتريني، أتقلب دون هدى، الصوت يغدو طعمًا، اللمسة تستحيل صوتًا. السواد يغمرني، أسود ما رأيت في حياتي، وأمي تهمهم لي وداعها.

لكن بالطبع، أن تقتل دماغك يعني قتل إرادتك على قتل دماغك. فما إن أشعر بالتلاشي، إذ بقبضتي يديّ تهنان وروحي تعود إليّ من جديد. واللحظة، أسمع صوت الحياة – أصواتًا حميمة، كأنها تصلني عبر جدران فندق رخيص. من ثم أعلى، وأعلى. هو صوت أمي. ها هي قد انطلقت في واحدة من جولاتها الخطرة المثيرة على **جدار الموت**.

بيد أن **جدار الموت** في سجني شاهق جدًا. هويت منه، وقعت على ظهري وعدت بخفي حنين إلى ساحة التمارين الخلفية لزنزانة الوجود الصامت.

وأخيرًا، كلود يسحب عني وزنه المقزز – من مقعدي أحييه على إيجازه الفظ – وها أنا أستعيد مساحتي، رغم شعوري بوخز في كلتا ساقيّ. أتعافى الآن مما جرى، بينما ترودي تستلقي على ظهرها، منهكة

كما العادة إثر الإرهاق الجسدي والندم الدنيوي.

***

ليست ملاهي الفردوس والجحيم ما أخشاه – الجولات الفردوسية، الحشود الجهنمية – ولا أمانع التعايش مع إهانة النسيان الأبدي. حتى أني لا أمانع جهلي معرفة أي من تلك المصائر هي مصيري. خشيتي الحقيقية هي تفويت فرصتي. سواء دليل عافية أم طمع، فأنا أريد حياتي أوّلًا، نصيبي منها، مثقال الذرة من الزمن السرمدي والفرصة الحقيقية في اعتناق الوعي الإنساني. القدر يدين لي بحفنة من العقود أجرب فيها حظي على عجلة الدهر الجامحة. هي هذه جولتي – **جدار الحياة**. أريد إشارة الانطلاق. أريد أن أكون. بمعنىً آخر، هناك كتاب أودّ قراءته، لم يُنشر بعد، ولم يُكتب بعد، وإن كانت فصوله الأولى قد كُتبت. أريد الوصول في قراءة تاريخي عن القرن الحادي والعشرين حتى نهايته. أريد أن أكون هناك، على الصفحة الأخيرة، في نهاية عقدي الثمانيني، واهن لكن مرح، أرقص الجيغ في أمسية الحادي والثلاثين من كانون عام 2099.

وقد تنتهي فصول الرواية قبل ذاك التاريخ لذا أعتبره كتابًا مثيرًا، عنيفًا، استثنائيًّا، قابلًا للتسويق وسيحقق أعلى المبيعات. الخلاصة الوافية للأحلام، مع وجود عنصر الرعب. لكن حتمًا سيتضمن قصة الحب، والحكاية البطولية لاختراع ذكي. وكي تأخذ فكرة، فكل ما عليك فعله هو قراءة التمهيد، المئة عام السابقة. قراءة كئيبة ومروّعة، على الأقل إلى أن تصل النصف، إلّا أنها آسرة. مع فصول تعوّض عن فظاعة المحتوى، مثل تلك حول آينشتاين وسترافينسكي. في الكتاب

الجديد، أحد خطوط الحبكة العدّة التي لم تحل بعد هو التالي: هل سيتسنى لأبطال الرواية، التسع مليارات بطل، شق طريقهم في هذا القرن الجديد دون تبادل للقنابل النووية؟ تصورها لعبة رغبي، ولنصُفّ الفرق المشاركة. الهند ضد باكستان، إيران ضد السعودية، إسرائيل ضد إيران، الولايات المتحدة ضد الصين، روسيا ضد الولايات المتحدة وحلف الشمال الأطلسي، وكوريا الشمالية ضد الجميع. وكي تزيد من فرص تسجيل هدف، أضف لاعبين أكثر: اللاعبون المرتزقة سيلبّون الطلب.

إلى أي حدٍّ أبطالنا عازمون على إضرام النار في الموقد المناخي؟ درجة ونصف سيليزية أكثر. هذا الرقم الذي يحذر منه القلة ويأمل به القلة، سيحيل السهول الجرداء في القطب الشمالي إلى جبال من قمح، شواطئ البلقان إلى حانات يونانية، والمناطق الشمالية الغربية إلى موطن الفراش الأفريقي. أما وفق التوقع الأكثر تشاؤمًا، فريح صرصر على أربع درجات سيليزية ستودي إلى كوارث بين فيضانات وجفاف في أجواء سياسية هائجة ملبدة بالسحب السوداء. وهناك الحبكات الثانوية ذات الطابع المحلي: هل سيظل الشرق الأوسط حبيس نوبة السُّعار، هل سيهجر أرضه ويتدفق على أوروبا فيغيرها إلى الأبد؟ هل سيغمس الإسلام إصبعه المتطرفة المحمومة في بركة الإصلاح الديني الفاترة؟ هل يا ترى ستقتنع إسرائيل وتتنازل عن شبر أو شبرين من الصحراء إلى هؤلاء الذين هجَّرتهم؟ هل ستغرق أحلام أوروبا العلمانية في كيان موحد أمام موج العداوات القديمة، إحياء جذوة المشاعر القومية، وقوع نكسة اقتصادية، وضجيج النقاشات البيزنطية. أو لعلها ستتجاوز كل هذا وتظل ثابتة على مسارها في تحقيق مصيرها. لا

بد لي أن أعرف. هل سيأفل عصر سطوة الولايات المتحدة في هدوء؟ لا أظن. هل ستتعامل الصين بضمير، روسيا؟ هل المؤسسات المالية العالمية ستكلف نفسها حتى عناء الضمير؟ وبعد كل تلك التساؤلات الكبرى، نعود إلى الثوابت الإنسانية المغرية: الجنس والأدب والفن، النبيذ والعلم، الكاتدرائيات، الطبيعة، السعي الروحي إلى إيجاد معنى. وأخيرًا، المحيط الشخصي من الرغبات – محيطي أنا، الوقوف حافي القدمين على شاطئ حول نار مخيّم، سمك مشوي، عصير ليموناده، رفقة الأصدقاء، وشخص، ليس ترودي، أحبه ويحبني. هو ذا حقي الشرعي ملخّص في كتاب.

لذا أنا خَجِل من محاولتي، ومرتاح البال لفشلي. الأخذ بثأري من كلود (أسمع الآن صدى دندنته من الحمام) لا بد أن يتحقق بطريقة أخرى.

بالكاد مرت خمس عشرة دقيقة منذ تعريته أمي. أشعر أننا ندنو من ساعة جديدة في المساء. على وقع صوت الماء المتدفق من الرشاش أسمع هتافه بأنه جائع. مع تجاوزها الفعلة المذلة في حقها وعودة قلبها إلى نبضه الطبيعي، أظن أن أمي ستعود لتتقمص ادّعاءها البراءة. وقْع حديث كلود عن العشاء سيبدو في غير محله. بل إنه مقزز. تنهض عن الفراش، تسحب ثوبها، تعثر على سروالها الداخلي بين الملاءات، تدس قدميها في خفي صندلها وتدلف صوب طاولة زينتها وتجلس أمام مرآتها. تبدأ في جَدْلُ ضفائرها، فشعرها إن لم يُجَدّل، يلتف في عقص شقراء احتفى بها زوجها يومًا في قصيدة. جدل شعرها يمنحها الوقت الكافي لاستعادة رباطة جأشها والتفكير في خطوتها القادمة. ستدخل الحمام متى ما غادره كلود. ففكرة وجودها جانبه الآن تنفرها.

تقزّزها يبعث فيها حِسًّا من العِفّة والغاية. قبل ساعات معدودات كانت هي من يمسك زمام السيطرة، وبيدها تكرار ذلك، بشرط مقاومة إغراء سقيم ذليل آخر. هي الآن في وضع جيد، منتعشة، شبعة، محصنة، لكن الرغبة تتربص بها، هذه الدودة الصغيرة قد تتضخم مرةً أخرى إلى وحش نهم، يشتت أفكارها، يجرها على ركبتيها نحو الهاوية – إلى فأرة في يد كلود. بيد أن الرغبة في السلطة ... أتصورها تُمَنّي النفس بامتلاكها تلك السطوة متأملةً ميل انعكاس محيّاها الجميل على المرآة لدى جدلها ضفيرة أخرى. إطلاق الأوامر كما فعلت هذا الصباح في المطبخ، تخطيط الخطوة اللاحقة، سيتحقق لها إن امتلكت هي زمام المبادرة. ليتها فقط تتجاوز اضطراب مشاعرها وتعتنق كليًا أداء دور الثكلى الحزينة البريئة المصدومة.

في الوقت الحالي، هناك مهام عملية لا بد من تنفيذها. كل الأواني الملطخة، الأكواب البلاستيكية، التخلص من الخلاط نفسه ورميه بعيدًا عن البيت. فرك المطبخ من أي أثر. أكواب القهوة وحسب يجب أن تبقى محلها على الطاولة، غير مغسولة. هذه المهام المملة ستبقي الرعب بعيدًا عن ناظريها ساعة. ربما لهذا تمسد بيد مطمْئِنة الهضبة التي تحويني، أشعر بلمستها أسفل ظهري. بادرة حب، إشراقة أمل، نحو مستقبلنا معًا. كيف لها أن تفكر الآن في التخلص مني؟ هي في حاجة إليّ. أنا الضياء الذي سينير هالة البراءة والشجن حولها. الأم وطفلها – ديانة عظيمة حبكت أروع قصصها حول هذه الرمزية الطاغية. جالس على ركبتها، أشير بإصبعي نحو السماء، سأصيّرها حصينة ضد أصابع الاتهام. ومن جهة أخرى – كم أمقت هذه العبارة – فلا استعدادات هناك لاستقبالي، لا ملابس، لا أثاث، لا أثر لغريزة الأمومة القهريّة لبناء

عُشّ. مذ وعيت، لم أتواجد من قبل في متجر برفقة أمي. المستقبل الأمومي الحنون الذي يراودني ليس سوى أضغاث أحلام.

كلود يخرج من الحمام ويتجه صوب الهاتف. الطعام هو ما يشغل باله، يتمتم رغبته بطلب توصيل طعام هندي. تخطو حوله وتدخل الحمام كي تأخذ دورها في طقوس غُسْلها. لدى خروجنا نجده ما زال بعد على الهاتف. قد تخلى عن فكرة الطعام الهندي واستبدله بالدنمركي – شطائر مفتوحة، رنجة مخللة، فطائر لحم. يبالغ في كمية الطلب، اندفاع طبيعي نحو الشراهة بعد ارتكاب جريمة قتل. ما إن يفرغ من الطلب، تقف ترودي جاهزة، الضفائر مجدولة، الجسد مغسول، السروال الداخلي نظيف، ثوب جديد، حذاء بدلًا عن الصندل، نفحة عطر. على أهبة الاستعداد لاستلام زمام السيطرة.

"هناك حقيبة قماشية قديمة في الخزانة أسفل السلالم."

"سآكل أولًا. فأنا ميت من الجوع."

"انهض الآن. قد تعود الشرطة في أي لحظة."

"سأفعلها بطريقتي."

"بل ستفعل كما –"

هل كانت فعلًا على وشك أن تقول "تؤمر"؟ يا للمدى الذي قطعته، معاملته كما لو كان طفلًا، بعد أن كانت قبل لحظة حيوانه الأليف. ربما كان سيتجاهلها. ولربما كانا سيدخلان في شجار. لكن ما يفعله الآن هو التقاط الهاتف. ليسوا بجماعة الدنمرك يؤكدون استلامهم الطلب، ولا حتى ذات الهاتف. أمي تمشي وتقف الآن خلفه كي ترى. ليس بالهاتف الأرضي، بل الهاتف المرئي. كلاهما يحدق في الشاشة، في ذهول. الصوت يصلني مشوهًا، مجردًا من النغمات المنخفضة، واه،

في التماس يقطع نياط القلب.

"أرجوكما. لا بد أن أراكما الآن!"

"إلهي،" تقول أمي في نبرة اشمئزاز جلية. "ليس الآن."

لكن كلود، من استفزته أمي التو بتأمُّرها عليه، وجد الفرصة سانحة كي يؤكد استقلاليته. يضغط على الزر، يعيد الهاتف مكانه، ولحظة صمت تسود بينهما. لا يملك أحدهما شيئًا يقوله للآخر. أو لعل هناك كلام كثير.

وها نحن جميعًا ننحدر نحو الطابق الأرضي في استقبال شاعرة البوم.

الفصل الرابع عشر

بينما نهبط درجات السلالم، يتسنى لي وقت أمحص فيه نعمة افتقادي العزيمة، هزيمة شانق نفسه على يد أنشوطته. هناك مساع نأخذها في الحياة محتوم عليها الفشل مذ تكن نطفة، لا بفعل الجبن بل لأنها في طبيعتها فاشلة. فرانز ريخلت، **الخياط الطائر**، قد قفز إلى حتفه من برج إيفل عام 1912 مرتديًا بدلة باراشوت فضفاضة، موقنًا أن اختراعه هذا سينقذ حياة الطيارين. لأربعين ثانية ظل واقفًا قبل أن يقفز. ما إن مال أخيرًا للأمام وخطت قدمه نحو الفراغ، التيار الهوائي الصاعد لف قماش الباراشوت حول سائر جسده، وإذ به يهوي كما الحجر. الحقائق، الحسابات الرياضية، كلها وقفت ضده. صدمة ارتطام جسده الهاوي على الأرض الباريسية المتجمدة أسفل برج إيفل خلفت قبرًا ضحلًا على عمق خمسة عشر سنتيمتر.

تأملات الموت هذه تعود بي، مع التفاتة ترودي على مبسط السلم الأول متمهلة، إلى مسألة الانتقام. فقد تجلت المسألة لي وبت الآن مرتاح الضمير. الأخذ بالثأر: الدافع غريزي، طاغ – ومغفور. سواء أهانك أحدهم، خدعك، أم جدع أنفك، فلن يكون بيدك ولا بيد أحد مقاومة إغراء التأمّل في الأفكار الانتقامية. في حالتي أنا، وقد أصابني ما هو أبشع

بكثير، مع فقدي حبيبًا على يد قاتل خسيس، فالخيالات الانتقامية نار مستعرة. فنحن مخلوقات اجتماعية، واعتدنا فيما مضى إبقاء الآخر ضمن حدوده إما بالعنف أو التهديد باللجوء إليه، مثلنا مثل قطعان الكلاب. وما نزال نولد مع هذه التوقعات اللذيذة. فما حاجتنا إلى الخيال إذن إن لم يكن لأجل ابتداع سبل الانتقام الدامية والاستغراق فيها وتكرارها في مخيلتنا؟ في ليلة أرق واحدة، لنا أن نأخذ بثأرنا بدل المرة ألفًا. الدافع، النية الخيالية، هي في صلب الطبيعة الإنسانية، وبذا علينا أن نغفر لأنفسنا تأملاتنا.

غير أن اليد المرفوعة، التنفيذ الفعلي للعنف، خطيئة ملعونة. كذا تقول الحسابات الرياضية. لن يكون هناك من عودة إلى الوضع السابق، قبل كشفك ورقك على طاولة القمار، لا بلسم ناجع، لا تنهيدة ارتياح، أو على الأقل تنهيدة دائمة. ما يتبقى لك هو جريمة ثانية. قبل أن تسلك دربك نحو الانتقام، احفر قبرين، كذا يقول كونفوشيوس. الأخذ بالثأر يمزق عرى الحضارة. هي الردة إلى الهمجية، إلى عصور الخوف المظلمة. هاك، تأمل الألبان البؤساء، وكيف يعيشون مذعورين تحت السيف المسلط للقانون، تقليدهم الدموي الغبي في حل نزاعاتهم.

لذا حتى مع بلوغنا مبسط السلم خارج مكتبة أبي العزيزة، أُعْتِقُني، لا من الأفكار الانتقامية، بل من تنفيذها، من الأخذ بثأر أبي في هذه الحياة والحياة اللاحقة لما بعد مولدي. وأُعْتِقُني من تهمة الجبن. فأنا لست بجبان. محو كلود من الوجود لن يعيد إليّ أبي. وقد قررت مدَّ الأربعين ثانية التي تردد فيها ريخلت إلى حياة بأكملها. لا للتهور. لو أني نجحت في محاولتي مع الحبل، لكان الحبل، لا كلود، هو الملام في عين أي طبيب شرعي. حادثة مؤسفة، كذا كان سيدوّن في شهادة وفاتي،

وليست حتى بالحادثة النادرة. لكنت بفعلتي هذه قد منحت ارتياحًا غير مستحق إلى كلود وأمي.

وإن تسنى لي الاستغراق في هذه التأملات لدى هبوطنا السلالم فذلك لأن ترودي تهبط الدرجات على مهل، أبطأ من السلحفاة. وعلى غير عادتها، ها هي يدها قابضة على الدرابزين بثبات. تخطو بتؤدة على كل درجة، تتريث عند بعضها، تتفكر، تتنهد. أعرف إلى ما سيؤول موقف كهذا. وجود الضيفة سيعرقل القيام بالمهام المنزلية المطلوبة. الشرطة قد تعاود القدوم في أي لحظة. وترودي ليست في مزاج ملائم لخوض معركة غيرة حول أحقية الحزن. فهناك مسألة الأسبقية. يكفي أنهم تجاوزوها عنوة في حقها التعرف على الجثمان – الضغينة تعتلج في صدرها. فمن تكون إيلودي هذه سوى عشيقة حديثة. ولعلها ليست حديثة. لربما سبق وجودها مرحلة الانتقال إلى **شورديتش**. جرح جديد تنتظره يندمل. ثم لم عساها قدمت إلى هنا؟ بالتأكيد لم تأتِ لأجل تلقي السلوان أو منحه. لربما تعرف أو تملك دليلًا دامغًا على جريمتهما. بيدها رمي كلود وترودي إلى قطيع الكلاب تمزقهما إربًا. أو لعله ابتزاز. أو لعلها هنا لأجل مناقشة ترتيبات الدفن والجنازة. لا، لا، لن تطيق أي شيء من هذا! بالنسبة إلى أمي، كل هذه الاحتمالات ستتطلب منها بذل مجهود في التفاوض. وكم شاقّ عليها، فوق كل ما تعانيه الآن (آثار الثمالة، الجريمة، إرهاق الجنس الشبق، الحمل المتقدم) أن تجبر أمي نفسها على بذل مجهود مضاعف في مد يد الكراهية المتملقة إلى الضيف الواقف عند الباب.

لكنها توطد العزم. ضفائرها المجدولة بإتقان تستر دواخلها عن أعين الجميع إلا عينيّ، سروالها الداخلي – من القطن لا الحرير كما يوحي

إليّ ملمسه – وثوبها الصيفي القصير الموشى بنقش الزهر - منسدل لكن ليس فضفاضًا - نظيفان مرتبان. ذراعاها العاريتان المتوردتان، ساقاها العاريتان المتوردتان، أظافر قدميها المطلية بلون البنفسج، جمالها المعروض في أوج فتنته - لا يختلف عليه اثنان – هو سلاحها المرفوع في يدها. تتقمص اللحظة صورة السفينة الحربية في الصف الأمامي، مجهزة بكامل عتادها رافعة أشرعتها، وفوهات بنادقها منخفضة. هي سيدة المعركة، وأنا تمثال فخرها المنصوب على مقدم السفينة. تهبط السلالم في حركة انسيابية وإن متقطعة. أيًا يكن المصير الذي ينتظرها، ستكون على قدر الوقوف في وجهه.

ما إن نصل الردهة حتى نجد أن المواجهة قد بدأت. وعلى نحو سيئ. فالباب الأمامي قد فتح وأغلق. إيلودي في الداخل، بين ذراعيْ كلود.

"لا بأس، لا بأس. هَوِّني عليك،" يتمتم بين جملها الباكية المتقطعة.

"لا يجدر بي. من الخطأ. لكني. أوه كم أنا آسفة. لا أتصور. بالنسبة إليك. أخوك. لا يسعني. لا يسعني."

أمي تقف عند الدرجة الأخيرة من السلم، متسمرة، يراودها الشك، لا اتجاه الضيفة وحسب. كرب من النوع الملحمي.

إيلودي لا تعي بعد وجودنا. لا بد أن وجهها اتجاه الباب. الخبر الذي تحمله معها تبلغنا إياه في نشيج متقطع. "ليلة الغد. خمسون شاعرًا. من كل أنحاء. آه، كم أحببناه! نتلو القصائد في **بثنال. المكتبة الخضراء**. أو خارجًا. شموع. كل شاعر قصيدة. وكم نتمنى حضوركما."

تتوقف كي تمخط أنفها. وكي تفعل ذلك تحرر نفسها من عناق كلود وتقع عيناها على ترودي.

"خمسون شاعرًا،" يردد كلود في نبرة يائسة. فلا شيء يقززه أكثر من تخيل وجوده بينهم. "هذا عدد كبير."

تستعيد رباطة جأشها بعض الشيء، لكن صدى الشجن في كلماتها يعيدها إلى النحيب من جديد. "أوه، أهلًا ترودي. كم أنا آسفة، آسفة. إن أردتِ، أو كلود، أن تقولا شيئًا حينها؟ لكن سنتفهم. إن لم. إن لم ترغبا. فكم من الصعب."

تتوه عنا في غمرة حزنها، طبقة صوتها ترتفع إلى نبرة أقرب إلى الهديل. تحاول جهدها الاعتذار وفي النهاية نسمع منها، "مقارنةً بما تشعرين. كم أنا آسفة! ليس من حقي."

هي مُحقّة، من وجهة نظر ترودي. فها هي تسطو على مكانتها مرةً أخرى. تحل محلها في العويل، تستبقها إلى البكاء على فجيعتها، أما ترودي فتظل على جمودها، عدم تأثرها، عند السلم. هنا في الردهة، حيث لا بد نفحة من النتانة ما تزال عالقة في الأجواء، نقف جميعًا عالقين في حلقة اجتماعية مفرغة. نستمع إلى نحيب إيلودي والثواني تمر علينا. فما العمل الآن؟ كلود من يحمل الجواب.

"دعنا نذهب للأسفل. هناك قنينة بولي فوميه في البراد."

"لا داع. أنا جئت وحسب كي."

"من هنا."

وبينما يدلها كلود على الطريق متجاوزًا أمي، لا بد أنهما تبادلا نظرة – من جهتها نظرة توبيخ غاضبة ومن جهته هزة لا مبالية. المرأتان، مع أن بوصات وحسب تفصل بينهما، لا تتعانقان ولا تتلامسان ولا حتى تتبادلان كلمة. ترودي تتركهما يتقدمانها، بينما نتجه جميعًا نحو المطبخ، حيث الدليلان الدامغان، بقع الغليكول والسموذي من **شارع**

جد، مستتران في قلب الفوضى.

"إن أردتِ،" تقول أمي ما إن تطأ قدماها ألواح الأرضية الدبقة، "فأنا متأكدة أن كلود سيعد لك شطيرة."

هذا العرض البريء يخفي أشواكًا كثيرة: فالعرض غير لائق في مناسبة كهذه، وكذا القبول به؛ كلود لم يسبق له أن أعد شطيرةً في حياته؛ لا خبز هناك أصلًا في البيت؛ ولا شيء يوضع بين شريحتي الخبز سوى غبار الجوز المملح. وأصلًا من عساه ينجو من تناول شطيرة أعدت في مطبخ كهذا؟ قصدًا، تتعمد عدم عرضها إعداد الشطيرة بنفسها؛ قصدًا، تجمع إيلودي وكلود في زمرة واحدة؛ قصدًا، تعمد النأي بنفسها عنهما. عرضها هذا هو اتهام، رفض، انسحاب بارد حزَمَتهم في صُرّة عرضها الكريم. ومع أني لا أؤيد تصرفها هذا، لكن لا يسعني منع نفسي من الانبهار بها. فكَيْدٌ كهذا لا تتعلمه من حلقات البودكاست.

نبرة العدائية في عرض ترودي له أثر إيجابي على نظم إيلودي الكلام. "لا يسعني تناول شيء، شكرًا."

"بوسعك أن تشربي." يقول كلود.

"أجل. بوسعي."

من ثم يتناهى إليّ الجلبة المعهودة ذاتها – باب البراد، الرنة الطائشة للمبرام على زجاج القنينة، الطنة الجهورية لانتزاع السدادة، الكؤوس من الليلة الماضية تشطف أسفل مياه صنبور مغسلة المطبخ. **بولي**. على ضفة النهر المقابلة من **سونسير**. ولم لا؟ فقد أزفت الساعة السابعة والنصف. حبات العنب الصغيرة بحبها الرمادي ستروق لنا في ليلة حارة من ليالي صيف لندن الومدة. لكني أرغب بأكثر من هذا. يتراءى لي أني وترودي لم نتناول لقمة لأسبوع. الآن وقد استمعت إلى

طلبية كلود على الهاتف، تغمرني شهوة جارفة نحو تناول طبق ثانوي، عتيق، طبق الرنجة مع البطاطا والشبنت. رنجة مدخنة زلقة، بطاطا ناعمة طازجة، العصرة الأولى من زيت الزيتون، بصل، البقدونس المقطع – آه كم أتوق إلى تناول مُقبّلات كهذه. وكم سأستلذ برشفة البولي فوميه برفقته. لكن كيف بيدي إقناع أمي؟ لكان من الأسهل عليَّ حزُّ عنق عمي. تلك الدولة الأنيقة، خياري الثالث، لم تبد يومًا أبعد عن متناول يديّ.

كلنا جالسون إلى الطاولة الآن. كلود يصب، والكؤوس ترفع في نخب كئيب بصحة الميت.

في غمرة الصمت، تهمس إيلودي بقلب جزع: "لكن الانتحار. لا يبدو ... لا يبدو من شيمه."

"في الحقيقة،" تقول ترودي، وتترك جملتها معلقة في الهواء. فقد لمحت الفرصة وستنتهزها. "منذ متى تعرفينه؟"

"عامين. حين درَّس –"

"إذن ما كنت لتعرفي شيئًا عن نوبات الاكتئاب."

صوت أمي الهادئ يضغط على قلبي. يا له من مبعث سلوان لها، الإيمان بحكاية اكتئاب منطقية حيث المرض العقلي والانتحار مترابطان.

"أخي لم يكن من أولئك الأشخاص الذين يرون الدنيا ربيعًا."

كلود، قد بدأت أعي الآن، ليس بكاذب من الطراز الرفيع.

"لم تكن لدي أدنى فكرة،" تقول إيلودي في صوت خفيض. "فلطالما كان كريمًا معطاء. لا سيما معنا نحن، تدرين، الجيل الشاب من –"

"جانب آخر من شخصيته،" تقاطعها ترودي في نبرة حازمة. "أنا سعيدة أن طلبته لم يروه فيه."

"حتى في طفولته،" يقول كلود. "مرةً حمل مطرقة إلى –"

" ليس بالوقت المناسب لقصص كهذه." وبمقاطعتها كلود خلقت ترودي من هذه القصة قصةً مثيرة.

"أنت مُحقّة." يجيبها. "فقد أحببناه رغم كل شيء."

أشعر بيد أمي ترتفع إلى وجهها إما كي تخفي دمعةً أو تمسحها. "لكن ما كان ليقبل الخضوع للعلاج. لم يتقبل يومًا حقيقة مرضه."

هناك اعتراض، أو شكوى، في نبرة صوت إيلودي لن تروق لا لأمي ولا كلود. "لا أجد أي منطق فيما حدث. فقد كان في طريقه إلى **لوتون**، كي يدفع إلى المطبعة. نقدًا. الفرحة لم تسعه إذ كان يسدد دينًا. وكان سيتلو الشعر هذه الليلة. في نادي كلية كنج للشعر. ثلاثة منا كنا سنحضر، تدرين، فريقه المساند."

"كان مغرمًا بقصائده." يعقب كلود.

وتصيح إيلودي مكروبة. "لم عساه يقف على قارعة الطريق...؟ هكذا. بينما انتهى من كتابه. وتم ترشيحه ضمن القائمة القصيرة لجائزة أودن."

"الاكتئاب وحش حقير." يفاجئني كلود بملاحظته هذه التي تنم عن بصيرة. "متى ما نشب براثنه فيك فكل ما هو جميل في حياتك –"

أمي تقاطعه. صوتها قاس. فقد طفح بها الكيل. "أعرف أنك أصغر مني. لكن هل عليّ فعلًا أن أرمي الحقيقة في وجهك كي تفهمي؟ دار النشر غارقة في الدين. هو غارق في الدين. غير سعيد في عمله. طفل على الطريق لم يرغب به. زوجة تضاجع أخاه. مرض جلدي مزمن. وفوق ذلك كله نوبات الاكتئاب. هل توضحت لك الصورة أم بعد؟ ألا ترين أن الوضع أصلًا مزر دون أن تزيديه سوءًا بحركاتك المسرحية، بحديثك

عن حلقات القراءة الشعرية والجوائز وإخباري أناكم أن الأمر لا يبدو لك منطقيًا؟ يكفيك أنك وجدت طريقك إلى فراشه. اعتبري نفسك امرأة محظوظة."

والآن دور إيلودي كي تقاطع ترودي، مع زعيق وصرير كرسي يرتطم على الأرض.

يسترعي انتباهي، في هذه اللحظة، أن أبي قد أخذ يتلاشى. مثل ذرة تسبح في الفضاء، هويته تنسل عن ذاكرتنا في رحيله عنا؛ أتراه الشاعر - المعلم - الناشر الناجح، الرجل الحازم، مَن بهدوء أعصاب وقوة عزيمة يعمل على استعادة بيته، بيت أبيه؛ أم تراه الرجل المنحوس، الديوث المخدوع، الساذج الأحمق الذي ينوء بثقل الديون والبؤس وافتقار الموهبة. كلما سمعنا أكثر عن أحدهما، قلّ إيماننا بالآخر.

أول صوت يصدر عن إيلودي يحمل في قلبه كلمةً ونحيبًا.

"أبدًا!"

صمت يخيم علينا، أستشعر فيه تناول كلود، من ثم أمي، كأسي شرابهما.

"لم يكن لدي أي فكرة عما كان ينوي قوله ليلة البارحة. لا شيء مما قاله حقيقي! كان يصبو إلى استعادتك من جديد. كان يحاول إثارة غيرتك. لم ينو أبدًا الرمي بك خارج البيت."

تخفض صوتها بينما تنحني وترفع الكرسي عن الأرض. "لهذا أنا هنا. كي أخبرك، واسمعيني جيدًا. لا شيء! لا شيء حدث بيننا قط. جون كيرنكروس كان محرري وصديقي ومعلمي. هو من ساعدني كي أصبح كاتبة. هل فهمت؟"

بصراحة أشك في حقيقة ما تدعيه، لكن الاثنين يصدقانها. فإن

لم تكن بالفعل عشيقة أبي ففي هذه الحقيقة خلاص لهما، لكني أرى أن ادعاءها يحمل في طيه احتمالات أخرى. امرأة لا موقع لها في حياة أبي العاطفية هي الشاهدة على كل الأسباب التي تدفعه لمواصلة حياته. يا لسوء حظنا.

"اجلسي،" تقول ترودي لها في نبرة هادئة. "أصدقك. رجاءً كفي عن الصراخ."

يعيد كلود صب الكؤوس. نبيذ البولي فوميه يبدو لي خفيفًا، لاذعًا بإفراط. ربما يافعًا، لا يليق بمناسبة كهذه. إن وضعنا المساء الصيفي الحار جانبًا، فقنينة نبيذ بوميرال هي الأنسب في التعامل مع العواطف الجياشة. ليت كان لدينا قبو نبيذ، لو كان لي أن أهبط إليه الآن، أتلمس طريقي في عتمته المغبرة وأتناول قنينة من أحد الرفوف. أقف في هدوء أتأمّلها لحظة، أخزر عيني وأقرأ، أومئ لنفسي اعترافًا بحكمة اختياري بينما أحملها معي إلى الأعلى. حياة الرشد، واحة بعيدة كل البعد. ليست حتى بسراب.

أتخيّل ذراعَي أمي متشابكتين على الطاولة، عيناها شاخصتان وصافيتان. لا أحد له أن يخمن العذاب الذي تعيشه اللحظة. جون لم يعشق أحدًا سواها. استحضاره ذكرى **دبروفنك** كان صادقًا من القلب، إعلانه كراهيته لها، أحلامه بخنقها، حبه لإيلودي – كلها أكاذيب من وحي الأمل. لكن إياها والانهيار، عليها أن تصمد وتتماسك. تتخذ لنفسها شكلًا، مزاجًا، يلائم دور المحقق الذي لا يتوانى عن طرح الأسئلة، في نبرة ليست بالعدائية.

"أنتِ مَن تعرّف على الجثمان."

إيلودي هي الأخرى قد هدأ روعها. "قد حاولوا الاتصال بك. لكن

ما من إجابة. كانوا قد تحصلوا على هاتفه، وقرأوا سجل مكالماته لي. بخصوص حلقة القراءة الليلة – لا شيء آخر. طلبت من خطيبي أن يرافقني، فقد كنت مذعورة."

"كيف بدا؟"

"تعني جون،" يقول كلود موضحًا.

"كنت متفاجئة. فقد بدا مسالمًا. إلا أن..." تتنهد تنهيدةً عميقة، تنهيدةً حادة. "إلا أن فمه، كان طويلًا جدًا، عريضًا جدًا، ممتدًا من الشدق إلى الشدق، مثل ابتسامة رجل مجنون. بيد أن فمه كان مغلقًا، مما أراحني."

من حواليّ، في الجدران وعبر الحجيرات القرمزية الكائنة خلفها، أشعر بالرعدة تسري في أوصال أمي. تفصيل جسديّ صغير آخر، وقد تنهار، وينهار معها كل شيء.

الفصل الخامس عشر

في بواكر حياتي الواعية إصبع من أصابعي، ولم يكن بعد خاضعًا لسيطرتي، لامس نتوءًا أشبه بالقريدس بين ساقيّ. ورغم أن القريدس ورأس إصبعي يقعان على مسافتين مختلفتين من دماغي، فقد استشعرا بعضهما في الآن ذاته، مسألة تستحق الاهتمام في علم الأعصاب تدعى بالمتلازمات. بعد أيام عدة تكررت الحادثة مع إصبع آخر. مراحل من النمو قطعتها واستوعبت المعنى الضمني. علم الأحياء هو تقرير المصير، والمصير رقميّ، وفي هذه الحال، ثنائي. حقيقة قاتمة وبسيطة جدًا. ففي قلب كل ولادة، جوهر الوجود اختزل على نحو غريب إلى التالي: إما – أو. لا خيار ثالث. لا أحد يهتف معلنًا لحظة خروجك المذهل، مبروك رزقت بإنسان! بل: رزقت بفتاة! رزقت بصبي! زهري أو أزرق – تحسُّن طفيف على عروض بيع هنري فورد السيارات بأي لون طالما كانت ضمن درجات الأسود. جنسان وحسب. كم خاب أملي. إن كان الجسد البشري، العقل البشري والمصير البشري على هذا القدر من التعقيد، إن كنا فعلًا نملك حرية الإرادة التي تفرقنا عن بقية الثدييات، فعلام إذن تقليص الاحتمالات إلى اثنين؟ كنت أفور غيظًا، لكن، مثلي مثل الجميع، قبلت بمصيري وقررت الاستفادة من إرثي قدرَ

ما أستطيع. ولا ريب أن التعقيدات المتضمنة في هذا الإرث ستصدمني مع الوقت. وحتى وقتئذ، فخطتي تقتضي بأن أولد إنجليزيًّا حُرًّا، ابن عصر ما بعد التنوير الإنجليزي الاسكتلندي الفرنسي. سأشكل ذاتي بالمتعة، الصراع، الخبرة، الأفكار، وحكمي الشخصي، كما تتشكل الصخور والأشجار بفعل المطر، الريح، والزمن. عدا ذلك، حبيسًا في عالمي، فهناك هواجس قلق أخرى تطاردني: مشكلة الشرب، القلق العائلي، والمستقبل الضبابي حيث إما سأواجه حكمًا بالسجن أو حكمًا بالحياة في رعاية حضن لوياثان اللامبالي، تتقاذفني بيوت الرعاية إلى أن أصل مكاني في الطابق الثالث عشر.

لكن مؤخرًا، وبينما أتعقب التبدل في علاقة أمي بجريمتها، تذكرت الأقاويل السارية عن شريعة جديدة في مسألة الأزرق والزهري. احذر مما تتمناه. هناك سياسة جديدة في الحياة الجامعية. قد يبدو هذا الاستطراد في غير محله، لكني أنوي تطبيقه بأقرب فرصة. كما الحال مع الفيزياء، لغة أهل الغال، أي شيء، أجدني معنيًا بالموضوع ومصممًا على فهمه. هناك حالة ذهنية غريبة تسيطر على الجيل الشاب المتعلم. فقد رفعوا راية النضال، أحيانًا بدافع الغضب، لكن في أغلب الأحيان بدافع الاحتياج، بدافع التوق إلى نيل مباركة السلطة، مصادقتها هويتهم المختارة. لعله تجسيد جديد لأفول الغرب. أو لربما هي دلالة تحرر النفس من قيودها. فها هو موقع تواصل اجتماعي مشهور يعرض واحد وسبعين خيارًا تحت خانة الجنس – المحايد، ثنائي الروح، ثنائي الجنس ... أي لون تشتهيه سيد فورد. الأحياء ما عادت تقرر المصير، وبات هناك داع للاحتفال. فالقريدس لن يقيد خياراتك ولن يثبت هويتك. وبذا بات شعوري عن نفسي الذي لا يقبل أي إنكار هو الأساس في تعريف

هويتي. إن تبيّن أنّي أبْيَض، فقد يحلو لي تعريف نفسي أسود. والعكس صحيح. حتى أني قد أعلن نفسي معاقًا، أو معاقًا ضمن السياق. وإن كانت هويتي دينية، فسأغدو سريع العطب، جسدي يتمزق ودمي ينزف بمجرد طرح أحدهم سؤالًا عن معتقدي. مجروح المشاعر، سأتقمص موقع الحظوة الإلهية. وفي حال حامت قربي آراءٌ لا أستسيغها كما الملائكة الهاوية أو شياطين الجن (حتى مسافة الميل أعتبرها قريبة) فسأحتاج أن تؤمّن لي الجامعة حجرة أمان فيها عجين الطين الملوّن وتعلّق على جدرانها صور جِراء تطفر مرحًا. آه، حياة النخبة المثقفة! وقد أحتاج إلى تحذير مسبق إن اقتربت مني كتب مثيرة للقلق أو أفكار تهدد جوهر وجودي، تلهث على وجهي، على عقلي، بأنفاسها الكريهة كما أنفاس الكلاب الضالة.

أنا أشعر، إذن أنا موجود. دعِ الفقر يَشحَذ، والتبدّل المناخي يُطبَخ على نار الجحيم الهادئة. ودعِ العدالة الاجتماعية تغرق في حبر مفكريها. أنا سأكون ناشط المشاعر، الروح المناضلة الصادحة، أحارب بالدموع والآهات في سبيل تشكيل المؤسسات حول ذاتي الهشة. هويتي هي كنزي الثمين، ملكيتي الوحيدة، بابي الوحيد على الحقيقة الأزلية. وعلى العالم بأسره أن يحب ذاتي ويرعاها ويحصنها من الأذى كما أفعل أنا. إن لم تبارك الجامعة هويتي، تمنحها المصداقية وتمنحني بالتبعية ما أحتاج إليه لرعايتها، فسألقي بنفسي على صدر نائب الرئيس وأبكي حرقةً على طيّة صِداره وبدموعي أبللها. من ثم سأطالب باستقالته.

الرحم، أو هذا الرحم، تبين أنه ليس بالمكان السيّئ على الإطلاق، لا يفرق كثيرًا عن القبر، "خصوصي وجميل" كما سمعتها في إحدى قصائد أبي المفضلة. سأشيد لنفسي رحمًا كهذا متى ما بلغت مرحلة

الجامعة، وسأضع جانبًا مفكري عصر التنوير من معريدي الإنجليز والأمريكان والفرنسيين. فليغرب العالم الواقعي، بحقائقه المملة وادعائه البغيض بالموضوعية. العاطفة هي الملكة الآن. إلا إن اختارت أن تعرّف نفسها ملكًا.

أدري، حس السخرية لا يلائم الأجنة. وعلام كان استطرادي؟ أني أجد أمي معاصرة لهذا الزمن الجديد. قد لا تدرك هي ذلك، بيد أنها هناك معهم ترفع راية النضال. فهويتها بأنها مجرمة هي حقيقة، واقع في العالم خارج نفسها. لكن هذا بات تفكير العصور القديمة. هي تؤكد، هي تعرّف نفسها بأنها بريئة. وحتى في غمرة إجهادها في مسح أدلة جريمتها عن المطبخ، تشعر بأن لا لوم يقع عليها وبذا تكون – شبه تكون – بريئة. فاجعتها، دموعها، هي دليل استقامتها. قد بدأت تقنع نفسها بقصة الاكتئاب والانتحار التي حبكتها. حتى أنها باتت قاب قوسين أو أدنى من تصديق الأدلة الزائفة التي زرعتها في السيارة. إن أقنعت نفسها فسيتسنى لها بكل سهولة ويسر إقناع من حولها. الأكاذيب ستغدو حقيقتها. بيد أن الحقيقة التي تشيدها ما تزال هشة وجديدة. وابتسامة أبي المروعة قد تهدها، تلك التكشيرة الميتة الجامدة العالمة بالحقيقة. لهذا، فأمي في أمس الحاجة إلى نيل صك المصداقية ومباركة ذاتها البريئة من إيلودي. ولهذا السبب تميل أمي للأمام الآن، تصطحبني معها، كي نصغي بحنان إلى الشاعرة وحديثها المتلعثم. فالشرطة لا محالة ستُحقّق مع إيلودي قريبًا. الحقائق التي تعرفها، والتي ستقود ذاكرتها وترتب سردها للأحداث، لا بد أن تتشكل الآن على يد أمي.

أما كلود، على خلاف ترودي، فمعترف بجريمته. هو رجل عصر النهضة، ميكافيليّ، الشرير التقليدي من يؤمن بأن بيده الإفلات

بجريمته. العالم لا يتجلى أمامه في سديم ذاتي يبحث فيه عن هويته؛ بل شعاعًا منكسر بفعل الغباء والطمع، في صورة محرفة كأنما ينظر إليها عبر عدسة زجاجية أو صفحة ماء، منقوشة على ساتر أمام عين بصيرته، كذبة ساطعة جلية كما لو كانت الحقيقة. فكلود يجهل أنه غبي. فإن كنت غبيًا، كيف لك أن تعرف؟ أجل حديثه متخبط مع تفوهه بكل تلك العبارات المبتذلة، لكنه واع تمامًا لفعلته والدافع وراءها. وسيتبجح بجريمته دون أن تطرف له عين، إلا إن قبض عليه وعوقب، وحينئذ لن يلوم نفسه أبدًا، سيلوم وحسب سوء طالعه، من ضمن أمور أخرى. لا مشكلة لديه في تقبل هويته التي ولد بها، في مطالبته بمكانة عظيمة بين العقلاء. أعداء التنوير سيدعون أن كلود هو تجسيدها الحي. هراء!

لكني مدرك ما يقصدون.

الفصل السادس عشر

إيلودي تزوغ مني، مثل قصيدة شبه منسية – قصيدة غير مكتملة ولا ريب. حين انحشرت بنا لدى مرورها الردهة، حين كنا لا نزال نراها فتاة أبي، أرهفت سمعي لعلي أسمع الصرير المغري لثيابها الجلدية. لكن لا، اليوم جاءتنا في طراز أنعم، ولخمّنْت، زاخر بالألوان، إذ عليها أن تبدو في مظهر لائق في حلقة القراءة الشعرية الليلة. حين كانت تنوح مكروبةً بدا صوتها صافيًا طبيعيًا. لكن ما إن بدأت تسرد وقائع زيارتها المَشرحة، تشبثها بمعصم حبيبها، عدت وتذكرت، مع تلاشي كل جملة تدمدمها، صوتها الحلقي المصقول بنبرته الشهية. والآن، بينما تمد أمي ذراعها فوق طاولة المطبخ كي تضم يد الضيفة بين يديها، أعود وأسمع حروف العلة تخرج من فمها كما وَقْوَقة البطة. وبعد اطمئنانها وارتياحها لثقة أمي بها، ها هي إيلودي، الشاعرة، تكيل المدح والثناء لقصائد أبي. السونيتات هي قصائدها المفضلة من بين قصائده.

"كان ينظمها باللغة الدارجة، لكن كم كانت عميقة، كم كانت موسيقية."

نحويًا، استخدامها تصريفَ الماضي بدا في محلّه، لكن يظل مهينًا. تتحدث وكأنما موت جون كيرنكروس قد بات يقينًا، أمرًا مسلمًا به،

خبرًا قديمًا تقبلته العامة، حقيقة تاريخية تجاوزت الفاجعة مثلها مثل قصة نهب روما. ترودي ستتفق معها أكثر مني. إذ قد تربيت على اعتبار شِعر أبي أسمالًا بالية. لكن اليوم، كل شيء بات جاهزًا لإعادة التقييم.

وفي صوت وقور ينضح بالرياء، تعقب ترودي قائلة، "سيمر زمن طويل قبل أن نعي أخيرًا قيمته الأدبية الفريدة."

"أوه أجل، أوه أجل! لكن حتى الآن نحن ندرك قبسًا من قيمته. هو هناك، في مصاف هيوز. بل أبعد. هو في الأعلى مع فينتون، هيني، وبلاث."

"والآن له أن ينظم قصائده برفقتهم،" يعقب كلود.

وهذه هي مشكلتي مع إيلودي. ما الذي تفعله هنا؟ ترقص رقصًا جامحًا مثل الكوريبانت[48]، لحظةً تراها ولحظةً تزوغ عن البصر. لعل تمجيدها أبي، مديحها المبالغ به، هو بِنيّة تقديم السلوان إلى أمي. لكن إن كان هذا حقًا مأربها، فوسيلتها ليست أبدًا بالناجعة. أو ربما أن أساها على أبي قد شوّه منظورها وحكمها على الأمور. إن كان كذلك فالأمر مغفور. أو لعلها ربطت قيمتها الأدبية بقيمة راعيها. لا أظن. أو لربما هي هنا كي تكتشف من قتل عشيقها. الآن هذا احتمال مثير للاهتمام.

هل يجدر بي الإعجاب بها أو الشك في نواياها؟

أمي تحبها ولن تتخلى عن يدها. "أنت أدرى مني في هذا الشأن. التحلي بموهبة عظيمة تتأتى مع دفع ثمن باهظ. ولم يكن الوحيد الذي دفعه. أجل كان لطيفًا وطيبًا مع كل الناس خارج حلقته المقربة. حتى مع الغرباء. الناس يصفونه، "طيب مثل **هيني**[49]". ليس أني أعرف هيني

(48) Corybant: وفقًا للأسطورة الإغريقية فالكوريبانت هم رجال يعبدون إلهتهم سيبيل بالرقص مسلحين في سترهم العسكرية.

(49) Seamus Heaney: شاعر إيرلندي نال جائزة نوبل للآداب عام 1995.

أو حتى قرأت له. لكن الناس ليس لها إلا الظاهر، أما وراء الأكمة فجون كان يعيش كريًا موجعًا – "

"لا!"

"لعنة الشك. ألم عقلي مبرح. يصب جام غضبه على أحبابه. لكن كان أقسى ما يكون على نفسه. من ثم، وبعد شق الأنفس، أخيرًا ينظم القصيدة."

"والشمس تعود تشرق من جديد." كلود التقط اللحن وها هو يرقص على مزمار سلفته.

على وقع رده تصدح أمي بمزمارها، "ونظم القصائد باللغة الدارجة؟ ما كان إلا معركةً دامية يقتلع فيها القصيدة اقتلاعًا من أعمق أغوار روحه – "

"أوه!"

"حياته الشخصية استحالت حطامًا. والآن – "

تغص أمي بتلك الكلمة الصغيرة التي تحمل في ثناياها حاضر الهلاك المحتوم. وفي يوم كهذا نعيد فيه تقييم نظرتنا لكل الأمور، فلعلّني مخطئ في اعتقادي هذا. لكن لطالما ظننت أبي شاعرًا ينظم قصائده بانسيابية ويُسر حتى استجلب عليه النقد والتقريع، وحتى أنه قرأ لنا يومًا مقالًا نقديًا يتضمن مثالًا على هذا التقريع فقط كي يثبت لنا عدم اكتراثه أصلًا برأي الناقد. سمعته يقول لأمي في إحدى زياراته الحزينة لنا: إن لم تُلهَم القصيدة كاملةً، فدعك منها. فهناك ألق فريد يتأتى عن الانسيابية. وكل الفنون تصبو إلى انسيابية موزارت. قالها من ثم ضحك على افتراضه الجريء في تشبيه نفسه بموزارت. ترودي لن تتذكر تلك الواقعة. ولن تدرك أبدًا أنها حتى في خضم تلفيقها القصص حول حالة أبي العقلية،

فاستماعها إليه كل تلك الأعوام يلقي عليها قصائده قد أكسبها فصاحة اللسان والبيان. لعنة الشك؟ يصب جام غضبه؟ يقتلع؟ حطامًا؟ من أعمق أغوار روحه؟ أمي في ملابس أبي المستعارة!

لكن الملابس تركت انطباعًا قويًا. أمي متحجرة الفؤاد، تدرك تمامًا ما تفعل.

إيلودي ترد همسًا، "لم أكن أعرف."

من ثم، برهة صمت أخرى تخيم علينا. ترودي تنتظر في تأن وصبر، مثل صائد سمك ألقى بصنارته وها هو الطعم علق في فم السمكة. كلود على وشك أن يتفوه بكلمة، حرف علة انقطع، على ما أظن، برمقة حادة من أمي.

وها هي ضيفتنا تستهل حديثها الدرامي من جديد. "كل تعاليم جون محفورة في قلبي. متى نقطع البيت. "إياك وقطع أبيات القصيدة عشوائيًا. تولّى دومًا دفة مسارها. على القطْع أن يخلق معنى، كل بيت هو وِحدة معنى. قرري، قرري، قرري. " واعرفي إيقاعك في تقطيع القصيدة كي "تخلقي الإيقاع وتبعثريه عن معرفة. " ونصيحته الأخرى، "النظم ليس بقفص. بل صديق قديم بيدك فقط ادعاء هجره. " وعن المشاعر كان سيقول، "لا تفرغي جعبة قلبك. تفصيل صغير واحد ينطق بالحقيقة كاملة. " كذلك، "ضعي الصوت نصب عينيك، لا الصفحة، اكتبي الشعر لأجل الأمسية العفوية في رواق أبرشية. " دفعنا إلى قراءة جايمس فنتون كي نرى عبقرية الترويشة. من بعدها، كان سيعد الواجب للأسبوع الذي يليه – نظم قصيدة من أربعة مقاطع شعرية تعتمد الترويشة رباعية التفاعيل مع المقطع اللفظي الأخير منقوصًا. وكم ضحكنا على تلك القصائد الخنفشارية. جعلنا نغني

أناشيد الأطفال. "Boys and Girls come out to play". من ثم ألقى علينا من الذاكرة قصيدة أودن، **أغنية الخريف**[50]. "Now the leaves are falling fast, Nurse's flowers will not last". لماذا المقطع اللفظي المفقود نهاية البيت له أثر كبير؟ ولم نعرف الإجابة على سؤاله. وماذا إذن بشأن القصيدة ذات المقطع اللفظي الضعيف "Windy speeded my undressing / Wendy is the sheet's caressing"[51]. كان حافظًا عن ظهر قلب أغنية بيتجيمن "Indoor Games near Newbury" واعتاد إلقاءها علينا مثيرًا فينا الضحك. وهكذا، في أدائي الواجب الذي طلبه منا، نظمت قصيدتي الأولى عن البوم – على ذات وزن **أغنية الخريف**".

"قد حثنا على حفظ أفضل قصائدنا عن ظهر قلب. كي نتحلى بالجرأة لدى إلقائنا الأول، كي يتسنى لنا الوقوف على الخشبة دون أوراق في يدنا. كدت أغشى من الذعر بمجرد تصوري الوقوف. أوه، انظري إليّ، ها أنا أنجرف في بحور الشعر!"

أيّ حديث عن تقطيع الشعر يثير اهتمامي أنا وحسب. أشعر بنفاد صبر أمي من هذا الحديث الشعري. فقد طال بإفراط. لو كان لي من أنفاس أحبسها، لحبستها الآن.

"اعتاد شراء المشروب لنا، أقرضنا مالًا لم نردّه إليه مرّة، استمع

---

(50) القصيدة هي (Autumn Song) للشاعر الانجليزي الأميركي (W.H. Auden) والذي اشتهر بتقطيعاته الشعرية واعتماده الترويشة. القصيدة نظمت عام 1936 وفيها يصف الشاعر الخريف كأنما يصف حتمية الموت والفناء، لا سيما مع مطلع القصيدة الذي يستهل بالبيتين المذكورين. والترجمة على النحو التالي: وها هي الأوراق تتعجل السقوط، وزهور المربية ذابلة لا محال. المربيات سيفنين في القبور، وعربات الأطفال ستظل مدفوعة على ذات المنوال.

(51) البيت يعود إلى المذهب الأخير من قصيدة (Indoor Games Near Newbury) لشاعر البلاط البريطاني (John Betjeman) ونظمت عام (1947)، وترجمتها على النحو التالي: وندي تعجل في تعريتي، بيدين أرق من الملاءات تداعبني.

إلى مشاكلنا العاطفية مع عشاقنا، خلافاتنا الحادة مع آبائنا، ومعاناتنا مع قفلة الكاتب. مرةً دفع كفالة مالية لشاعر مستقبلي سكّير في مجموعتنا. كتب لأجلنا رسائل توصية تؤمّن لنا منحة مالية، أو وظيفة متواضعة في دورية أدبية. أحببنا من يعشق من الشعراء، آراؤه باتت آراءنا. اعتدنا الإصغاء إلى أحاديثه الإذاعية، حضرنا الأمسيات الشعرية التي أوصى بها. وحضرنا أمسياته هو. بتنا نعرف قصائده، حكاياته الطريفة، وعباراته اللافتة. وظننا أننا نعرفه. وما خطر لنا لحظة أن جون، هذا الرجل الراشد، الكاهن الأعلى، هو الآخر يعاني من مشاكل. أو أن الشك في موهبته كان يساوره كما يساورنا. جُلّ قلقنا كان منصبًا على الجنس والمال. لا شيء مما نعانيه يماثل معاناته. ليتنا عرفنا."

قد ابتلعت الطعم، الخيط القصير مشدود، يهتز، وأخيرًا ها هي السمكة في الشبكة. أشعر بأمي تتنفس الصعداء.

وها تلك الذرّة الغامضة، أبي، قد بدأت تكتسب كتلة، تكبر وتكبر جديّةً ومصداقيّة. أجدني اللحظة عالقًا بين الشعور بالفخر والذنب.

في صوت جسور وحنون تقول ترودي، "لما كان صنع فرقًا لو كنتم على علم. لذا إياك ولوم نفسك. أنا وكلود، كنا على دراية بكل شيء. وقد بذلنا كل السبل لأجل مساعدته."

كلود، متنبهًا على وقع سماع اسمه، يتنحنح ويردف. "ما من أمل. جون كان ألدَّ أعداء نفسه."

"قبل أن تغادري،" تقول ترودي، "هناك شيء بسيط أود منك الحصول عليه."

نصعد درجات السلالم نحو الردهة ومن ثم نحو الطابق الأول، أنا وأمي نخطو وكأنما في موكب جنائزي، وإيلودي خلفنا بخطوة. لا

ريب أن الغاية من هذا العرض منح كلود الوقت لجمع أي أثر لا بد لهما التخلص منه. نحن نقف الآن في مكتبة أبي. أسمع شهيق الشاعرة الشابة تتأمل من حولها ثلاثة جدران من الشعر.

"اعذريني، فالرائحة عطنة هنا بعض الشيء."

كأني بتلك الكتب قد عرفت بموت صاحبها. وها هي الكتب، وها هي المكتبة، حتى هواؤها، كلها في حداد.

"أود منك الحصول على كتاب منها."

"أوه، لكن لا يجدر بي. ألا تودين الاحتفاظ بها كلها؟"

"أود منك الحصول على كتاب منها. لكانت تلك رغبته أيضًا"

وهكذا نقف في انتظار اختيارها.

إيلودي محرجة ولذا تختار على عجل. سرعان ما تعود إلينا وترينا خيارها.

"جون قد دون اسمه على الكتاب. للشاعر بيتر بورتر. **ثمن الجديّة**. الديوان يتضمن **قصيدة جنائزية**. رباعية التفاعيل هي الأخرى. والأجمل من بين قصائده."

"أوه، أجل. أظنه زارنا يومًا على العشاء."

ومع نطقها الكلمة الأخيرة يرن جرس الباب. رنين أعلى وأطول من المعتاد. أعصاب أمي تشتد، نبض قلبها يتسارع. مم هي مذعورة؟

"أعرف أنك تتوقعين زوّارًا كثُر. لذا شكرًا كثيرًا – "

"صه!"

ندلف اتجاه مبسط السلم. ترودي تميل على الدرابزين. احذري أمّي! ومن بعيد نسمع صوت كلود يتكلم على الهاتف المرئي، من ثم وقع خطواته صاعدًا السلم من المطبخ.

"بحق الجحيم،" تهمس أمي.

"هل أنت على ما يرام؟ هل تحتاجين للجلوس؟"

"أظن."

نتراجع للوراء، فخير لنا إخفاء الطابق الأرضي عن مجال الرؤية. إيلودي تعاون أمي للجلوس على الأريكة الجلدية المتشققة ذاتها التي اعتادت الاضطجاع عليها، والاستغراق في أحلام يقظتها، على صوت زوجها يتلو القصيد في حضرتها.

نسمع صوت الباب الأمامي يفتح، همهمة أصوات، من ثم إغلاق الباب. نسمع وحسب خطى شخص واحد يعاود طريقه عبر الردهة نزولًا إلى المطبخ. الطلبية الدنمركية ولا ريب، الشطائر المفتوحة، حلمي عن سمك الرنجة على وشك أن يتحقق، شبه يتحقق.

ترودي هي الأخرى تدرك ذلك. "سأرافقك إلى الباب."

في الطابق الأرضي، عند الباب، بينما إيلودي تهم بالمغادرة، تلتفت إلى ترودي وتقول لها، "الشرطة طلبت مني الحضور غدًا، الساعة التاسعة صباحًا."

"أنا آسفة جدًا. سيكون من الصعب عليك. فقط أخبريهم بكل ما تعرفين."

"سأفعل ذلك. شكرًا لك. شكرًا على الكتاب."

تتعانقان وتتبادلان القبل، وها هي رحلت. حدسي ينبئني أنها قد حصلت على ما جاءت لأجله.

نعود أدراجنا إلى المطبخ. شعور غريب يساورني. هالك من الجوع. مرهق. يائس. قلق من احتمال رفض ترودي الطعام وإخبار كلود أنها لا تقوى على تناول لقمة. ليس بعد الذعر الذي عاشته لحظة سماعها رنة

جرس الباب. فالذعر مانع أصيل للشهية، محفز على الغثيان. سأموت سقطًا، لا ريب من الهزال. بيد أني وإياها والجوع نظام واحد، ومتيقن أن الغلاف القصديري قد انتزع عن العلب. هي وكلود يزردان الطعام، واقفين بمحاذاة طاولة المطبخ، حيث أكواب القهوة من البارحة لا تزال موجودة.

يقول لها بفم ممتلئ، "هل ضيبت كل الأغراض؟"

رنجة مخللة، خيار مخلل، شريحة ليمون على خبز الجاودار. لا تستغرق وقتًا في وصولها إليّ. وسرعان ما يلسعني إلى اليقظة وجود أشد ملوحةً من الدم يسري في عروقي، الرائحة النافذة لرذاذ موج المحيط الشاسع، حيث أفواج الرنجة الوحيدة تسف السطح شمالًا في دربها عبر المياه المتجمدة السوداء. وها هي تصلني بأفواج أكبر، النسيم البارد القطبي يلفح وجهي، وكأني أقف بقلب جريء على قيدوم سفينة شجاعة في طريقها نحو أرض الحرية الجليدي. وها نحن ذا، ترودي تلتهم الشطائر المفتوحة الواحدة تلو الأخرى، تلتهم وتزدرد، إلى أن تصل لقمتها الأولى من شطيرتها الأخيرة وتلقي بها على الطاولة. هي تترنح الآن، في حاجة إلى كرسي.

متأوهةً تقول. "كم كان رائعًا! انظر، دموع. دموع الفرح."

"سأمضي الآن،" يقول كلود، "وأنت ابكي على هواك وحدك."

لوقت طويل كنت كبيرًا على هذه المساحة، بالكاد أجد متّسعًا. لكني الآن بت كبيرًا جدًا، وما عاد من متسع. أطرافي مطوية قبالة صدري، رأسي محشور في مخرجي الوحيد. ألتحف أمي كما لو كانت قلنسوة ضيقة. ظهري يؤلمني، لم أمارس رياضتي لزمن، أظافري بحاجة إلى تقليم، مرهق، معنوياتي محطمة. أتلكأ في هذا الغسق حيث الخدر لا

يريحك من أفكارك بل يطلق لها العنان. الجوع، من ثم النوم. احتياج أشبعناه، وآخر يحل محله. نجوع.. ننام.. ننام.. نجوع وهكذا إلى ما لا نهاية، إلى أن تغدو احتياجاتنا مجرد نزوة، محض رفاهية. شيء ما في هذه الحلقة يعبر عن حقيقة طبيعتنا. لكن هذه الحلقة هي للآخرين وليست بعدُ لي. فأنا الآن مخلل، أسماك الرنجة تجرفني بعيدًا معها، تحملني على أكتافها العظيمة، تتجه بي شمالًا، وما إن أصل هناك فلن أسمع موسيقى الفقمات وتصدع الجليد، بل الأدلة تختفي، دون أي أثر، الماء المتدفق من الصنبور، فرقعة زبد الرغوة، سأسمع رنين قرع القدور منتصف الليل، قلب الكراسي على طاولة المطبخ كي تنبلج الأرضية وما تنوء بحمله من فتات الطعام، الشعر البشري، وفضلات الفئران. أجل، كنت هناك حين أغراها بالعودة إلى الفراش. أجل، كنت هناك حين نادى عليها بفأرته، ماجنًا يقرص حلمتيها. أجل، كنت هناك حين أغدق أنفاسه الكاذبة ولسانه المنتفخ بالكليشيهات على ثغرها ووجنتيها.

وأجل. كنت هناك وما حركتُ ساكنا.

الفصل السابع عشر

أستيقظ على هدوء شبه مطبق لأجد نفسي في وضع أفقي. وكما العادة، أرهف السمع علّي ألتقط شيئا. من خلف الوطء البطيء لقلب ترودي، من خلف أنفاسها المتنهدة والصرير الواهي لعظام قفصها الصدري، أسمع همهمة وخرير صيانة جسد على يد شبكة خفية منضبطة من نُظُم الرعاية والتصليحات، مثل عاصمة حديثة في قلب عتمة الليل. من خلف الجدران، تتناهى إليّ الجلبة الإيقاعية لشخير عمي، أهدأ من المعتاد. ومن خلف جدران الغرفة، لا صوت للسيارات. أي ليلة أخرى، لاستدرت على قدر استطاعتي وعاودت التوغل مرة أخرى في عالم اللاأحلام. بيد أن الآن، كسرة صغيرة حادة، حقيقة مدببة الرأس من بقايا اليوم السابق، تثقب نسيج النوم المرهف. وها هو كل شيء، كل شخص، تلك الفرقة المسرحية الصغيرة، بأدائها المرتجل، تنسل كلها دمعةً من عيني. أبدأ بمن؟ أبي المبتسم، الشائعة الجديدة عصية التصديق عن شهامته الفريدة وموهبته الفذة. الأم التي أنا حبيسها، حبيس حبي إيّاها ومقتي لها. كلود الشيطاني، عابد القضيب. إيلودي، شاعرة الموازين، الترويشة غير الجديرة بالثقة. وأنا، الجبان الرعديد، مَن أعتقتُ نفسي من واجب الأخذ بثأر أبي، من كل

شيء، إلا التأمل والتفكير. تلك الشخوص الخمسة تتقلب أمام ناظريّ، كل شخصية تلعب دورها في الحدث الذي شاركت فيه تمامًا كما ورد في النص الأصلي، من ثم تعود وتلعب دورها في حال أخذت الأحداث مسارًا مختلفًا، أو في حال ستأخذ الأحداث مسارًا مختلفًا. لا سلطة لدي البتة في الإخراج. فما أنا إلا الجمهور المتفرج. وعلى مقعدي تمضي بي الساعات.

لاحقًا، أستيقظ على وقع أصوات. أجد نفسي منحدرًا، ما يعني أن أمي جالسة في فراشها، تسند ظهرها على الوسائد. أصوات حركة السير خارجًا ليست بكثافتها المعتادة. أخمن أنها السادسة صباحًا. مبعث قلقي الأول أننا موعودان بزيارة صباحية إلى **جدار الموت**. لكن لا، هما حتى لا يتلامسان. يتحادثان وحسب. فقد أشبعا شهوتهما حدَّ التخمة، ولن يعاودهما الجوع حتى الظهيرة، على الأقل، ما يفتح باب الفرصة الآن لإظهار الضغينة، المنطق، أو حتى الندم. يذهبان مع الخيار الأول. أمي تتحدث بنبرة امتعاضها الفاترة. أول جملة منها أفهمها بالكامل هي التالي:

"لو لم تكن في حياتي، لكان جون حيًا اليوم."

كلود يتفكر لحظة. "والنتيجة هي ذاتها لو لم تكوني أنت في حياتي."

سكون يطبق عليهما بعد حركته المضادة. ترودي تعاود الكرة. "لقد حوّلت لهوًا سخيفًا إلى شيء آخر بإحضارك تلك الأشياء إلى البيت."

"الأشياء التي دفعته أنت إلى شربها."

"لو لم –"

"اسمعيني، حلوتي."

التحبب على لسانه يبدو خبيثًا. يسحب نفسًا ويتفكر فيما

سيقول مرة أخرى. هو مدرك لأهمية بقائه لطيفًا معها. لكن اللطف دون رغبة تستحثها، دون شهوانية تكافئها، أمر يصعب عليه فهمه. والتوتر يبدو جليًّا في حباله الصوتية. "الأمور محلولة. ليست بقضية جنائية. نحن على الطريق المرسوم. وتلك الفتاة ستتفوه بكل ما أردناه منها."

"والفضل يعود إلي."

"والفضل دون ريب يعود إليك. شهادة الوفاة، محلولة. الوصية، محلولة. إحراق الجثة ومعها كل أثر، محلولة. بيع البيت والجنين، محلولة – "

"لكن مقابل أربعة ملايين ونصف – "

"محلولة. هذا هو السعر إن كنا سنواجه أسوأ سيناريو ممكن، ما هي إلا خطتنا البديلة – محلولة."

قواعد النحو وحسب قد تدفع أحدهم إلى الظن أني أيضًا مشمول ضمن صفقة البيع. لكني سأغدو بضاعة مجانية وقت التسليم. أو حتى بضاعة تالفة.

ترودي تكرر في نبرة ازدراء، "أربعة ملايين ونصف."

"بسرعة. دون أي أسئلة."

الفتوى الشرعية لكل عشيقين، ولربما استعانا بها من قبل. فأنا لا أصغي طوال الوقت. تقول له، "ولم العجلة؟" فيرد عليها، "في حال ساءت الأمور." فتسأله، "ولماذا يجدر بي الوثوق بك؟" فيجيبها، "لا خيار آخر."

هل أوراق بيع البيت باتت جاهزة؟ هل وقعت عليها؟ لا أدري. فأحيانًا يغلبني النعاس ولا أسمع كل ما يقال. وصراحةً، لا أكترث.

كَوني لا أملك شيئًا، فأمور الملكية لا تعنيني. لا ناطحات السحاب، ولا أكواخ الصفيح، ولا كل ما يقع بينها من جسور ومعابد. احتفظوا بها لأنفسكم. جل اهتمامي مُنصَبّ على حياتي الأخروية، ما بعد الولادة، أثر حافر الفرس العادِيَة على الصخر، شاة الأضحية الصاعدة نحو العرش. دائمًا وأبدًا للأعلى. هواء ساخن لا يحبسه منطاد. خذوني معكم، ارموا بي من المنجنيق. أعلنوا لي إشارة الانطلاق، امنحوني حياتي الأخروية، جنتي على الأرض، حتى وإن تكن جحيمًا، حتى وإن تكن الطابق الثالث عشر. فأنا أملك الجلَد على التحمل. ومؤمن بالحياة بعد الولادة، حتى وإن كنت مدركًا أن الخيط الفاصل بين الواقع والأمل مبهم. أي شيء أقل من الأبدية بقليل سأقبل به. ستة عقود وعشرة؟ غلفها لي، سآخذها، لأن لي أمل. منذ فترة وأنا أستمع إلى كل المجازر التي ارتكبت مؤخرًا في سعي أصحابها إلى تحقيق أحلامهم في الحياة ما بعد الموت. الفوضى الدموية في هذا العالم، والنعمة الإلهية في العالم الآخر. شُبّان يافعون بشرتهم جميلة ولحاهم خفيفة وبنادقهم طويلة في جادة فولتير ينعمون النظر في العيون الجميلة، المصعوقة، لأبناء جيلهم. قتل الأبرياء لم يأت من باب الكراهية بل الإيمان، هذا الشبح الجائع النهم الذي لا يشبع، ما زال مُبجّلًا موقّرًا، حتى في أكثر المناطق اعتدالًا. منذ زمن بعيد، شخص ما أعلن حقيقةً غير مثبتة بالأدلة عقيدةً لا تقبل التشكيك. والآن، أكثر الناس تهذيبًا توافق على هذا الادعاء. كنت قد سمعتهم على برنامج الأحد الصباحي الذي يبث من فناء الكاتدرائية. أعظم أشباح أوروبا التقاة هم من أصحاب العقيدة، بدايةً مع أصحاب الدين، ولاحقًا حين أخذ الدين يترنح، مع أصحاب الطوباوية الملحدة المتفجرة بالأدلة العلمية، كلا الفريقين حرَق الأخضر واليابس من القرن

العاشر وحتى القرن العشرين. وها هي أشباحهم تبعث من جديد، لكن في الشرق، في سعيهم إلى الهيمنة على الألفية الجديدة، يعلمون الطفل الصغير حز عنق دبدوبه. وها أنا أجد نفسي مع إيماني البيتوتيّ بالحياة الآخرة. وأعرف أن الحياة اللاحقة ليست ببرنامج إذاعي. هي أكثر من ذلك. كما أعرف أن الأصوات التي أسمعها ليست صنيعة خيالي، أو على الأقل ليست صنيعة خيالي وحدي. أنا مؤمن بأن وقتي قد حان. فأنا الآخر تقيّ صاحب عقيدة.

*****

هذا الصباح خال من الأحداث. النقاش الحاد بين كلود وترودي سرعان ما يخبو والاثنان يغلبهما النعاس وينامان ساعات، إلى أن تصحو وتنهض عن الفراش تاركةً إياه وتمضي للاستحمام. وفي غمرة المداعبة الدافئة لقطرات الماء المتسارعة وصوت دندنة أمي الرخيم، أجدني أختبر مزاجًا من البهجة والإثارة لم أتوقعه. ليس الأمر بيدي، لا أملك كبح جماح فرحتي. هل يا ترى ما أختبره مزاج هرموني مستعار؟ فليكن، بالكاد يهمني. فالحياة أراها ذهبية، حتى وإن كان اللون الذهبي ليس سوى اسم بالنسبة لي. أعرف أنه ينتمي إلى طيف اللون الأصفر، أيضًا ما هو إلا اسم بالنسبة لي. لكن ذهبية تبدو الصفة المناسبة، أشعر بها في أوصالي، أتذوقها مع تشلشل الماء الدافئ على مؤخر جمجمتي. فلا أذكر أني عشت إحساسًا مثيلًا من البهجة الخالية من أي هم. أنا مستعد، أنا قادم، والعالم سيمسك بي، وسيرعاني لأنه لن يملك مقاومتي. سأحتسي النبيذ من الكأس لا المشيمة، وسأقرأ كتبي على نور المصباح بعينيّ لا أذنيّ، سأستمع إلى موسيقى باخ، سأتنزه على الشاطئ، سأتبادل

القبل على ضوء القمر. كل شيء تعلمته حتى اليوم ينبئني أن تلك المُتَع لا تكلّف كثيرًا، سهل تنفيذها، وفي انتظاري. حتى عند انقطاع الماء الصادح المنهمر، عند خروجنا إلى النسيم البارد وهز ترودي لي بمنشفتها حدَّ الغشاوة، يخيَّل إليّ سماع غناء يصدح في رأسي. جوقة من الملائكة!

يوم حار آخر، يوم دبق آخر، لذا أرنو إلى الحلم، فأحلم بنقش فستانها القطني، صندل البارحة، بيد أني لا ألتقط رائحة العطر لأن الصابون الذي استحمت به، إن كان الصابون الذي أهداها إياه كلود، يفوح بعطر الغاردينيا وعشب البتشول. لم تجدل ضفائرها اليوم. عوضًا عن الضفائر، قطعتان بلاستيكيتان، فاقعتا اللون لا ريب، كبستهما أعلى أذنيها، كل قطعة ترفع شعرها للوراء. ما إن نهبط درجات السلالم المألوفة حتى ينتابني القنوط. ويحي! كيف نسيتُ أبي دقائق متواصلة! ندخل أنا وإياها المطبخ النظيف، وضعه غير الطبيعي هو تَقْدِمة أمي ليلة البارحة إلى روح أبي. قصيدتها الجنائزية المهداة له. صوت المطبخ تبدَّل، الأرضية ما عادت دبقة، ما عادت تلتصق بخفيّ صندل أمي. الذباب هجرنا إلى جنان أخرى. وبينما تمضي نحو ماكينة القهوة فالفكرة التي تشغل بالها، وبالي أنا، أن الشرطة لا بد قد فرغوا من التحقيق مع إيلودي. فإما سترسخ المقابلة انطباعهم الأوليّ أو تحثهم على التخلي عنه. بالمحصلة، الآن، وبالنسبة إلى كلينا، فكلا الانطباعين حقيقي. الطريق أمامنا سيتفرع إلى مفترق طرق، بيد أن المفترق أصلًا كان موجودًا. وأيًا تكن الطريق التي ستسلكها الأحداث، فنحن دون ريب موعودون بزيارة من الشرطة.

ترفع ذراعها وتتناول تنكة القهوة المطحونة وأوراق الترشيح من الخزانة، تفتح صنبور الماء البارد، تعبئ الإبريق، وتتناول ملعقة. الأكواب

معظمها نظيفة. تُخرج كوبين وتضعهما على الطاولة. هناك شجن في هذا الروتين المألوف، في أصوات الأدوات المنزلية تلامس الأسطح. وحتى في التنهيدة الصغيرة التي تصدر عنها كلما استدارت أو انحنت بجسدنا المتضخم غير العمليّ. ويتجلى لي الآن كيف أن معظم ما نعيشه في الحياة مآله النسيان حتى في آنية وقوعه. جُلّ ما نعيشه. الحاضر الذي نعيش حياتنا غافلين عنه يغزل على منواله الخيوط الرقيقة لأفكارنا الفوضوية، الخيوط المنحلة عن معجزة الوجود التي نتجاهلها طويلًا. متى ما لم تعد في الثامنة والعشرين وحبلى وجميلة، أو حتى حرة، فلن تتذكر كيف وضعت الملعقة جانبًا على منضدة المطبخ ورنة تلامسهما، ولن تتذكر الفستان الصيفي الذي ارتدته اليوم، ملمس رباط صندلها بين أصابعها، دفء الصيف، ضجيج المدينة الأبيض خلف جدران البيت، الدوي القصير لتغريد العصافير على وقع إغلاق النافذة. كلها تلاشت، لحظة وقوعها.

لكن اليوم مختلف. فإن كانت غافلة عن الحاضر، فذلك لأن قلبها معلّق في المستقبل، مستقبل يضيق عليها الخناق. تتفكر في الأكاذيب التي عليها أن تسردها، وكيف لتلك الأكاذيب أن تنسجم مع سرد كلود وأكاذيبه. ضغط كبير، ذاته الذي كان يخالجها قبيل امتحاناتها. رعشة باردة تسري في أحشائها، ساقاها واهيتان، مع مَيْل إلى التثاؤب. لِزامٌ عليها تذكّر حوارها. فعاقبة الفشل فادحة، أكثر إثارة من أي امتحان مدرسي. لها أن تبحث عن السلوان في ترنيمة طفولتها – وماذا إن لم تنجحي، فلا أحد سيموت. بيد أنها لن تنفع. كم أشفق عليها. كم أني أحبها.

أجدني اللحظة حاميًا لها. ولا أملك طرد هذه الفكرة التافهة من

عقلي، أن العالم عليه أن يسُنّ قواعد أخرى في تعامله مع أصحاب الحسن والجمال. فهذا المحيّا الفاتن الذي تخيلتها عليه يستحق كل الاحترام. إيداعها السجن سيكون انتهاكًا، ازدراءً بقوانين الطبيعة. ويعتريني حنين إلى هذه اللحظة المنزلية، حتى وأنا أعيشها. فهي كنز، الجوهرة النفيسة في مستودع ذكرياتي. فاللحظة أحظى بها كلها لنفسي، هنا في هذا المطبخ النظيف المرتب، المغمور بضياء الشمس والسكينة، بينما كلود يقضي الصباح نائمًا في الأعلى. علينا أن نكون متقاربين أنا وهي، ألصق من عشيقين. وهناك شيء ما لا بد أن نهمسه لبعضنا.

هل يا تراه يكون الوداع.

الفصل الثامن عشر

في ساعة مبكرة من بعد الظهيرة يرن جرس الهاتف والمُستقبَل تُعرّف عن نفسها. المحقق الرئيس كلير أليسون، من تتولى الآن ملف القضية. الصوت يبدو ودودًا، لا أثر فيه للاتهام. تلك قد تكون علامة سيئة.

نحن في المطبخ مرة ثانية، وكلود يمسك بالهاتف. يده الأخرى تمسك كوب القهوة الأول له هذا اليوم. ترودي تقف قربه ونصغي إلى الطرفين. قضية؟ الكلمة تحمل في جعبتها تهديدًا. المحقق الرئيس؟ هي الأخرى لا تبشر بخير.

أقيس منسوب القلق لدى عمي وفق حماسته في الترحيب. "أوه أجل. أجل! بالطبع. البيت بيتكم."

المحقق الرئيس أليسون تنوي زيارتنا. دعوتنا الحضور إلى مركز الشرطة للتحادث أو للإدلاء بأقوالنا، إن وصلت الأمور إلى هذا الحد، لكان هو الإجراء المعتاد. لكن بسبب وضع ترودي مع حملها المتقدّم، والفاجعة التي أصابت العائلة، فقد تقرّر مجيء المحقق الرئيس برفقة ضابط إلى البيت للزيارة في غضون ساعة. كذلك فالمحقق تود إلقاء نظرة على آخر مكان تواجد فيه المتوفي وآخر من تحادث معه.

هذا الطلب الأخير، الذي بدا منطقيًا وبريئًا لأذنيّ، أدخل عمي في نوبة سعار. "أوه أرجوك، تفضلي، تفضلي. سيكون من الرائع حضورك. أرجوك. ارفسي الباب وادخلي. متشوق للقائك. ستكونين –"

تقفل الهاتف في وجهه. يستدير نحونا، أخمن شاحبًا شحوب الموتى، ويقول في نبرة خائبة، "آه."

ترودي لا يسعها أن تمنع نفسها عن السخرية. "كل الأمور ... محلولة؟"

" لمَ جعلوا منها قضية؟ هي ليست جناية." يستعطف جمهورًا متخيّلًا، لجنةً من كبار الشيوخ. هيئة محلفين.

"كم أكره هذا الوضع،" تدمدم أمي، إلى نفسها لا كلود. أو لربما تدمدم إليّ، ليتها حقًا تدمدم إليّ. "أكره هذا الوضع، أكرهه."

"من المفترض أن تبقى المسألة في يد الطبيب الشرعي." كلود يمشي بعيدًا عنا، مكروبًا، يطوف مرةً في المطبخ ثم يعود إلينا، مغتاظًا. وشكواه الآن بيثها إلى ترودي. "هذا ليس من شأن الشرطة."

"أوه حقًا؟" تجيبه. "إذن ارفع الهاتف واتصل بالمحقق وأعلمها بخطئها."

"شاعرة البوم تلك. كنت موقنًا أنه لا يجدر بنا الوثوق بها."

بالطبع كلنا مدركون أن إيلودي، بطريقة ما، كانت مَهمّة أمي، لذا فما يقوله كلود هو بمثابة اتهام.

"قد راقت لك."

"أنتِ من قال إنها ستكون مفيدة."

"قد راقت لك."

تكرارها الجامد الخالي من أي إحساس لا يستفزه.

"ومن منا لن يراها جميلة؟ ومن يكترث أصلًا؟"

"أنا."

أسأل نفسي مرةً أخرى ما النافعة التي ستعود عليّ من ضارّة تنازعهما، سيقعان في شر أعمالهما. وسيتسنى لي الاحتفاظ بترودي. فقد سمعتها مرةً تقول إن الأمهات المرضعات في السجن ينلن ظروفًا مخففة. لكني بهذا سأفقد إرثي، حقي في تحقيق حلمي في اختبار الإنسانية، في نيل حريّتي. أما إن بقيا معًا وعملا كفريق، فقد يشقّان طريقهما خارج هذه الحفرة وينجوان، حتى وإن بصعوبة. من ثم سيتخليان عني. لن أحظى بأم، لكني سأحظى بحريتي. لذا أيهما سأختار؟ سبق أن تفكرت في هذه المعضلة، ودائمًا ما يعود بي التفكر إلى ذات الخيار المقدس، ذات القرار الأخلاقي. سأخاطر بالرفاهية المادية وآخذ فرصتي في العالم الواسع. فقد بقيت حبيسًا لأمد طويل. لذا أمنح صوتي لصالح حريّتي. على القاتلَين أن يفرّا بجريمتهما دون عقاب. وهذه هي اللحظة المناسبة، قبل أن تتفاقم مسألة إيلودي إلى شجار كبير لا يحمد عقباه، أركل أمي ركلة جديدة، ألهيها عن مواصلة هذا الشجار التافه بلفت نظرها إلى حقيقة وجودي. لا ركلة واحدة، ولا اثنتين، بل الرقم السحري في أمتع الحكايا العتيقة. ثلاث مرات، عدد المرات التي أنكر فيها بطرس المسيح.

"أوه، أوه، أوه!" ترددها وكأنما ترنمها. كلود يسحب كرسيًا لها ويحضر كأسًا من الماء.

"أنت تعرقين."

" الجو حارا!"

يحاول فتح النوافذ. لكن أطرها لم تتزحزح قيد أنملة لسنوات. يفتح البراد كي يتناول مكعبات ثلج. صواني المكعبات فارغة على إثر

جولات شرب الجن والتونيك الثلاثة الماضية. لذا يجلس مقابلها، يحاول تهدئتها بنبرته المتعاطفة.

"كل شيء سيكون على ما يرام."

"لا. لن يكون على ما يرام."

صمته يفصح عن موافقته إياها. كنت أفكّر في ركلها ركلة رابعة، لكن مزاج ترودي خطر. قد تثيرها الركلة وتتهجم على كلود فتستفزه إلى ردة فعل وخيمة علينا.

بعد برهة، وفي مزاج هادئ، يقول لها مطمئنًا، "علينا أن نراجع أقوالنا مرةً أخرى."

"لم لا نطلب حضور محام؟"

"قد فات الوقت."

"أخبرهم أننا لن نقول شيئًا إلا بحضور المحامي."

"لن يبدو الأمر جيدًا إن كان كل ما تريده المحقق تبادل الحديث."

"كم أكره هذا الوضع، كم أكرهه."

"فلنراجع أقوالنا مرةً أخرى."

لكنهما لا يفعلان. فكلاهما مصعوق، يتفكّر في المحقق أليسون وأسلوبها الذي ستعتمده. في غضون ساعة، قد تعني أي دقيقة الآن. معرفتي بكل شيء، تقريبًا كل شيء، تجعل مني شريكًا في الجرم، وإن أكن محصّنًا، بطبيعة الحال، من الخضوع للتحقيق، ومع ذلك فالخوف يتملكني. كذلك الفضول يتملكني، وأتحرّق شوقًا إلى الوقوف شاهدًا على مهارات المحقق أليسون. فأي عقل منفتح، سيغرس وتدًا بين هذين الاثنين في ظرف دقائق ويقلِب أحدهما على الآخر. ترودي ستخونها أعصابها، كلود سيخونه غباؤه.

أحاول تخمين مكان كوبَي القهوة الصباحية من زيارة أبي الأخيرة. لا بد أنهما متروكان، غير مغسولين، في حوض المغسلة، في الانتظار. فتحليل البصمة الوراثية على أحدهما سيؤكد أقوال أمي وعمي. فتات الوجبات الدنمركية لا ريب على قرب منهما.

"سريعًا،" ينطق كلود أخيرًا. "فلنراجع أقوالنا. أين اندلع الشجار؟"

"في المطبخ."

"لا، بل عند عتبة الباب. علام اندلع؟"

" المال."

"لا. طردك خارج البيت. مذ متى يعاني من الاكتئاب؟"

"لأعوام."

"بل لأشهر. ما المبلغ الذي أقرضته اياه؟"

"ألف."

"خمسة. بحق المسيح. ترودي."

"أنا حبلى. لا أقوى على التركيز."

"قد قلتها البارحة بنفسك. كل شيء كما جرى في الواقع زائد الاكتئاب، ناقص السموذي، زائد الشجار."

"زائد القفازين. ناقص قرار انتقاله إلى البيت."

"إلهي، أجل. مرةً أخرى. علام كان مكتئبًا؟"

"علاقتنا. الديون. العمل. الطفل."

"حسن."

يعاودان المراجعة مرةً أخرى. مع الكرة الثالثة يتحسن الوضع. كم هو مقزّز تواطؤي معهما، تمنياتي لهما بالنجاح.

"هلمَّ، أعيدي."

"كل شيء كما جرى. ناقص السموذي، زائد الشجار والقفازين، ناقص الاكتئاب، زائد رغبته بالانتقال إلى البيت."

"كلا، اللعنة! ترودي. ما جرى. زائد الاكتئاب، ناقص السموذي، زائد الشجار، زائد القفازين، ناقص قرار انتقاله إلى هنا."

جرس الباب يرن، ويتجمّدان.

"أخبرهما أننا لسنا مستعدين بعد."

لا أدري إن كانت مزحة من أمي، أو دلالة ذعرها.

ينهض كلود، يغمغم سبابًا سوقيًّا، ويمضي نحو الهاتف المرئي، بيد أنه يغير رأيه ويمضي نحو السلم، نحو الباب الأمامي.

ترودي وأنا نطوف متثاقلين بعصبية في المطبخ. هي الأخرى تدمدم بينما تراجع قصتها. من صالحها، فكل جهد متوال تبذله في بناء ذاكرتها المختلقة، يدفعها أبعد وأبعد عن واقع الحدث. هي الآن تحاول حفظ ذكرياتها عن ظهر قلب. وأي خطأ ترتكبه سيعود عليها بالفائدة. فالأخطاء هي الملقن الذي يدفعها إلى معاودة حفظ النص، ومع كل تكرار، يستحيل النص المكتوب حقيقةً في ذهنها. لها أن تقول لنفسها – هي لم تشتر الغليكول، لم تذهب إلى **شارع جد**، لم تخلط السوائل بعضها ببعض، لم تزرع أدلة في السيارة، لم تتخلص من الخلاط. هي وحسب نظفت المطبخ – ومنذ متى تنظيف المطبخ جريمة؟ متى ما اقتنعت بالنص، ستتحرر من زيف الأداء الواعي ولعلها ستحظى بفرصة حقيقية للنجاة بجلدها. فالكذبة المتقنة، مثلها مثل تأرجح عصا الغولف في يد المحترف، متحررة من قيود الوعي الذاتي. أجل، لقد حظيت أيضًا بفرصة الاستماع إلى التعليق الرياضي.

أرهف السمع وأغربل صوت الخطى الهابطة على الدرج. المحقق

الرئيس أليسون رقيقة العظام كما العصفور، لا تعكس البتة أقدميتها في سلك الشرطة. هناك تبادل مصافحات. من الصوت المتخشب "وكيف حالك؟" أتعرّف على الرقيب الأكبر سنًّا الذي زارنا البارحة. يا ترى ما الذي عطّل ترقيته؟ الطبقة الاجتماعية، المستوى التعليمي، نسبة الذكاء، فضيحة، لأجله أتمنى أن تكون الفضيحة، على الأقل سيلام عليها ولن يستدعي شفقة أحد.

المحقق الرئيس الرشيقة تجلس إلى طاولة المطبخ وتدعونا جميعًا إلى أن نحذو حذوها وكأنما هي صاحبة البيت. أتصور أمي تقول في نفسها لو كان المحقق رجلًا لكان من الأسهل عليها خداعه. تبسط أليسون الدوسيه، وما تنفك تضغط على الزر الزنبركي لقلمها بينما تتكلم. تخبرنا بأن بادئ ذي بدء ثم تتريث هنيهة – في تأثير دارمي كي تنظر مليًا، وأنا موقن من تخميني هذا، في عينيْ ترودي وكلود – عليها أن تعبّر عن أسفها الشديد لخسارة زوج عزيز، أخ عزيز، وصديق عزيز. لا أب عزيز. وها أنا أصارع من جديد رعدة الإقصاء الوجودي المألوفة. إلا أن الصوت حنون ودافئ، أضخم من هيئة جسدها الرقيقة، صوت مرتخ مرتاح مع مسؤولية المنصب الذي تحمله. المسحة الخفيفة للكنة كوكنيز هي مفتاح اتزانها وفخرها المدينيّ ولن يسهل على أحد تحدي خلفيتها الطبقية. وبالتأكيد ليس على يد أمي ونطقها المتكلف لحروف العلة. تلك كانت أيامًا مضَت. الخدعة باتت قديمة والتاريخ مضى قدمًا. يومًا ما سيتحدث معظم رجال الدولة في بريطانيا بذات لكنة المحقق الرئيس أليسون. أتساءل إن كانت تحمل مسدسًا معها. لا أظن. هي أعلى مقامًا من حمله. كما الملكة أعلى مقامًا من حمل المال. فإطلاق الرصاص على الناس مهمة الرقباء وما دونهم من رتب.

أليسون تفسر لنا أن زيارتها هذه هي مقابلة غير رسمية تساعدها على تفهم الأحداث وراء الوفاة المأساوية. ترودي وكلود ليسا ملزمين البتة بالإجابة على أي سؤال. لكنها مخطئة. يؤكدان لها شعورهما بأنهما ملزمان بروح الواجب اتجاه الفقيد. فرفضهما الإجابة سيبدو مثيرًا للشك. لكن إن كانت المحقق الرئيس تتقدمهما بخطوة، لربما فسرت إذعانهما دليلًا ضدهما. فمن لا يملك شيئًا يخفيه سيصر على وجود محام كإجراء احترازي ضد أخطاء الشرطة أو الاقتحام غير القانوني.

وبينما نستقر في أماكننا حول الطاولة ألاحظ ممتعضًا الغياب التام لأي استفسار مهذب عني. متى التاريخ المتوقع؟ صبي أم فتاة؟

عوضًا عن ذلك، المحقق الرئيس لا تهدر لحظة وتدخل مباشرةً في صلب الموضوع. "لربما تصطحباني في جولة في البيت متى ما فرغنا من الحديث."

أقرب إلى أمر منه إلى طلب. كلود يظهر حماسته، وكم أداؤه مبالغ به في إذعانه لطلبها. "أوه بالطبع. بالطبع!"

مذكرة التفتيش لكانت الخيار البديل. على كلٍّ، عدا القذارة، فلا شيء في الأعلى سيثير اهتمام الشرطة.

توجه المحقق الرئيس أليسون حديثها إلى ترودي، "زوجك قد جاء هنا البارحة قرابة العاشرة صباحًا؟"

"أجل. هذا صحيح." نبرة صوتها هادئة، يجدر بكلود الاقتداء بها.

"والوضع كان متوترًا."

"بالطبع."

"لماذا بالطبع؟"

"لأني أقطن هنا مع أخيه، في المكان الذي يعتبره جون بيته."

"ولمن هذا البيت؟"

"بيت الزوجية."

"وهل انتهى الزواج؟"

"أجل."

"هل تسمحين لي بالسؤال؟ هل كان منتهيًا بالنسبة إلى جون؟"

ترودي تتردد. فالإجابة على هذا السؤال تحتمل الصواب والخطأ.

"أراد مني العودة إليه لكنه أيضًا لم يرد التخلي عن عشيقاته."

"هل لك أن تسمي لي واحدة منهن؟"

"لا."

"لكنه أخبرك عنهن."

"لا."

"إلا أنك عرفت بطريقة ما."

"بالتأكيد عرفت."

ترودي تسمح لنفسها بإظهار امتعاضها. وكأنما تقول للمحقق أنها هي المرأة الحقيقية هنا. لكنها بذلك تجاهلت تلقين كلود لها. فقد كان المفترض بها قول الحقيقة، مع الزوائد والنواقص المتفق عليها. أسمع عمي يتزحزح في كرسيه.

دون أن تأخذ نفسًا، تغير أليسون الموضوع. "احتسيتم القهوة."

"أجل."

"ثلاثتكم. حول هذه الطاولة؟"

"ثلاثتنا." هذا صوت كلود، لعله قلق أن يعطي التزامه الصمت انطباعًا سيئًا.

"أي شيء آخر؟"

"ماذا؟"

"إلى جانب القهوة. هل عرضتما عليه شرب أي شيء آخر؟"

"كلا." أمي تبدو حذرة.

"وماذا كان في القهوة؟"

"اعذريني؟"

"حليب؟ سكر؟"

"دائمًا ما شربها سوداء." نبضها أخذ يرتفع.

لكن تظل كلير أليسون على حيادها الحصين. وتلتفت إلى كلود.

"أدنته مبلغًا من المال؟"

"أجل."

"كم؟"

"خمسة آلاف." كلود وترودي يجاوبان معًا في نشاز.

"شيك؟"

"بل نقدًا. وفقًا لرغبته."

"هل سبق أن ذهبت إلى متجر العصائر في **شارع جد**؟"

كلود يطرح إجابته بالسرعة التي طرحت عليه السؤال. "مرةً أو مرتين. كان جون من أرشدنا إليه."

"لم تكن هناك البارحة، على ما أفترض."

"كلا."

"هل سبق لك أن استعرت قبعته السوداء ذات الحافة العريضة؟"

"أبدًا. فالقبعات لا تروق لي."

تلك قد تكون الإجابة الخاطئة، لكن لا وقت هناك للترقيع. الأسئلة الآن باتت تحمل وزنًا جديدًا. قلب ترودي يخفق بسرعة. ما

كنت لأثق في تركها تتحدث. لكنها تتكلم، وفي نبرة متماسكة.

"هدية عيد ميلاده مني. لطالما أحبها."

المحقق الرئيس توشك على الانتقال إلى موضوع آخر، لكنها تعود قائلةً، "القبعة هي كل ما تسنى لنا رؤيته من جون على كاميرات المراقبة. وقد أرسلناها إلى المختبر لإجراء فحص البصمة الوراثية بحثًا عن أي تطابق."

"لم نعرض عليك شرب الشاي أو القهوة. " تقول ترودي في نبرة متبدلة.

لا بد أن المحقق الرئيس قد رفضت عرضها بهز رأسها نيابةً عن نفسها وعن الرقيب الذي ما زال يلوذ بالصمت. "هذا جل ما نعتمد عليه في التحقيق هذه الأيام،" تقول في نبرة حنين. "العلم وشاشات الحاسوب. والآن، أين كنا – آه أجل. الوضع كان متوترًا. لكني أرى في الملاحظات أن شجارًا قد وقع."

كلود سيجري ذات الحسابات السريعة التي أجريتها أنا. سيعثرون على شعرات منه في القبعة. نعم، سبق أن استعرتها منذ فترة لكانت الإجابة الصحيحة.

"أجل." تجيبها ترودي. "ولم تكن المرة الأولى."

"هل تمانعين إخباري –"

"أراد مني الانتقال خارج البيت. وأجبته أني سأنتقل في الوقت الذي أراه أنا مناسبًا."

"وحين غادر في سيارته كيف كانت حالته الذهنية؟"

"ليست جيدة. كان مشتتًا. محتارًا. في واقع الأمر هو لم يرد مني المغادرة. هو أراد مني العودة إليه. وقد حاول إثارة غيرتي، بادعائه أن

إيلودي كانت عشيقته. لكنها فسرت الأمر لنا. لم يكن من علاقة تجمعهما."

تفاصيل كثيرة. هي تحاول استعادة زمام السيطرة. لكنها تتحدث في عجالة. عليها أن تتريث وتأخذ نفسًا.

كلير أليسون تلزم الصمت بينما نحاول تخمين الموضوع الجديد الذي ستنتقل إليه. لكنها تُبقي على هذا الموضوع وتزف لنا الخبر في أرق صورة ممكنة. "تلك ليست المعلومات التي وصلتني."

لحظة خدر تصيبنا، وكأنما الصوت ذاته قد همد مقتولًا. جسد ترودي يفشّ والمساحة من حولي تضيق. نخاعها الشوكي يسترخي ويلتف مثل نخاع امرأة عجوز. لا يسعني مقاومة الشعور بنزر يسير من الفخر بنفسي. فلطالما كانت لدي شكوكي اتجاه إيلودي. كم كانا متحمسين لتصديقها. والآن يدركان حقيقتها: زهور المربية حتمًا ذابلة لا مُحال. لكن عليّ أن ألزم الحذر أيضًا. فلعلّ المحقق الرئيس لها أسبابها الخاصة كي تكذب بهذا الشأن. تضغط على الزر الزنبركي لقلمها الحبر، إيذانًا بمضيها قدمًا.

أمي تقول في صوت خافت، "حسن، أظنني كنت أنا الطرف المخدوع."

"أنا آسفة سيدة كيرنكروس. لكن مصادري موثوق بها. فلنقل وحسب أن تلك شابة يافعة مضطربة."

لكنت تعمقت أكثر في نظرية أنَّ كون ترودي الطرف المخدوع لهو في الواقع أمر يصب في صالحها، وتدعم قصتها المختلقة عن خيانة زوجها لها. لكني مصعوق؛ كلانا مصعوق. أبي، تلك الذرة المشكوك بها، ها هو يتملص من يدي، يبتعد عني أكثر وأكثر على وقع المحقق الرئيس فيما

تشنّ هجومها التالي على أمي. فتجيبها هي في صوت خافت، مع رعشة ذعر فتاة صغيرة تتلقى العقاب على سوء تصرفها.

"أي عنف؟"

"كلا."

"تهديدات؟"

"كلا."

"ولا تهديدات منك."

"كلا."

"وماذا عن اكتئابه؟ ما الذي بوسعك إخباري به؟"

تسألها في نبرة لطيفة، لذا لا ريب تنصب لها فخًا. لكن ترودي لا تتريث. قد باتت مشتتة وعاجزة عن اختلاق أكاذيب جديدة، باتت مقتنعة أكثر بالحقيقة التي اختلقتها لنفسها، لذا تعود وتكرر ذات الأداء، في ذات اللغة المنمقة الغريبة عليها. ألم عقليّ مبرح ... يصب جام غضبه على أحبائه ... يقتلع القصيدة من أغوار روحه. أصغي إليها وتخطر إليّ صورة متخيلة لموكب من الجنود المرهقين منتوفي الريش. ذكرى سبيدجية باهتة لبرنامج سمعته على البودكاست، **الحروب النابليونية** مذاعة على عدة حلقات. في تلك الأيام الخوالي حيث عشنا أنا وأمي في راحة بال. أذكر أني قلت في نفسي، آه لو أن بوني[52] بقي ضمن حدوده، لكرّس حياته في تشريع قوانين جيدة لصالح فرنسا.

كلود ينضم إلى الجوقة. "ألدُّ أعداء نفسه."

الاختلاف الطفيف في التردد الصوتيّ ينبئني أن المحقق الرئيس قد التفتت وتنظر الآن مباشرةً اتجاه كلود. "وهل من أعداء آخرين عدا

(52) Boney the Bogyman: اللقب الساخر الذي يطلقه البريطانيون على نابليون بونابرت إذ اختلقوا منه شخصية كاريكاتورية على أنه ابن الشيطان يخيفون به الأطفال.

نفسه؟"

نبرتها مراوغة. فإما السؤال جاء بنية صافية لتلطيف الأجواء، أو الأسوأ، عن نية خبيثة.

"وما أدراني؟ لم نكن مقربين من بعضنا."

"أخبرني،" تقول له في نبرة حنون. "عن طفولتكما معًا. طبعًا، إن أردت."

وهو يريد. "كنت أصغر منه بثلاثة أعوام. كان بارعًا في كل شيء. الرياضة، الدراسة، الفتيات. كان يعتبرني أجربًا حقيرًا. وحين كبرت أتقنت فعل الشيء الوحيد الذي عجز هو عن فعله. صنع ثروة."

"في العقار."

"شيء من هذا القبيل."

تعود المحقق الرئيس وتلتفت صوب ترودي. "هل هذا البيت معروض للبيع؟"

"بالتأكيد لا."

"قد سمعت أنه معروض."

ترودي لا تجيب. أول خطوة جيدة تأخذها منذ دقائق.

أجدني أتساءل إن كانت المحقق الرئيس ترتدي الزي الرسمي. هي دون ريب. قبعتها المستدقة موضوعة جانب مرفقها على الطاولة، كما المنقار الكبير. أتصورها تفتقر إلى التعاطف الثديّ، متحررة منه، وجهها هزيل، شفتاها نحيلتان، القميص مزرر حتى العنق. دون ريب تومئ برأسها كما الحمام لدى مشيها. الرقيب يظنها متزمتة. موعودة بنيل ترقية تفوق قدراته. وها هي على وشك الطيران. إما أنها قررت أن وفاة جون كيرنكروس هو انتحار أو ربما لديها سبب آخر يدفعها للاعتقاد

أن امرأة حبلى في الفصل الثالث من حملها هو غطاء جيد للتستر على جريمة. كل كلمة تتفوه بها، أوهى ملاحظة تبديها، مفتوحة للتأويل. كل ما بيدنا فعله هو الإنصات والتحليل. فلعلها، مثلها مثل كلود، غبية وذكية في ذات الآن. بكل بساطة لا نعرف. جهلنا هو ورقة لعبها المثالية. أرجم بالغيب وأقول إن شكًّا طفيفًا يساورها، بيد أنها لا تعرف شيئًا. إن رؤساءها يرصدون تحركاتها. لا بد لها من التزام اللباقة لأن هذا الحديث إجراء غير اعتيادي وقد يهدد صحة سير الإجراءات القانونية. ستؤثر الخيار المناسب لها على إظهار الحقيقة. فمستقبلها المهني هو البيضة التي تجلس عليها، تدفئها، في انتظارها تفقس.

إلا أني سبق أن رجمت وأخطأت.

الفصل التاسع عشر

خطوتها القادمة؟ كلير أليسون تود أخذ جولة في البيت وإلقاء نظرة. فكرة سيئة. لكن أن نسحب الإذن الآن، في الوقت الذي، حسب علمنا، كل الأمور تتجه فيه للأسوأ، لن يزيد الأمور إلا سوءًا. الرقيب يتقدم الركب على درجات السلم الخشبي، يتبعه كلود، المحقق الرئيس، من ثم أمي وأنا. لدى وصولنا الطابق الأرضي تعلمنا المحقق الرئيس بأنها، إن لم نمانع، تود بدء جولتها من الأعلى ونزولًا. لا رغبة لترودي بصعود أي درجة أخرى. لذا يتابع الآخرون جولتهم بينما نمضي نحن صوب حجرة الجلوس كي نجلس ونتفكر.

أبعث خيالي خفيف الوطأة رسولًا يتقدمهم، أولًا نحو المكتبة. غبار جصيّ، نفحة من عبق الموت، لكن مقارنةً بغيرها من الحجرات، مرتبة. الطابق الذي يعلوه، حجرة النوم والحمام، فوضى حميمية، الفراش ملاءات متحابكة من الشهوانية والنوم المتقطع، أكوام منثورة على الأرض من ملابس ترودي، والحمام على ذات الفوضى مع قوارير تفتقر أغطيتها، مراهم مبعثرة، وثياب داخلية قذرة. أتساءل عمّا تفصح عنه الفوضى للعين الشكاكة. لا يعقل أنها لا تدل على نزعة أخلاقية ما. فازدراء الأشياء، ازدراء النظام، النظافة، لا ريب أنها كلها

تقع ضمن نطاق احتقار القانون، القيم، وحتى احتقار الحياة ذاتها. فما عساه المجرم يكون إلا روحًا فوضوية؟ ومن جهة أخرى، الجهد المبالغ به في ترتيب حجرة النوم قد يكون الآخر مثارًا للشك. المحقق الرئيس، ذات العينين الثاقبتين كما طائر أبي الحناء، ستستوعب كل ما تراه في لمحة وتمضي قدمًا نحو الحجرة اللاحقة. لكن أسفل الفكر الواعي، الاشمئزاز مما رأته قد يقوض حيادية حكمها.

هناك غُرَف أخرى تعلو غُرَف الطابق الأول لكن لم يسبق لي قط أن ذهبت إليها. لذا أستقبل رسولي العائد، ومثل أي طفل بار، أسخّر عقلي في الاطمئنان على حالة أمي. نبض قلبها قد استقر. تبدو شبه هادئة. ولعله الهدوء الذي يسبق العاصفة المهلكة. مثانتها المحتقنة تضغط على رأسي. بيد أنها لن تتعنى التزحزح قيد أنملة. فهي الآن تجري حساباتها، تتفكر على ما أظن في سير خطتهما. لكن يجدر بها أن تسأل نفسها ما الخيار الذي ينصب في مصلحتها. الانفصال عن كلود. رمي وزر الجريمة بأكملها على عاتقه. فلا فائدة من قضاء الاثنين محكوميةً في السجن. وهكذا يتسنى لي ولها أن نقضي أيامنا الكئيبة هنا في البيت. ووقتئذ، متى ما أدركت أنها ستعيش في البيت وحدها، لن ترغب بالتخلي عني. وفي هذه الحال أعدها أني سأغفر لها. أو، على الأقل، سأتعامل معها لاحقًا.

لكن ما عاد من وقت أمامنا لحبك المكائد. أسمعهم يهبطون درجات السلم. يمرون على الباب المفتوح لحجرة الجلوس في طريقهم نحو الباب الأمامي. بالتأكيد المحقق الرئيس لن يفوتها أن تغادر البيت دون إلقاء وداع لائق على الأرملة الثكلى. في الواقع كلود قد فتح الباب الأمامي وها هو يُرِي أليسون الآن أين ركن أخوه سيارته، كيف أن محرك السيارة لم يشتعل بادئ الأمر، وكيف، رغم الشجار، قد لوحا

إليه حين اشتعل المحرك ورجع بالسيارة إلى الوراء نحو الشارع. درس في قول الحقيقة.

والآن ها هو كلود والشرطة يقفون قبالتنا.

"ترودي – هل لي أن أدعوك ترودي؟ يا له من وقت مؤسف تمرين به، ومع ذلك كنت جِدّ متعاونة معنا. جدًا مضيافة. لا يسعني – " المحقق الرئيس تقطع كلامها، فقد تشتت انتباهها. "هل هذه تعود إلى زوجك؟"

هي تنظر نحو الصناديق الكرتونية التي حملها أبي إلى الداخل وتركها أسفل جدار النافذة البارزة. أمي تنهض عن المقعد. إن كان هناك من مشكلة فهي تفضل الاستفادة من ميزة ارتفاعها. وعرضها.

"كان ينوي العودة والانتقال إلى هنا. كان سيغادر **شورديتش**."

"هل لي أن ألقي نظرة؟"

"هي كتب وحسب. لكن تفضلي."

أسمع لهاثًا من الرقيب ما إن يجثو على ركبتيه ويفتح الصناديق. أخمن وأقول إن المحقق الرئيس تربض الآن على فخذيها، ما عادت طائر أبا الحناء، بل بطةً ضخمة. خطأ مني أن أمقتها. فهي حكم القانون وقد سبق أن اعتبرتُ نفسي ضمن مُوالِي هوبز. الدولة هي الملزمة وحسب باحتكار حق استخدام العنف. ومع ذلك فتصرُّف المحقق الرئيس استفزّني، الطريقة التي تنقّب بها في مقتنيات أبي العزيزة على قلبه، كتبه المفضلة، بينما تبدو وكأنما تحادث نفسها، مدركةً ألا خيار أمامنا سوى الاستماع إليها.

"لا أفهم. يا له من أمر حزين، جد حزين ... هكذا فجأة على قارعة الطريق ..."

بلا ريب هو أداء تمثيلي منها، تمهيد للمشهد الذي يليه. تنهض عن الأرض. أظنها تنظر الآن نحو ترودي. وربما نحوي.

"لكن ما يحيرني صدقًا هو هذا. ولا أوهى أثر لبصمة على قارورة الغليكول. ولا حتى على الكوب. التو وصلني الخبر من الأدلة الجنائية. لا أثر البتة. غريب جدًا."

"آه!" يتفوه كلود تمهيدًا للإجابة، لكن ترودي تقطع عليه الطريق. عليّ أن أحذرها. عليها ألا تبدو متحمسة للإدلاء بإجابتها. بيد أنها تتعجل في تفسيرها الأمر، أسرع مما ينبغي. "قفازات. مرض جلدي. كان يخجل من يديه."

"آه، القفازان!" تعقب المحقق الرئيس متعجبة. "معك حق. نسيت أمرها تمامًا." أسمعها تفرد ورقةً مطوية. "هل هذان هما القفازان؟"

أمي تتقدم خطوة للأمام كي تلقي نظرة. لا بد أنها صورة مطبوعة. "أجل."

"ألم يملك زوجًا آخر؟"

"لا. لم يملك زوجًا آخر مثيلًا لهذا. اعتدت القول له أن لا حاجة به لارتدائهما. فلا أحد فعلًا كان يمانع مظهر يديه."

"هل اعتاد ارتداءهما طوال الوقت؟"

"كلا. لكن معظم الوقت، خصوصًا متى ما انتابه الإحباط."

المحقق الرئيس تغادرنا الآن ونتنفس الصعداء. وجميعنا نلحق بها خارجًا نحو الردهة.

"أتدرين. يا له من أمر طريف. الأدلة الجنائية مرة أخرى. قد اتصلوا بي صباحًا وغاب عن ذهني تمامًا. كان يجدر بي إخبارك. لكن ما العمل، فهناك أمور أخرى كثيرة تشغل بالي. اقتطاع الرواتب من

العاملين في صف المواجهة الأول من الشرطة. موجة الجرائم المحلية. على أي حال. الإبهام والسبابة في القفاز الأيمن. ما كنت لتخمني أبدًا. عشش من العناكب الصغيرة تقطنهما. العشرات منها. وترودي، ستسعدين لسماع هذا – صغار العناكب على أفضل حال. حتى أنها بدأت تحبوا!"

الباب الأمامي يفتح، أظن على يد الرقيب. المحقق الرئيس تطأ خارجًا. وبينما تمضي بعيدًا عنا صوتها يبتعد ويمتزج بأصوات حركة السير. "لو أنّ أحدهم صوّب مسدسًا على رأسي لما تمكنت من تذكر الكلمة اللاتينية المناسبة. على العموم. قد مر أمد طويل مذ وضع أحدهم يده في هذا القفاز."

الرقيب يربت برفق على ذراع أمي، وأخيرًا ينطق، في نبرة وداع رقيقة، " غدًا صباحًا سنعود. فهناك أمور أخرى تحتاج إلى توضيح."

الفصل العشرون

وأخيرًا ها نصْلُ السكين على أعناقنا. هناك قرارات لا بد أن تؤخذ، متعجلة، لا تراجع عنها، وملعونة. لكن أولًا، ترودي في حاجة إلى دقيقتين من العزلة. نهبط على عجالة نحو السرداب، نحو الحجيرة التي يسميها إخوتنا الاسكتلنديون الفكهون بيت الخراء [53]. وهناك، أتخلص من الضغط الرازح على جمجمتي وتمضي أمي ثوانيَ أكثر من المطلوب جالسةً القرفصاء، هي تتنهد لنفسها، وأنا يصفو فكري. أو بالأحرى تسلك أفكاري سبيلًا جديدًا. كنت أظن أن على القاتلين الإفلات بجريمتهما كي أنال أنا حريتي. بيد أني أرى الآن كم أنّ هذا التفكير ضيّق المنظور، وأنانيّ جدًّا. فهناك اعتبارات أخرى. مقتي الشديد لعمي قد يفوق حبي الشديد لأمي. ولربما إنزال العقاب عليه أنبل عندي من إنقاذها. لكن ربما، ربما في يدي تحقيق الغايتين.

تلك الهموم تظل تشغل بالي بينما نعود أدراجنا نحو المطبخ. يبدو أن كلود، بعد مغادرة الشرطة، قد اكتشف احتياجه إلى كأس ويسكي. ما إن نسمع رنة صبها لدى دخولنا، تلك الرنة المغرية، تكتشف ترودي أنها هي الأخرى في حاجة إلى كأس. وكأس كبيرة. ملء نصفها ويسكي، وملء

(53) The cludgie: الاسم العامي الذي يطلقه الاسكتلنديون على بيت الخلاء الخارجي، وهي لفظة عامية سوقية.

نصفها الآخر ماء الصنبور. في صمت، يذعن عمي لطلبها. وفي صمت، يقفان قبالة بعضهما عند حوض المغسلة. لا نخب يرفع في لحظة كهذه. فكلاهما يمحص الخطأ الذي وقع فيه الآخر، والخطأ الذي وقع فيه هو. أو لعلهما يقرران خطوتهما التالية. هذه هي حالة الطوارئ التي رهبا وقوعها وخططا لها. يرميان بعرض الحائط كل الاحتياطات التي أخذاها، ودون تبادل أي كلمة يَقبلان بحل أخير. حيواتنا على وشك أن تتغير. طيف المحقق الرئيس أليسون يخيّم فوقنا، إلهةً باسمة، نزوية. فلن نعرف، إلا بعد فوات الأوان، السبب الذي منعها عن إلقاء القبض علينا في تلك اللحظة، ورحيلها تاركةً إيانا وحدنا. هل تنتظر تجميع أدلة دامغة، نتيجة فحص البصمة الوراثية على القبعة، ومن بعدها إعلان شارة الانطلاق؟ على أمي وعمي أن يضعا في الاعتبار أن أي خطوة يأخذانها الآن قد تكون هي الخطوة التي تتوقعها المحقق منهما، وكل ما عليها فعله هو الجلوس والانتظار. ومن جهة أخرى لعل خطتهما الغامضة هذه ما كانت لتخطر إليها وهما من يتقدمانها بخطوة. سبب آخر يدفعهما للتصرف بجرأة. عدا أنهما، عوضًا عن فعل أي شيء، كلاهما اللحظة يفضل قضاء الوقت في الشرب. ربما، أيًّا يكن ما يفعلانه سيجبر كلير أليسون على التصرف، حتى تسويفهما هذا في الفصل المسرحي الإضافي من احتساء الويسكي. لكن لا، المجازفة بقرار راديكالي هي فرصتهما الوحيدة – ولا بد أن يغتنماها الآن.

ترودي ترفع ذراعها كي تحول بين كلود وبين صب كأسها الثالثة. كلود يفوقها قدرةً على التحمل. لذا هو في حاجة إلى جرعة إضافية تصفي ذهنه. نصغي إليه يصب كأسه – كأسًا من الويسكي الصافي، جرعة مضاعفة – من ثم نصغي إليه يتجرعها، ذاك الصوت المألوف

لآذاننا. لعلهما يتساءلان كيف لهما أن يتجنبا الوقوع في شجار وتوحيد جهودهما نحو تحقيق هدفهما المشترك. من بعيد يصلنا نفير صفارات الإنذار، سيارة إسعاف وحسب، لكنها تمس وتر مخاوفهما. فخيوط شبكة الدولة الخفية ممتدة على كافة أرجاء المدينة. ويعصى على أحد الإفلات منها. النفير يلقنهما الشروع في تبادل الحوار، وأخيرًا، مع جملة مفيدة تفسر الماء بالماء.

"الوضع سيء." تقول أمي في صوت خفيض أجش.

"أين الجوازات؟"

"لديّ. والمال؟"

"في حقيبتي."

عدا أنهما لا يتزحزحان عن مكانهما والتباين في نبرة حديثهما – إجابة ترودي المراوغة – لا تستفز عمي. يحتسي كأسه الثالثة، والتو كأس ترودي الأولى تصلني. بالكاد شهوانية، بيد أنها ترقى للمناسبة، أو بالأحرى، تغرق في الهاوية، إحساس جاثم بدنو النهاية دون بداية جديدة في الأفق. أستحضر في مخيلتي طريقًا عسكريًّا قديم يقطع وَهْدًا باردا، مع نفحة من رائحة الصخر الرطب والحتّ، قرقعة الحديد وخطى الركب المرهق على الصخر المتقلقل، تحت وقر الظلم الثقيل. بعيدًا جدًا عن المنحدرات المطلة جنوبًا، حيث براعم العنب تزهر على أغصان الكروم الأرجوانية راسمةً صورة التلال المتقهقرة خلفنا ملتفةً بأطياف النيلي. لكنت فضلت المكوث هناك. لكني أذعن لقدري – الويسكي، جرعتي الأولى، تطلق العنان لشيء فيّ. تحرّر مقلق – البوابة المفتوحة تقود بي إلى الصراع والخوف مما قد يدبره العقل لي. وها أنا أختبر تدبيره. سؤال يوجه إليّ، أنا أطرح السؤال عليّ، ما الشيء الذي أريده

الآن أكثر من أي أمر آخر. أي شيء أريد. الواقعية لن تقف عائقًا. اقطع الحبال، أطلق لعقلك العنان. لي أن أجيب على سؤالي دون أي تفكير – وها أنا أعبر البوابة المفتوحة الآن.

خطوٌ على درجات السلم. ترودي وكلود ينظران للأعلى، مرتاعيْن. يا ترى هل المحقق الرئيس وجدت سبيل عودتها إلى البيت؟ هل سارق اختار أسوأ ليلة يسطو فيها؟ هذا هبوط ثقيل، خطاه تدب على مهل. يبصران حذاءً جلديًا أسود، من ثم خصرًا متحزّمًا، قميصًا ملطخًا بالقيء، ومن ثم تعبيرًا رهيبًا، جامدًا وعازمًا. أبي في ملابسه التي توفي فيها. وجهه أبيض شاحب، شفتاه المتعفنتان أصلًا سوداوان مخضرتان. العينان، ضيقتان وثاقبتان. وها هو يقف الآن على آخر درجات السلم، أطول قامةً مما نذكره عليه. قد أتانا من المشرحة كي يجدنا وهو مدرك تمامًا لما يريد. الرجفة تسري بي لأن أمي ترجف. لا هالة مترأرئة من حوله، لا شيء شبحيّ من هذا القبيل. وليس كذلك بهلوسة. بل هو هذا أبي بشحمه ولحمه، جون كيرنكروس، على صورته الدنيوية. أنين أمي المذعور يستحثه، إذ ها هو يسير في اتجاهنا.

"جون،" يقول كلود بحذر، في نبرة مرتفعة، وكأن بيده إيقاظ هذا الكائن الهائم على حقيقة فنائه. "جون، هذا نحن."

يبدو أن أبي مدرك لهذه الحقيقة الجليّة. فها هو يقف قبالتنا، قريبًا منا، ينضح بالرائحة العفنة لمزيج الغليكول واللحم البائت، القوت المفضل لدى الدود. أمي من يحدق بها بعينيه السوداوين الضيقتين المتحجرتين. شفتاه المقرفتان تتحركان لكن لا صوت يصدر عنهما. اللسان أكثر سوادًا من الشفتين. يبقي عينيه شاخصتين فيها، ويمد ذراعًا. يده المنزوع عنها اللحم تمسك بخناق عمي. أمي لا تقوى حتى على

الصراخ. وحتى آنذاك، عيناه المتحجرتان لا تتزحزحان عنها. ففعلته هذه يرتكبها كرمى لها، هي هديته لها. قبضة يده الواحدة، عديمة الرحمة، تضيق وتضيق. كلود يقع على ركبتيه، عيناه تجحظان، يداه تضربان وتشدان ذراع أخيه عبثًا. صرير ناء، صرير فأر وضيع، دليلنا على أن الروح لا تزال فيه. والآن ما عادت. أي، من لم يرمق أخاه حتى بنظرة، يدعه يهوي، والآن يدني زوجته إليه، يطوقها بذراعين نحيفتين قويتين، مثل قضيبين من الفولاذ. يجذب وجهها صوبه ويقبلها قبلةً طويلة شغوفة بشفتين عفنتين باردتين. مشاعر الذعر والقرف والخزي تجتاحها. لن تنفك هذه اللحظة تعذبها حتى آخر يوم في حياتها. دون مبالاة، يخلي سراحها، ويعود أدراجه من حيث أتى. وحتى قبل بلوغه أعلى السلم يتلاشى.

حسن، كان هذا هو السؤال الذي وُجّه إليّ. أنا من طرحته عليّ. وهذا ما أردته أكثر من أي شيء. خيال طفوليّ هالووينيّ. إذ ما السبيل الآخر أمامي أستحضر به روحًا منتقمة في هذا العصر المدنيّ؟ فالقوطية نفيت على يد العقلانية، والساحرات الشريرات هجرن الفلاة، ومذهب المادية، المقلق جدًا للروح، هي كل ما تبقى لدي. صوت على المذياع أخبرني يومًا أن متى ما فهمنا كنه المادة فهمًا وافيًا سينتابنا شعور أفضل. أشك في ذلك. لن أحظى أبدًا بما أريد.

***

أفيق من أحلام يقظتي وأجدنا في حجرة النوم. لا أذكر شيئًا عن صعودنا. الصوت المكتوم لباب خزانة الثياب، قعقعة علاقات الملابس، حقيبة سفر ترفع عن الأرض وتوضع على السرير، تعقبها حقيبة

أخرى، من ثم الطقطقة المفاجئة لأقفال تفتح. يجدر بهما أن يسرعا في توضيب الحقائب. فالمحقق الرئيس قد تغير الليلة علينا. هل هذه الفوضى خطتهما للطوارئ؟ أسمع لعانًا وتذمر.

"أين اختفى؟ التو كان هنا. في يدي!"

يقطعان الحجرة جيئةً وذهابًا، يشرعان الأدراج، يندفعان داخل وخارج الحمام. ترودي توقع كأسًا على الأرض وينكسر إلى أشلاء. بالكاد تكترث. ولسبب ما فقد تركا المذياع مفتوحًا. كلود يجلس قبالة حاسوبه المحمول ويتمتم، "القطار ينطلق التاسعة. سيارة الأجرة في الطريق."

شخصيًا أوثر باريس على بروكسل. فمحطات القطار فيها أفضل. ترودي، لم تغادر الحمام حتى الآن، تغمغم لنفسها، "دولارات ... يورو."

كل شيء يقولانه، حتى الأصوات العشوائية الصادرة عنهما، تحمل في قلبها نبرة الوداع، رنة وتر حزين، أغنية فراق أخيرة. ها هي النهاية؛ ولا عودة لنا. البيت، بيت جدي الذي كان حقي أن أعيش وأكبر فيه، على وشك التلاشي. فلن أذكر منه شيئًا. ليت بيدي استدعاء قائمة الدول التي لم توقّع معاهدة الاسترداد. معظمها غير مريحة، صعبة المعيشة، وحارة. سمعت أن في بكّين بقعة لطيفة للهاربين. قرية مزدهرة بسكانها الأشرار الناطقين باللغة الإنجليزية، مدفونة عميقًا في الرحاب الشاسعة للعاصمة العالمية، مآل لا بأس به.

"حبوب منومة، مسكنات،" يهتف كلود.

صوته، نبرته، تستحثني. قد أزفت ساعة القرار. ها هو يغلق الحقائب الآن، يشد الأربطة الجلدية، قد فرغا بسرعة. لا بد أنهما جهزا مسبقًا نصف المتاع. تلك حقائب من الطراز القديم ذي العجلتين لا الأربع. كلود يحملهما عن السرير ويضعهما على الأرض.

ترودي تسأل، "أيهما؟"

أظنها تحمل وشاحين. كلود ينخر جوابه. ما هذا إلا ادعاء بأن الأمور طبيعية. سيستقلان القطار. ومتى ما قطعا الحدود، سيصرّح ذنبهما عن نفسه. لم يتبق أمامهما سوى ساعة وعليهما أن يتعجلا. ترودي تقول إن هناك معطفًا تريده ولا يسعها العثور عليه. كلود يصر أنها ليست في حاجته.

"لكنه خفيف،" تقول له، "المعطف الأبيض."

"سيميزك من بين الحشود. على كاميرات المراقبة."

تتجاهله وتعثر عليه لحظة تدق عقارب بيغ بن معلنةً الساعة الثامنة وتستهل الأخبار نشرتها. لا يتوقفان كي يستمعا إليها. فلا تزال هناك أغراض أخيرة تستلزم التوضيب. في نيجيريا، أطفال حرقوا أحياء أمام أعين آبائهم وأمهاتهم على يد حاملي شعلة الدين. في كوريا الشمالية، أطلقوا صاروخًا. عالميًا، مستويات البحر تصل ارتفاعات تفوق التنبؤات. لكن لا خبر منها يحتل الأولوية على قائمة الأخبار. فالأولوية محجوزة للكارثة الجديدة. كارثة هي خليط من الكوارث، الفقر والحرب في الصف الأمامي، والتغير المناخي في الصف الخلفي، تدفع بملايين البشر إلى هجرة أوطانهم، ملحمة قديمة قدم الزمن لكن في حلة جديدة، جماعات ضخمة نازحة، تفيض كما أنهار الربيع المتفجرة. أنهار **دانوب**، **وراين**، **ورون** من البشر الغاضبين يحدوهم اليأس أو الأمل، يحتشدون على الحدود مقابل بوابات الأسلاك الشائكة، يغرقون بالآلاف طمعًا بمشاركة ثروات الغرب. وإن كان، وفقًا للوصف المبتذل الجديد، ما يشهده العالم هو مشهد توراتي، فلا بحر انشق لأجلهم، لا بحر **إيجه** ولا **القنال الإنجليزي**. أوروبا العجوز

تتقلب في منامها، غارقة في حيرتها بين إظهار الشفقة والخوف، بين مد يد العون ورفع يد الصد. عاطفية وطيبة هذا الأسبوع، متحجرة القلب وعقلانية الأسبوع الذي يليه، نيتها المساعدة، بيد أنها ترفض مشاركة ثرواتها أو خسارة مكتسباتها.

ودائمًا وأبدًا، هناك مشاكل أقرب للبيت وأكثر إلحاحًا. فبينما محطات الإذاعة والتلفاز تستغرق في أزيزها الرتيب حول كوارث العالم، فالناس في كل مكان يواصلون حياتهم المعتادة. زوجان قد فرغا التو من توضيب حقائبهما استعدادًا لرحلتهما. الحقائب مغلقة، لكن المرأة اليافعة تريد إحضار صورة والدتها معها. الإطار المزخرف الثقيل يصعب ضبه في الحقيبة. وبدون الأداة المناسبة يستحيل نزع الصورة عن الإطار، والأداة، نوع خاص من المفاتيح، موجود في السرداب، عميقًا داخل درج من الأدراج. سيارة أجرة تقف خارجًا في الانتظار. القطار ينطلق بعد خمس وخمسين دقيقة، المحطة ليست قريبة، وقد يجدا طوابير أمامهما عند الأمن والجوازات. الرجل يحمل إحدى الحقيبتين خارجًا إلى مبسط السلم ويعود أدراجه، أنفاسه منقطعة. يجدر به استغلال ميزة العجلات.

"صدقًا علينا التحرك الآن."

"لا بد أن آخذ الصورة معي."

"احملها أسفل ذراعك."

لكنها تحمل حقيبة يدها، معطفها الأبيض، تجر حقيبة ملابسها، وتحملني أنا.

أسمع أنين كلود بينما يحمل الحقيبة الثانية خارجًا. ببذله هذا المجهود غير الضروري يثبت موقفه حول ضرورة الاستعجال.

"لن يأخذ منك دقيقة. ستجد المفتاح في الزاوية الأمامية للدرج الأيسر."

يعود قائلًا، "ترودي، نحن سنغادر، الآن."

نبرة تبادلهما الحديث قد تحولت من الإيجاز إلى الامتعاض.

"أنت احملها لي."

"مستحيل."

"كلود. إنها أمي."

"لا يهمني. سنغادر الآن."

لكنهما لن يغادرا. فبعد كل تقلباتي ومراجعاتي، تأويلي الضائع ورجعي الخاطئ، زلات بصيرتي، محاولاتي إهلاك نفسي، استغراقي في الأسى واستسلامي، فقد وصلت الآن إلى قرار. هنا وكفى. كيسي السلويّ هو حقيبتي الحريرية الشفافة، الرفيعة القوية، التي تحتويني. كما أنه يحتوي السائل الذي يحميني من العالم وأحلامه المزعجة. ليس بعد الآن. آن أوان الانضمام، وضع نهاية لكل النهايات. قد آن أوان البداية. يصعب عليّ تحرير ذراعي اليمنى المحشورة قبالة صدري، أو تحريك رسغي. لكني أخيرًا أنجح. سبابتي هي أداتي الخاصة كي أنزع أمي عن الإطار. أبكر من الموعد بأسبوعين وأظافري جد طويلة، أتصدى لمحاولتي الأولى في شق الكيس. أظافري ناعمة، ومع أن الكيس رفيع، فالنسيج متين. الطبيعة أدرى بسننها. أتلمس الثلم الذي تسبب به ظفري. هناك خدش، وخدش واضح، وفيه أكرر محاولاتي، مرةً تلو الأخرى، مع المحاولة الخامسة، أستشعر الطبقة الأولى من الجدار، ومع السادسة، أستشعر شقًّا صغيرًا. وفي هذا الشق أتمكن من إدخال طرف ظفري، إصبعي، من ثم إصبعين، ثلاثة، أربعة، وأخيرًا بقبضتي

المتكورة ألكم الجدار بكل قوتي وإذ من خلفه ينصب عليّ الطوفان متدفقًا متفجرًا إيذانًا بالحياة. حصني المائي قد انهار.

والآن لن أعرف أبدًا كيف كانت ستحل مشكلة الصورة ولا مسألة الوصول إلى قطار التاسعة. كلود يقف خارج الحجرة على رأس السلم. يحمل حقيبة في كل يد من يديه، مستعدًا للنزول.

أمي تنادي عليه نداءً يبدو لي مشوبًا بخيبة الأمل. "أوه كلود."

"ما الذي تريدينه الآن؟"

"مائي، مائي قد سال!"

"سنتعامل مع الأمر لاحقًا. هلم بنا إلى القطار."

لا بد أنه ظنها خديعة، استمرارية لشجارهما، شكلًا كريهًا من المشاكل النسوية، وهو جد مهتاج الآن للتعامل معها.

أتلوى وأخلع عني برقعي، تجربتي الأولى في نزع ملابسي. لكني أخرق. فالأبعاد الثلاثة أكثر مما أطيق. أتنبأ أن العالم المادي سيشكل لي تحديًا كبير. عباءتي المنزوعة تنفتل حول ركبتيّ. لا يهم. فعليّ أن أتعامل مع ما يجري أسفل رأسي. لا أدري كيف أعرف ما يتوجب عليّ فعله. سرٌّ غامض من أسرار الحياة. ببساطة هناك معرفة تولد معنا. وفي حالتي، لدي معرفتي هذه، ومعرفتي السطحية بالتقطيعات الشِّعرية. على ما يبدو، لن أولد لوحةً بيضاء خاوية. وذات اليد التي هدمت بها حصني أرفعها الآن إلى وجنتي، وأنزلق أكثر وأكثر عبر الجدار العضلي للرحم أسفلًا نحو العنق. الحيز ضيق جدًا ويضغط على مؤخر رأسي. وها هي هناك، بوابتي إلى العالم، أجسها برفق، بأصابعي الصغيرة الواهنة، وإذ فجأةً، مثل وقع السحر، أستحث القوة العظيمة لأمي، الجدران من حولي تتموج من ثم تهتز وتنغلق عليّ. زلزال ووقع، عملاق ضخم يتقلب

في كهفها. ومثلي مثل الغلام المتمهن لدى الساحر، تتجمد أوصالي رعبًا أمام القوة العظيمة التي أطلقتها. كان يجدر بي انتظار دوري. الأحمق وحسب يتعبث بقوى خارقة كهذه. ومن بعيد يصلني صياح أمي. قد تكون صرخة طلب للمساعدة أو زعيق ألم أو بهجة انتصار. وها أنا أشعر به أعلى رأسي، على قمة جمجمتي – توسع بمقدار سنتيمترا لا عودة للوراء.

ترودي قد زحفت نحو الفراش. كلود في مكان ما قرب الباب. هي الآن تلهث، يغالبها الحماس، وكذلك الخوف.

"قد بدأ. وسريعًا! اتصل بالإسعاف."

للحظة لا يتفوه بكلمة، من ثم يسأل وبكل بساطة، "أين جوازي؟"

الفشل فشلي. قد استخفيت به. فالمغزى من وصولي باكرًا كان القضاء على كلود. كنت مدركًا شره، لكني ظننته يحب أمي وسيؤثر البقاء معها. الآن وحسب أعي حقًا مدى جلدها وثباتها. على وقع رنين ارتطام القطع النقدية بعلبة المَسْكَرة بينما ينقب في حقيبة يدها، أسمعها تقول، "قد خبأته. في الأسفل. في حال فعلت بي ما تفعله الآن."

يقف متفكرًا. فهو تاجر عقار، يملك ناطحة سحاب في كارديف ويعرف الصفقة متى ما رآها. "أعلميني بمكانه وسأتصل لك بالإسعاف. وبعدها أغادر."

صوتها يشوبه الحذر. تتأمل مليًا حالتها، تنتظر، متشوقةً ومذعورة، قدوم الموجة التالية.

"كلا. إن وقعتُ ستقع معي."

"حسن إذن. لا سيارة إسعاف."

"سأتصل بهم بنفسي. ما إن – "

ما إن يمر الانقباض الثاني، والذي جاء أقوى من الأول. كرةً أخرى، تصيح صراخها اللاإراديّ، وجسدها بأكمله يطبق عليّ بينما كلود يقطع الحجرة نحو السرير، نحو المنضدة الجانبية، ويفصل خط الهاتف، أما جسدي فمضغوط في غمرة هذا الهيجان الذي يشفطني ويدفع بي أسفلًا إلى الوراء إنشًا أو إنشين عن مرقد راحتي الأوليّ. رباط حديديّ حول رأسي يضيق عليّ. لا عودة الآن، مصائرنا نحن الثلاثة قد تشابكت وبتنا بين فكّي الأسد.

ما إن تنحسر الموجة، يقول كلود، في نبرة ضجرة كما نبرة ضابط الحدود، "الجواز؟"

تهز رأسها، تنتظر التقاط أنفاسها. كلاهما يحاول إبقاء كفة القوى راجحة لصالحه، والنتيجة أنهما عالقان في توازن.

تستعيد قواها وتقول في نبرة هادئة، "إذن عليك أن تكون القابلة."

"ليس بطفلي."

"ومذ متى كان الطفل ابن القابلة."

هي مذعورة، إلا أنها تملك القدرة على إخافته بأوامرها.

"ما إن يخرج الجنين ستجد وجهه موجهًا للأسفل. ستحمله، بكلتا يديك، بمنتهى الرقة، ساندًا رأسه، من ثم ستضعه عليّ، على ذات وضعيته، الوجه للأسفل، بين نهديّ، قريبًا من نبض قلبي. لا تقلق بشأن الحبل السري. سيكف من تلقاء نفسه عن النبض والرضيع سيشرع بالتنفس. ستدثره بمنشفتين كي تبقيه دافئًا. من ثم ننتظر."

"ننتظر؟ بحق المسيح. ننتظر ماذا؟"

"ولادة المشيمة."

إن جفل أو انتابه الغثيان، فلن أدري. لربما ما زال الأمل يحدوه

بأننا قد ننتهي من هذا الأمر ونستقل قطارًا آخر.

أرهف سمعي، عازمًا على تعلم ما يجدر بي فعله. توارى أسفل المنشفة. تنفس. وإياك أن تنبس بكلمة. لكن جنين! لا، بل أكيد أزرق أو زهريًّا!

"اذهب وأحضر مجموعة مناشف. الفوضى ستغدو عارمة. اغسل يديك واكشطهما جيدًا بمزيل صبغ الأظافر وصابون كثير."

بعيدًا جدًا في عمق البحر، بعيدًا جدًا عن بَرّ أمان يستقبله، رجل دون أوراقه الرسمية في سعيه للنفاد بجلده والهرب، يستدير وينصاع إلى الأوامر الملقاة عليه.

ويستمر الحال على هذا المنوال، موجة تعقب موجة، صراخ وعويل، التماس للرحمة علَّها تخفف هذا الألم المبرح. إلا أن الولادة لا تعرف الرحمة، هي عملية قاسية، طرد حثيث. الحبل يكر من خلفي بينما أشق طريقي قدمًا. قدمًا وخارجًا. قوى الطبيعة التي لا تعرف الشفقة تنوي تسويتي. أمُرّ في طريقي على مكان أعرف أن عمي قد مرَّ عليه كثيرًا في الاتجاه المعاكس. لكن الأمر لا يزعجني. فما كان في أيامه مهبلًا، هو الآن وبكل فخر واعتزاز قناة ولادتي، قناة باناما، وأنا أعظم شأنًا منه بكثير، فأنا سفينة جِينيّة عظيمة، أمخر القناة مبجلًا بتقدمي المهيب، مُحَمّلًا ببضائعي النفيسة من المعرفة العتيقة. ولا قضيب في الدنيا يقارن بي. لبرهة أصاب بالصمم، بالعمى، والخرس، والألم يجتاحني. لكن الألم الأشد هو من نصيب أمي التي يعلو صراخها مع كل لحظة وهي تقدم التضحية العظمى التي تقدمها كل أُمٍّ كرمى رضيعها ذي الرأس الضخم والحنجرة القوية التي لن تكف عن الصراخ والعويل.

لحظة من الانزلاق الشمعي، صرير خفيف، وها أنا لدى خروجي،

أُنَصّب عاريًا على عرش مملكتي. مثلي مثل كورتيز الجريء (أذكر قصيدةً تلاها أبي يومًا علينا[54]) وأصاب بالذهول. أنظر أسفلًا، باندهاش، نحو سطح المناشف المنبسطة، وحدسي ينبئني، أنها زرقاء. الأزرق. لطالما عرفت، على الأقل لفظيًا، أني كنت قادرًا على استنباط اللون الأزرق – البحر، السماء، اللازورد، زهور الجنطيانا – كلها كانت تعابير تجريدية. لكني أخيرًا حظيت باللون الأزرق، بتُّ أملكه، ويتملكني. يفوق في بهائه وجماله كل ما جرؤت يومًا على تخيله. وما هذه إلا البداية وحسب، فالتوّ أمسكت بالطرف النيلي من قوس قزح.

حبلي الوفي المخلص، حبل الحياة الذي فشل في قتلي، ها قد همد ومات ميتته المحتومة. وهأنذا أتنفس. يا لها من لذة غير معقولة. نصيحتي إلى كل المواليد الجدد: لا تبكوا، انظروا حولكم، تذوقوا الهواء. أنا في لندن. الهواء منعش. الأصوات جلية واضحة بعد أن علت ثلاثة أضعاف. المنشفة تشرق بلونها الأزرق وأستحضر جامع جوهرشاد في إيران الذي أدمعت عينا أبي لمَرْآه فجرًا. أمي تتزحزح فأستدير برأسي. وإذ ألمح كلود. أصغر حجمًا مما تخيلته، بكتفين ضيقتين ونظرة ثعلبية خبيثة. لا مجال لإساءة فهم ملامح القرف على وجهه. شعاع الضياء الآفل لشمس الغروب عبر شجرة الصنّار ترسم نقوشًا مذهلة على السقف. آه ثم آه، بهجة بسط ساقيّ، بهجة سماعي صوت المنبه وإدراكي أنهما أبدًا لن يلحقا بقطارهما. لكن لا أملك وقتًا كي أتلذّذ. فها هو قفصي الصدري المرن يُقبَض عليه بإحكام بيدَي قاتل منقرف ويوضع على البطن الناعم كما الثلج لقاتل مضياف.

---

(54) القصيدة هي (On First Looking into Chapman's Homer) للشاعر الانجليزي جون كيتس، وفيها يصف ذهوله وإعجابه بترجمة تشابمان لهومر، ترجمة تعتمد المعنى والروح لا النص الحرفي، وكيف لدى قراءته اياها انتابه ذات الذهول لاكتشافه هومر من جديد كما الذهول الذي انتاب المستكشف الاسباني كورتيز لدى وقوع عينيه على العالم الجديد (أميركا الجنوبية).

نبض قلبها يأتيني من بعيد، مكتومًا، لكن مألوف، مثل جوقة قديمة مرَّ دهر على سماعها آخر مرة. النوتة الموسيقية بطيئة، خطىً رقيقة تقود بي إلى البوابة المفتوحة الحقيقية. لا أنكر الرهبة التي تتملكني. لكني مُنهَك القوى، بَحّار ناج من حطام سفينة غارقة قاده الحظ إلى شاطئ الأمان. أغيب عن الوعي، لا أشعر حتى بالمحيط يلعق كاحليّ.

*****

لا بد أن النعاس قد غالبنا أنا وترودي. لا أدري كم من الدقائق مضت علينا قبل سماعنا جرس الباب. كم صوت رنينه نقيّ وواضح. كلود ما زال هنا، ما زال يأمل في العثور على جوازه. ولربما كان في الأسفل ينقب عنه. والآن ها هو يتجه صوب الهاتف المرئي. يرمق الشاشة ويستدير بعيدًا. لا مفاجأة هناك.

"أربعة منهم،" يقولها لنفسه لا نحن.

نتأمل الوضع. ها قد بلغت المسرحية نهايتها، وليست حتى بالنهاية السعيدة. ما كان مكتوبًا لها أصلًا النهاية السعيدة.

تحركني أمي كي يتسنى لنا تبادل نظرة عميقة. اللحظة التي تقت إليها طويلًا. كنتَ مُحقًّا أبي، يا له من وجه فاتن جميل. الشعر أغمق مما تصورته، والأخضر في عينيها أفتح، الوجنتان متوردتان حدَّ الاحمرار إثر إجهادها، وأنفها حقًا دقيق. أخالني أرى العالم كله في محيّا أمي. جميلًا. مُحبًّا. مُجرمًا. أسمع كلود يقطع الحجرة في خطىً مذعنة في طريقه نحو الأسفل. لا كليشيه في جعبته لدى خروجه. وحتى في هذه اللحظة من السكون، مستغرقًا في هذه النظرة الطويلة، المتلهفة، الشاخصة في عينيّ أمي، أجدني أفكر بشأن سيارة الأجرة الواقفة في

الانتظار خارجًا. يا له من هدر. حان الوقت لإرساله في طريقه. وأفكر في الزنزانة التي تجمعني بأمي – آمل حقًا ألا تكون ضيقة جدًا – من خلف بابها الثقيل، خطىً مرهقة بالية صاعدة نحونا: الأسى في المقدمة، تعقبها العدالة، من ثم المعنى. والبقية فوضى[55].

(55) آخر ما نطق به هاملت لدى احتضاره إثر قتله بالسم واصفًا الموت: "... والبقية صمت وسكون." (تعريب جبرا ابراهيم جبرا)

كلمة المترجم

رواية "قشرة الجوزة" عملٌ أدبي يعتمد التناص مع نصٍّ كلاسيكي في الأدب الانجليزي والمسرح العالمي، وهذا النص هو "هاملت" لشكسبير. التناص يبدأ مع الأبيغراف الذي يتصدر الكتاب والذي منه يستوحي الروائي إيان مكّيوان عنوان الرواية. على مدار النص يستلهم مكّيوان من نص هاملت - أساسًا - ومن نصوص شكسبيرية أخرى من مثل مكبث والسونيتات أحداثًا وصورًا مجازية واستعارية ويضمنها أحداث روايته من نصوص حوارية ومونولوجات، حتى أسماء الشخصيات الرئيسة هي مستوحاة من هاملت. فوجدتني كمترجم ملزمة أن أحافظ على هذا التناص لدى القارئ العربي، ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتماد على القلم العربي لشكسبير مصدرًا للتناص، وهذا القلم بلا ريب يتجسد في تعريب الأستاذ الكبير جبرا ابراهيم جبرا لهذه النصوص. هناك إشارات مرجعية، بدايةً مع الأبيغراف، إلى تعريب جبرا ابراهيم جبرا، وتمتد في مواضع عدة على مدار الرواية متى ما وجدتُ ضرورة في الإشارة إلى المصدر الشكسبيريّ كي يكتمل المعنى. لكن عزيزي القارئ، هذه الإشارات المرجعية لن تفيك حقك في تذوق مدى عمق التناص بين العملين، هي فقط رأس الخيط، إذ لو أني أرفقت إشارة مرجعية بكل صورة وعبارة وحوار وتلاعب لفظي وفسرتها لك على الهامش لكنتُ أسأت إلى تجربة

قراءتك بمقاطعات كثيرة، ولكنتُ كذلك حرمتك من متعة الاكتشاف التي عشتها في ترجمة هذا العمل توازيًا مع قراءتي لهاملت باللغتين الانجليزية والعربية. لذا أنصحك إن أردت، أن تقرأ هاملت وتستنبط بعض تلك الارتباطات وتتعمق أكثر في تحليل النص، وأراك ستتعمق وتستنبط أكثر مما فعلت أنا.

في "هاملت"، هناك طيف الأب، وكذلك في رواية "قشرة الجوزة". وفي عملي على ترجمة هذه الرواية، هناك طيفٌ رافقني، لكن ما كان بطيف أبي، وما كان بطيفٍ منتقم ولا بغافل، بل طيفًا سلب لبّي بجمال قلمه وغزير علمه، شاعرًا شغوف، مترجمًا فصيح، وناقدًا مفكّر. فإن كانت الرواية في لسانها الانجليزي تحية إجلال إلى ويليم شكسبير، فالرواية في لسانها العربي، ولا ريب، تحية إجلال إلى جبرا إبراهيم جبرا.

إيمان أسعد
الكويت يوليو 2019

المؤلف

إيان مكّيوان روائيّ بريطاني وُلد عام 1948. ألّف أكثر من سبع عشرة رواية. وصلت رواياته «الارتياحُ للغرباء» و«كفّارة» و«كلاب سوداء» إلى القوائم القصيرة لجائزة مان بوكر، وفاز بها عام 1988 عن روايته «آمستردام»، وقد فازت كتبه الأخرى بجوائز عديدة. ألّفَ أيضاً سيناريوهات للمسرح والتلفزيون. أدرجته صحيفة التايمز في قائمة أفضل خمسين روائيًّا بريطانيًّا منذ عام 1945، وحصد الترتيب 19 في قائمة الديلي تيليغراف لأقوى 100 شخصيّة في الأوساط الثقافيّة البريطانيّة. يُقيم حاليًّا في لندن.

المترجم

إيمان أسعد، روائية أردنية مقيمة في الكويت، صدر لها رواية "زينب والخيط الذهبي" عام 2014. حاصلة على شهادة الماجستير في الدراسات الأمريكية من الجامعة الأردنية عام 2005، وعلى شهادة البكالوريوس في تخصّصي علم الحاسب الآلي والأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام 2003. ترجمت إلى العربية رواية غراهام سويفت "الطلب الأخير" ومارغريت آتوود "السفاح الأعمى".

قشرة الجوزة

«كُنّا عَشيقَين ملحميّين. نقف على قمة شاهقة لا أحد قبلنا بلغها. لا حياةً ولا شعرًا. حبنا كان من الرفعة والعظمة حدَّ رأيناه ناموسًا كونيًّا. كان نظامًا أخلاقيًّا، وسيلة يتحتم وجودها كي نتواصل مع الآخرين. بيد أن العالم ولسبب ما قد تغاضى عنها. متى ما استلقينا على الفراش الضيق وجهًا لوجهٍ، كلٌ يُنعم النظر في عيني الآخر، وتبادلنا الحديث، استحضرنا ذاتَينا من الغياب إلى الوجود. كانت تمسك يديَّ وتُقبّلهما، ولأوّل مرة في حياتي لم يعترني الخجل منهما. عائلتانا، بعد أن استغرقنا في الحديث بالتفصيل عنهما، بدتا لأوّل مرّة منطقيّتين. أحببنا عائلتينا باندفاع، رغم كل صعوبات الماضي. وكذا كان الحال مع أعزّ وأقرب أصدقائنا. بات بيدنا مغفرة الكل على خطاياه. فحُبّنا قد جاء لصالح الخير في هذا العالم. ترودي وأنا ما سبق لنا أن أصغينا وتحدثنا بكل هذا الاهتمام. ممارستنا الحب تستهل حديثنا، حديثنا يستهل ممارستنا الحب.»

خانت ترودي، في أشهُر حملها الأخيرة، زوجها جون، الشّاعر الرقيق الذي كتب فيها أجمل قصائده (كتفاها بيضاوان بياض التفاح المقشور) رغم أنها لا تزال تعيش في بيته: بيت يتداعى، لكنه لا يقدّر بثمن، يتوسّط مدينة لندن. أمّا العشيق التافه حدّ الجنون فهو لا أحد سوى أخي جون نفسه، كلود، الذي رسم خطّة خطِرة ومستقبلًا سِريًّا مع ترودي للاستيلاء على البيت، لكن هناك شاهدًا، شاهدًا خفيًّا، دخل التوّ شهره التاسع في رحم ترودي، وهو من يروي علينا ما حدث.

بين أفضل كتب عام 2016 في قوائم تايمز، وغارديان، وديلي تلغراف.

رشّحها موقع Goodreads لنيل أفضل رواية عام 2016

Cover Photo by Jeff Thrower/Shutterstock
Cover design by Diana Chamma

ISBN 978-9948-37-975-1
9 789948 379751

روايات
REWAYAT